تاريخ التربية والتعليم فى مصر

الجزء الثانى

عصر البطالمة

جمهورية مصر العربية

وزارة الثقافة

المكتبة العربية

يصدرها

المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية

بالاشتراك مع

الهيئة المصرية العامة للكتاب

القاهرة

تاريخ التربية والتعليم في مصر

الجزء الثانى

عصر البطالمة

د. إبراهيم نصحى



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٧٥



الفهرس



مقدمة

١ ـ دولة البطالمة

عندما فتح الاسكندر الأكبر مصر فى خريف عام ٣٣٢ ق • م • طويت صفحة من تاريخها الطويل وفتحت صفحة جديدة احتلت سيرة الاغريق وحضارتهم أبرز مكان فيها • وقد رحب المصريون بقدوم الاسكندر ظنا منهم أنه جاءهم مثل ما جاءهم الاغريق مرارا من قبل ، لمناصرتهم على عدوهم المشترك : الفرس • لكن الفتح المقدونى تمخض عنه قيام عهد من الحكم الأجنبى كان أطول بقاء وأكثر ارهاقا من أى حكم أجنبى شهدته مصر من قبل ، ذلك هو عهد البطالمة • ولما كانت مصر قد غدت منذ فتح الاسكندر وثيقة الاتصال بالعالم الاغريقى ، بل أصبحت تعتبر جزءا منه ، وكان عهد البطالمة يمتد منذ اقامة بطلميوس بن لاجوس واليا على مصر فى عام ٣٢٣ ق • م حتى استيلاء الرومان على دولة البطالمة فى عام ٣٠ ق•م فان عهد البطالمة ينتمى الى العصر الهلينيسى ، بل هو فى الواقع الاسم المحلى لهذا العصر الذى اتفق المؤرخون على أنه يبدأ فى العالم الاغريقى منذ وفاة الاسكندر فى عام ٣٢٣ وينتهى بالقضاء على دولة البطالمة واستيلاء الرومان على مصر ، وكانت آخر دولة هلينيسية لاتزال تحتفظ بكيانها وظل من استقلالها •

وعقب وفاة الاسكندر تقرر أن يؤول عرش الامبراطورية المقدونية الى شريكين تحت الوصاية هما فيليب أرهيدايوس والاسكندر الرابع ، فقد كان الأول شابا ضعيف العقل أنجبه والد الاسكندر الأكبر من حظية

تسالية ، والثانى طفلا أنجبته زوجة الاسكندر الفارسيه بعد وفاة الفاتح الكبير بحوالى ثلاثة شهور • وقد آلت الوصاية على الملكين الى برديكاس القائد العام للجيش والمهيمن على شئون الامبراطورية • وتقرر كذلك توزيع ولايات الامبراطورية بين قواد الاسكندر الأكبر ليحكموها بوصف كونهم ولاة من قبل الأسرة المالكة المقدونية • ولما كانت تجيش فى صدور أغلب هؤلاء القواد أطماع واسعة ، فانهم لم يكونوا على استعداد لقبول أوامر الذين كانوا سيحكمون باسم الملكين متى توافرت لديهم القوة الكافية لتأييد رغبتهم فى الاستقلال •

ومنذ وطأت قدما بطلميوس أرض مصر عمل أن يجعل منها دولة قوية غنية مستقلة يحمل أحفاده صولجانها على تعاقب الأجيال • وقد كان بناء مثل هذه الدولة يحتم أمرين : أحدهما هو فصم عرى الامبراطورية المقدونية ومكافحة كل من تحدثه نفسه باحيائها لحساب الأسرة المالكة المقدونية أو لحسابه الخاص • والأمر الآخر هو ضم الأقاليم التى تساعد على دعم حدود مصر وتوفير ما تفتقر اليه من مواد كالأخشاب والمعادن • وازاء ذلك استشعر بطلميوس الحاجة الى جيش كبير وأسطول قوى ليفوز باستقلال مصر ويحافظ عليه ويحرز مكانة سامية فى السياسة الدولية •

ولما كانت تحت امرة منافسى بطلميوس وخلفائه جيوش وأساطيل من الطراز الأول ، اذ كانت مؤلفة من خيرة جنود العصر ـ المقدونيين والاغريق ـ فقد اعتقد البطالمة الأوائل أنه لتحقيق سياستهم الخارجية بل للمحافظة على كيان دولتهم كان لابد من أن يكون لهم جيش وأسطول من طراز جيوش وأساطيل منافسيهم • وكان ذلك يقتضى استقدام الاغريق وأشباههم للخدمة فى قوات البطالمة •

ولما كانت وفرة المال شرطا أساسيا لبناء الجيوش والأساطيل واكتساب ود الدول ورجال السياسة ، وكانت مصر على غنى مواردها الطبيعية

لا تستطيع مواجهة المطالب الجديدة اذا بقيت شئونها الادارية وحالتها الاقتصادية على ما كانت عليه عند الفتح المقدونى ، بعد كل ما عانته من جراء الحكم الفارسى والانتقاض عليه عدة مرات ، فانه لم تكن هناك مندوحة عن اعادة تنظيم شئون الادارة ، والنهوض بمرافق البلاد الاقتصادية واستغلالها استغلالا منظما دقيقا وتصدير أكبر قدر ممكن من منتجاتها ، تحت اشراف ادارة مالية يقظة • وللقيام بهذه الأعمال الانشائية الواسعة كان بطلميوس الأول وخلفاؤه فى حاجة الى رءوس أموال والى أعوان مخلصين يستطيعون فهم مراميهم والتفانى فى خدمتهم • وقد كان يتوافر فى بلاد الاغريق الرجال ورءوس الأموال وكذلك الخبرات بأحدث الأساليب الاقتصادية ونظم التجارة السائدة فى عالم البحر الأبيض المتوسط •

ومعنى ذلك كله أن البطالمة الأوائل كانوا يستشعرون حاجة ملحة الى الاغريق لا لبناء جيوشهم وأساطيلهم فحسب ، بل أيضا لاعادة تنظيم شئون دولتهم الادارية والاقتصادية • وثمة اعتبار آخر كان يحفز أولئك الملوك الى الدأب على اجتذاب الاغريق بكثرة الى مصر ، ففى ذلك الوقت — حين كان نجم الحضارات الشرقية القديمة قد أفل ، وكان نجم الحضارة الاغريقية يشرق اشراقا يكاد يخطف الأبصار ، وكانت حضارة الناس قد أضحت تقاس عندئذ بمقدار حظهم من تلك الحضارة — لم يكن فى وسع البطالمة أن يبنوا لأنفسهم مجدا شامخا فى نظر العالم الاغريقى بوصف كونهم فراعنة مصر مهما ينفقون فى بلاد الاغريق من الأموال • ولذلك كان يجب أن يكون مظهر مصر اغريقيا ، وأن تبرز مصر فى ذلك العالم بوصف كونها دولة اغريقية لا دولة شرقية • وقد كان تحقيق هذا الغرض رهنا بتوافر أعداد كبيرة من الاغريق فى مصر ورعاية الحضارة الاغريقية •

وازاء هذه الاعتبارات جميعا لم يكتف البطالمة بفتح أبواب مصر على

مصاريعها للاغريق بل اجزلوا لهم العطاء واختصـوهم بمركز ممتاز فى وطنهم الجديد ، ليضمنوا استمرار وفودهم على مصر بكثرة واستقرارهم فيها على الدوام • وقد استجاب الاغريق الى هذه المغريات طوال القرن الثالث قبل الميلاد ، وساعد على ذلك انهيار المدن الحرة واضطراب أحوال بلاد الاغريق فهرعوا الى مصر زرافات ووحدانا •

وتشير القرائن الى أن البطالمة الأوائل أقاموا حكمهم فى مصر بوصف كونهم غزاة فاتحين فهم لم ينسوا أو يتناسوا اطلاقا أصلهم الأجنبى ، ولم يعتمدوا فى بناء امبراطوريتهم البحرية ولا فى دعم سلطانهم الا على الاغريق والمقدونيين الذين كانوا يشاركونهم الفخار بأصلهم والاعتزاز بحضارتهم • لكن هؤلاء الأجانب لم يكونوا الا أقلية ضئيلة بالنسبة الى المصريين الذين لم يكن للبطالمة غنى عنهم فى استغلال مرافق البلاد الاقتصادية • ومع ذلك فان البطالمة على حين أنهم أجزلوا العطاء للاغريق وأشركوهم معهم فى حكم البلاد وامتصاص دماء أهليها ، لم يألوا جهـدا فى تسخير جهود المصريين مكتفين باتخاذ صـفات الفراعنة ، لأنه وفقا لمعتقدات المصريين الدينية كان فرعون صاحب أرض مصر والسيد المطلق على أهليها •

وقد كان أول مظاهر عطف البطالمة الأوائل على الاغريق تهيئة البيئة المناسبة لمعيشتهم ، ولذلك عنوا ببناء الاسكندرية ومنحها مظاهر الحياة الخليقة بالمدن الاغريقية حتى غدت أكبر مدينة اغريقية فى الدنيا بأسرها ، تفوق فى اتساعها أكبر المدن القديمة : أثينا وكورنثـة وسراقوسة ، كما غدت فى طليعة عواصم الحضارة الاغريقية ، واستمتعت بمكان الصدارة فى حلبة هذه الحضارة طوال القرنين الثالث والثانى قبل الميلاد حتى أنها خلعت اسمها على حضارة هذين القرنين • وحيث توجد اليوم بلدة المنشاه جنوبى سوهاج بحـوالى تسـعة كيلومترات ، أنشأ بطلميوس الأول مدينـة بطوليميس (Ptolemais) ووفر لهـا كل أسـباب الحياة الاغريقية لتكون اسكندرية

منطقة طيبة • وفضلا عن ذلك فان القرائن تشير الى أن المدينة الاغريقية القديمة نقراطيس - وهى التى سمح أبسمتيك الأول لتجار الاغريق بانشائها عند منتصف القرن السابع قبل الميلاد - استمرت تنعم بما ألفته من نظم الحياة الاغريقية وأساليبها •

وهذه المدن الثلاث فضلا عن أنها وفرت لنزلائها أسباب الاستمتاع بالحياة الاغريقية كانت فى الوقت نفسه مراكز اشعاع للحضارة الاغريقية أفاد منها الاغريق الذين ضاقت بهم مدن مصر الاغريقية فتفرقوا بين جنبات الوادى واستقروا اما فى المدن والقرى المصرية القديمة واما فى القرى الجديدة التى أنشأها لهم البطالمة وبخاصة فى الفيوم • وعندما استقر الاغريق فى وطنهم الجديد اقتضاهم البطالمة أن يحتفظوا بلقبهم السياسى عند ذكر أسمائهم فى الوثائق الرسمية • وقد كان سكان مصر جميعا ينقسمون طبقات متفاوتة فى المرتبة تميزها ألقاب سياسية وقومية ، وكان محظورا الانتقال من احدى طبقات السكان الى طبقة أخرى دون الحصول على اذن بذلك من الملك •

وحيثما كان الاغريق ينزلون فى كثرة كانوا يؤلفون جماعات قومية (Politeumata) لا يمكن الجزم اذا كانت قد نشأت من تلقاء نفسها أم أن الدولة هى التى أنشأتها ، وحتى فى الحالة الأولى يبدو أن البطالمة اعترفوا بها سريعا وكلأوها برعايتهم • وتوحى القرائن بأنه كانت هناك صلة قوية بين بعض هذه الجماعات ومدن مصر الاغريقية ، بمعنى أنه كان يباح لأفرادها أن يصبحوا جزءا من هيئة مواطنى هذه المدن • ومن المرجح أنه كانت توجد كذلك صلة وثيقة بين هذه الجماعات والجيش ، لعل أن منشأها هو أن هذه الجماعات كانت تستمد من الجيش جل أعضائها ان لم يكن كلهم • وعلى كل حال فان هذه الجماعات كانت منظمة على نمط المدن الاغريقية وتتمتع بقدر من الحكم الذاتى ، وكان لكل منها حكامها وكهنتها ومقرها فى مكان معين •

وكان من أهم تشكيلات الاغريق جمعيات رجال الجومنازيوم . ذلك ان الجومنازيوم كان قوام حياة الاغريق الاجتماعية والفكرية منذ أقدم العصور ، وأن الاغريق - حيثما نزلوا سواء فى المدن الاغريقية أم فى المدن والقرى المصرية - كانوا ينشئون هذه المؤسسات الجليلة الشأن التى كانت مدارس ومنتديات فى آن واحد . وكان الاغريق يؤلفون كذلك جمعيات ذات طابع دينى أو اجتماعى . ويعزى انتشار هذه الجمعيات بين اغريق مصر الى ميل هؤلاء الى لون من الحياة الاجتماعية يعيضهم الى حد عن جانب من حياة « المدينة الحرة » كان عزيزا عليهم قريبا الى قلوبهم لكن أكثرهم حرموه فى مصر ، اذ أن أغلب اغريق مصر لم يكونوا مواطنين فى مدن يشتركون فى مجالسها وانتخاباتها . فلا عجب أنهم شغفوا بتلك الجمعيات بسبب ما كانت توفره لهم من فرص الاجتماع والمناقشة والانتخاب.

ولما كان قوام سياسة البطالمة الأوائل أن يشركوا الاغريق معهم فى حكم البلاد وفى السيطرة على المصريين وأن يوفروا لأولئك المحظوظين أسباب الرزق الواسع وأساليب الحياة التى توافق مزاجهم الرقيق ، فان الاغريق أصبحوا يقبضون على أرفع المناصب ويستمتعون بخيرات البلاد ويعيشون فى أوساط خاصة بهم تتوافر فيها منتدياتهم ومدارسهم وجمعياتهم ومنظماتهم مما هيأ لهم أسباب الحياة التى ألفوها فى بلادهم ، وجعلهم يكونون الطبقة العليا فى البلاد . وكانت تفصل هذه الطبقة فوارق شاسعة ، اجتماعية وسياسية واقتصادية عن المصريين الذين كانوا يؤلفون الطبقة السفلى ويشعرون بأنهم سلبوا كرامتهم مثلما سلبوا خيرات بلادهم ، ومع ذلك استمروا يحتفظون بعاداتهم وتقاليدهم ويذكرون مجدهم التالد . وازاء ذلك كله نستطيع أن نوقن تماما أن التزاوج بين المصريين والاغريق فى الشطر الأول من عصر البطالمة كان أمرا بعيد الاحتمال ، ولا سيما أن القرائن توحى بأن شرائع المدن الاغريقية كانت لا تعترف بمثل هذا الزواج .

وقد كللت بالنجاح سياسة البطالمة الأوائل فى الاعتماد على الاغريق فى مشروعاتهم الداخلية والخارجية ، فقد تقدمت مرافق البلاد الاقتصادية تقدما كبيرا وأصبحت ثروة البطالمة الأوائل مضرب الأمثال ونجحت قواتهم فى بناء امبراطورية بحرية بلغت أقصى اتساعها فى عهد بطلميوس الثالث حين كانت تمتد من قورينايئة حتى تراقيا • لكنه لم يكن مقدرا لهذا النجاح أن يدوم ، فقد كان ضد طبيعة الأشياء أن تكلل بنجاح مقيم سياسة تقوم على التجنيد الأجنبى والبطش بأمة عريقة وتسخيرها لصالح سادة من الأجانب يتعذر ملء صفوفهم على الدوام بعناصر جديدة من جنسهم • فقد أخذ المصريون يضيقون بحالهم منذ عصر بطلميوس الثانى ويتطلعون الى اليوم الذى يتخلصون فيه من الأجانب ويستردون استقلالهم • وعندما اشتدت وطأة البطالمة والاغريق عليهم ، لم يكن فى وسعهم والقوات الأجنبية المؤلفة من خيرة جنود العصر منتشرة فى كل أرجاء البلاد الا أن يقوموا ـ فى عهد بطلميوس الثانى ـ بحركة مقاومة سلبية تمثلت فى اهمال شئون الزراعة والصناعة •

وعندما خرج بطلميوس الثالث الى « الحرب السورية الثالثة » ، قام المصريون بأول ثورة ضد البطالمة • ونحن لا نعرف عن هذه الثورة أكثر من أنها اضطرت الملك الى العودة سريعا الى مصر لوضع الأمور فى نصابها • وقد ترتب على نقص عدد الاغريق فى بلادهم وعلى نقص عدد الصالحين للقتال من أولئك الأجانب الذين أنزلهم البطالمة فى مصر أنه عندما تهدد انطيوخوس الثالث امبراطورية البطالمة عجز بطلميوس الرابع عن بناء كل قواته من الاغريق واضطر الى استكمالها من المصريين الذين كون منهم قلب جيشه وأحرز بفضلهم نصرا حاسما على جيوش انطيوخوس المؤلفة من المقدونيين والاغريق (موقعة رفح ٢١٧ ق • م) • وقد كان هذا النصر الباهر خير حافز للمصريين على القيام منذ عام ٢١٦ بسلسلة من الثورات القومية العارمة ، مما حدا بالبطالمة ، منذ عهد بطلميوس الرابع ، الى أن يتبعوا

فى معاملة المصريين سياسة جديدة تنطوى على افساح بعض المجال لهم الى جانب الاغريق أملا فى كسب ودهم وولائهم بما منحوهم من امتيازات رفعت من شأنهم وضيقت شقة الفارق بينهم وبين الاغريق • وقد حدث ذلك فى الوقت الذى أصبحت فيه لأرباب الاقطاعات العسكرية الاغريق مصالح دائمة فى البلاد كانت رعايتها تتطلب منهم أن يخطبوا هم أيضا ود المصريين • وفضلا عن ذلك فان بعض المصريين تأغرقوا نتيجة لاقبالهم على التعليم الاغريقى حتى أصبحوا يكتبون الاغريقية ويقرأونها بسهولة ، وكذلك نتيجة لاتخاذهم ملابس اغريقية وأسماء اغريقية ، وأكسبتهم هذه المسحة الاغريقية مكانة ممتازة هى مكانة الاغريق • ومن ناحية أخرى كان بعض الاغريق أيضا قد تأقلموا ، اذ أنهم تعلموا اللغة المصرية وعبدوا الالهه المصرية ، واتخذوا أسماء مصرية وعادات مصرية •

ويبدو أن كل هذه الظروف ساعدت على حدوث شىء من التقارب بين المصريين والاغريق فى الشطر الثانى من عصر البطالمة ، فنشأ عن ذلك تزاوج بين هذين العنصرين نعتقد أنه كان مقصورا على تلك الفئة من المصريين الذين تأغرقوا وتلك الفئة من الاغريق الذين تمصروا • ونحن نستبعد أن يكون ذلك التزاوج قد حدث بالكثرة التى يتوهمها بعض الباحثين • فليس هناك مبرر مقبول لما يذهبون اليه ، ولا سيما أن الشواهد تشير الى أن الغالبية العظمى من المصريين والاغريق ظلوا مصريين صميمين أو اغريقا خالصين • وفضلا عن ذلك فانه اذا كان الشطر الثانى من عصر البطالمة قد شهد تقاربا بين المصريين والاغريق فانه شهد كذلك ثورات المصريين العارمة ضد البطالمة والاغريق ، ولابد من أن تكون تلك الثورات قد حدت من أثر هذا التقارب •

وقد كان الاغريق يتألفون من أربع فئات كانت أولاها فئة كبار

الموظفين المدنيين والعسكريين . وكانت الفئة الثانية تتألف من العلماء والأدباء والاطباء والمحامين والمعلمين والمعماريين والمصورين والمثالين والفنانين . وكانت الفئة الثالثة فئة الأثرياء متوسطى الحال الذين كانوا يمتلكون أراضى وعقارات ويشتغلون بالتزام بعض الحرف أو الصناعات أو جباية الضرائب . وكانت الفئة الرابعة فئه ارباب الحرف اليدوية الذين كانوا يتكسبون قوتهم من الأعمال المضنيه فى الزراعة والتجارة والصناعة عمالا وصناعا وما أشبه ذلك .

ولم يكن الأجانب على كثرتهم الا أقلية ضئيلة بالنسبة الى المصريين ، وكانت تأتى فى مقدمتهم الطبقة الأرستقراطية بشقيها الدينى والدنيوى . واذا كانت القرائن تشير الى أن بطلميوس الأول سمح للأرستقراطية المصرية الدنيوية بالاحتفاظ بممتلكاتها وبقدر من السلطان فى الادارة ، فان القرائن تشير كذلك الى أن البطالمة عملوا منذ أواخر عهد بطلميوس الأول على حرمان هذه الأرستقراطية بالتدريج أملاكها ومناصبها الادارية . وقد كانت الأرستقراطية المصرية الدينية تتمتع فى بداية عصر البطالمة بممتلكات واسعة . وحين أدرك البطالمة ما كان لهذه الأرستقراطية من نفوذ كبير وثروة عريضة ، عملوا على تقليم أظافرها واذلالها . ومع ذلك كان الكهنة المصريون حتى فى الشطر الأول من حكم البطالمة يكونون فئة ممتازة من الأهالى . وبعد موقعة رفح واشتعال لهيب الثورات القومية اضطر البطالمة الى اتباع سياسة جديدة فى معاملة رجال الدين ردت اليهم أغلب امتيازاتهم . وازاء انقراض الأرستقراطية الدنيويه تقريبا ، وازاء المنح التى اضطر البطالمة الأواخر الى اجزالها للكهنة المصريين ، وازاء مكانة هؤلاء الكهنة ونفوذهم بين الأهالى فى طول البلاد وعرضها أصبحت طبقة الكهنة أهم الطبقات المصرية . واذا كان بعض الكهنة قد اتخذوا موقفا سلبيا من الحركات القومية فان البعض الآخر تولوا قيادتها ، لكنه كان لانقسام الزعماء الروحيين أثر كبير فى اضعاف الثورات القومية .

وقبل عصر البطالمة كانت تلي الارستقراطية الوطنية بشقيها الديني والدنيوي طبقة المحاربين المصريين ، وكانت لاتزال تحتل مكانتها الممتازة في البلاد حين وفد عليها بطلميوس وقد مر بنا أن البطالمة الثلاثة الأوائل اعتمدوا الى أقصى حد في تكوين قواتهم على المقدونيين والاغريق ، لكنهم كانوا يخشون تسريح المحاربين المصريين لكيلا ينشروا روح التذمر في البلاد ، فاحتفظوا بهم في فرق خاصة بهؤلاء المحاربين وعهدوا الى بعضهم بأعمال النقل وما أشبه ذلك من الأعمال الثانوية وسلحوا البعض الآخر بالأسلحة الخفيفة أو الأسلحة المصرية العتيقة استعدادا للطوارىء في حالة الضرورة القصوى • وقد استبقى البطالمة المحاربين المصريين في هذا الوضع الذليل لايسمحون لهم بالانتماء الى فرق جيوشهم أو المشاركة مشاركة فعالة في خوض المعارك الى أن تهددت بطلميوس الرابع أزمة خطيرة في وقت نضب فيه معين الرجال في بلاد الاغريق ونقص فيه عدد الصالحين للقتال من نزلاء مصر الأجانب • ومن أجل مواجهة هذه الأزمة اضطر بطلميوس الرابع الى تدريب المصريين وتسليحهم مثل الاغريق والمقدونيين وتكوين قلب الجيش منهم ، فأثبتوا قدرتهم وكفايتهم بانتصارهم على الاغريق والمقدونيين في موقعة رفح وحفزهم هذا النصر على الثورة ضد البطالمة • ويقول المؤرخ الاغريقي بوليبيوس : ان ما فعله بطلميوس الرابع كان عملا صائبا فيما يخص الحاضر لكنه كان بدعة خطيرة تتهدد المستقبل • وازاء ما ترتب على انتصار المصريين في رفح لم يعتمد البطالمة ثانية على المصريين في تكوين قلب الجيش ، لكنه ازاء انتعاش الروح القومي بين المصريين وثوراتهم على البطالمة الأواخر لم يجرؤ أولئك البطالمة على اخراج المصريين من الجيش • ولما كان البطالمة الأوائل قد حرموا المحاربين المصريين شرف الاشتراك الفعلي في حروبهم كما حرموهم التمتع بمكانة ممتازة في البلاد وقتروا عليهم في الرزق تقتيرا شديدا بالقياس الى السخاء الذي كان الجنود الأجانب يعاملون به ، فان المحاربين المصريين شعروا ، كغيرهم من

سائر طبقات المصريين ، بذل الاحتـلال الأجنبى وذاقوا مرارة الاهانة والحرمان فأسهموا فى الثورات القومية • واذا كانت حال المحاربين المصريين قد تحسنت فى الشطر الثانى من عهد البطالمة ، فان هـذا التحسن كان نسبيا بالقياس الى ما كانت عليه حالهم قبـل ذلك • ذلك أن الجنود الأجانب كانوا لايزالون يكونون الجانب الأكبر من القوات البطلمية ويتمتعون بأرفع المناصب وأكبر الاقطاعات •

وكانت طبقة الموظفين المصريين تلى هذه الطبقة قبـل عصر البطالمة ، وكانت هـذه الطبقة تتألف من حكام الأقاليم وكتبة متفاوتى الدرجـات • ويبدو أن فئتهـم العليـا اختفت تدريجيـا ولم يبق فى خدمة الحكومة من الموظفين المصريين الا فئة صغار الكتبة الذين اضطروا الى تعلم نظم العمل الجديدة والخضوع لرؤسائهـم الجدد ، فضلا عن تعلم اللغة الاغريقية التى جعلهـا البطالمة اللغة الرسـمية فى البـلاد • ولم تكن المنـاصب الحكوميـة المتواضعة التى يستطيع المصريون توليها فى خـلال القرن الثالث قبل الميلاد مصدر خير عميم لشاغليها فقد كانت تبعاتها أكثر من نفعها • أما فى أواخر الشطر الثانى من عصر البطالمة فانه سـمح للمصريين بتولى بعض المناصب الرئيسية فى الادارة المحلية •

وكان يأتى فى مؤخـرة الطبقات الاجتماعيـة ملايين المصريين وكان أكثرهم يشتغل بالزراعة وبعضـهم بالصـناعة والتجارة ، وكانوا كالعادة عماد حياة البـلاد الاقتصادية ، ولذلك كانوا أكثر تأثرا من غيرهم بذلك النظام المالى الكريه الذى وضـعه البطالمة للبلاد • ولما كان الهدف الرئيسى لهذا النظام جعل الدولة أو بعبارة أدق الملك غنيا ، فقد كان يتعين توجيه كل جهـود الأهالى نحو تحقيق هذا الهدف • وقد كانت الغالبية العظمى من المصريين يخدمون موارد الملك بطريقة أو أخرى ، اما بمثابة مستأجرى أرضه واما عمالا فى مصانعه أو فى مصانع تعمل لحسابه واما أرباب مصانع

تؤدى له ضرائب معينة نظير الترخيص لها بمزاولة عملها فضلا عن اعطائه نسبة معينة من انتاجهـا ، واما تجار تجزئة واما رعاة واما صيادين واما يشتغلون بالنقل البرى أو المائى ويدفعون جميعا ضرائب معينة لقاء مزاولتهم أعمالهم • والى جانب كل هذه الأعمال العادية التى كانت الحكومة تستمد منهـا دخـلاً كبيراً ، كان يفـرض عـلى الأهالى أداء كثير من الخدمات الاجبارية • وبرغم كل الأعباء التى أثقل بها كاهل غالبية الزراع والصناع والعمال المصريين ، وكانت أشـد وطأة مما ابتلوا به فى أى وقت مضى ، فان حالهم لم تتحسن ، لأن الملك لكى يفوز بأكبر قدر من الربح عمل على انقاص تكاليف الانتاج الى أدنى حد ممكن ، وتبعا لذلك على عدم رفع مستوى المعيشة للطبقة الكادحة •

ونتيجة للتبعات الثقيلة التى كا نالمصريون يرزحون تحتها يبين أنه لم يكن على شىء من اليسر من ملايينهم المشتغلين بالزراعة والصناعة والتجارة الا نفر قليل كان بعضهم زراعا ناجحين وشاءت ارادة الملك أن يحشروا فى زمرة أرباب أراضى الامتلاك الخاص لأنهم أقدموا على استصلاح بعض الأراضى المهجورة وزرعها كروما أو فاكهة • وأما البعض الآخر فانهم كانوا صناعا ناجحين يزاولون صناعات لم يحتكرها الملك احتكارا كاملا وبذلك لم تغلق دونهم أبواب الكسب اغلاقاً كاملا •

وهكذا نرى أنه لم تنج من بطش البطالمة فئـة واحـدة من فئـات المصريين • ويمكننا أن نتصور شقاءهم متى عرفنا أنهم لم يكونوا خاضعين لملوك غرباء فحسب بل لجنس غريب بأسره تغلغل فى كل نواحى الحياة • واذا كانت حال الكهنة والجنود وموظفى الحكومة ونفر قليـل من الزراع والصناع فى الشطر الثانى من عصر البطالمة أفضل من حال الغالبية العظمى من المصريين ، فان حال هؤلاء القلائل من المصريين الذين كانوا أسـعد حظا من سائر مواطنيهـم ، كانت أسـوأ من حال كثيرين من العنـاصر

الأجنبية • ومن ثم فاننا نستطيع أن نتصور الفارق الهائل بين حال الأجانب وحال المصريين بوجه عام •

وقد كان ذلك كله حافزا على اندلاع لهيب الثورات القومية التى شغلت البطالمة الأواخر عن الدفاع عن امبراطوريتهم وكانت خير مشجع لذوى المطامع من أصدقاء البطالمة وأعدائهم • وقد ساعد على ذلك أمران ، كان أحدهما الضعف الكامن فى البطالمة الأواخر وفى رجالهم الذين ألقيت أليهم مقاليد الحكم • وكان الأمر الآخر هو الخلافات العنيفة بين أفراد أسرة البطالمة منذ عهد بطلميوس السادس • فلا عجب أن اعتبر المؤرخون موقعة رفح حدا فاصلا بين العهد الذى بلغت فيه دولة البطالمة أقصى اتساعها وذروة مجدها ، والعهد الذى أخذت فيه عوامل الضعف والاضمحلال تدب اليها حتى سقطت هيبتها وذهبت سطوتها ، ففقدت أملاكها فى الخارج وتزعزع سلطانها فى الداخل وأصبحت منهباً للغزوات والثورات الى أن انتهى بها الأمر الى أفول نجمها وزوال استقلالها وضمها الى الامبراطورية الرومانية •

٢ ـ المصادر :

ان تاريخا وافياً للتعليم فى عصر البطالمة يجب أن يتناول التربية والتعليم عند المصريين وعند الاغريق ، فقد رأينا أنهم كانوا يؤلفون العنصرين الرئيسيين من سكان البلاد فى هذا العصر ، وأنه اذا كان بعض المصريين قد أقبلوا على التعليم الاغريقى فان أكثر المصريين ظلوا مصريين مستمسكين بعاداتهم وتقاليدهم ودياناتهم ، وتبعا لذلك لابد من أن يكون ما حصلوه من العلم قد تلقوه فى مدارسهم المصرية • ومن الجائز المعقول أن تكون قد طرأت فى هذا العصر تطورات على كل أو بعض معاهد العلم المصرية التى بسطها الجزء الأول من هذه المجموعة « تاريخ التربية والتعليم عند قدماء المصريين » ، لكنه ليس جائزا ولا معقولا أن تكون كل هذه المعاهد

قد اندثرت • وقد كان من الواجب معالجة الجانب المصرى على غرار معالجتنا للجانب الاغريقى ، ولكنه كيف يمكن ذلك ومعلوماتنـا الراهنة عن التربية والتعليم عند المصريين فى عصر البطالمة طفيفة وفكرتنا عن ذلك كله غامضة ، وسوف تظـل الحال كذلك الى أن تنشر أكداس الوثائق الديموتيقيـة التى تزخر بها دور الكتب والآثار • وازاء وفرة معلوماتنـا نسـبيا عن التربية والتعليم عند الاغريق وقلتها بل ندرتهـا عن التربية والتعليم عند المصريين سنضطر الى تخصيص هذه الفصول جميعا فيما عدا الفصل الأخير الى النوع الأول من التربيـة والتعليم ، كمـا سنضطر فى معالجة النوع الثـانى الى الاعتماد على الفروض والاستنتاج •

والمصادر المباشرة لمعلوماتنا عن التربية والتعليم عند الاغريق فى عصر البطالمة تتألف من النقوش وكسر الفخار (اوسـتراكا) ولوحات التلاميذ وكراساتهم والوثائق البردية وغير ذلك من المخلفات الأثرية التى عثر عليها فى مصر • والمعلومات التى نسـتمدها من هذه المصادر يعتورها كثير من النقص ، لكننـــا لحسن الحظ نستطيع ســـد بعض جوانب هـذا النقص بما نطالعه عند الكتاب القدماء من فلاسـفة وشعراء ومؤرخين وبما تمدنا به المخلفات الأثرية من معلومات عن التربيـة والتعليم عند الاغريق فى ناحية أو أخرى من نواحى العالم الاغريقى •

ويجدر بنا أن نذكر هنا أن التعلم الاغريقى لم يتخذ شكله الكلاسيكى وصورته الواضـحة القسـمات الا فى الجيل التالى لوفاة الاسكندر الأكبر (٣٢٣ ق • م •) وأرسطو (٣٢٢ ق • م •) ، وأن هذا الشكل وهذه الصورة انتشرا فى كل أرجاء العالم الاغريقى عندما استقرت الأوضاع فى العصر الهلينيسى بعد فتوحات الاسكندر والحروب الضروس بين خلفائه ، وأنه على مدى قرون عديدة لم تطرأ الا تغييرات طفيفة على هذا الشكل وهذه الصورة •

وبفضل ما لدينا من المصادر المباشرة وغير المباشرة نستطيع تكوين فكرة واضحة عن التربية والتعليم عند الاغريق فى عصر البطالمة ، فهى تمدنا بمعلومات وفيرة عن الأسرة والتربية المنزلية ، وعن نظام التعليم ومراحله ، وعن مركز المدرس الاجتماعى وحالته المالية ، وعن طرق التدريس وأدواته ومواد الدراسة ووسائل التأديب والامتحانات والعطلات ، وعن مستوى الثقافة ونوعها ، وعن فلسفة التعليم وأهدافه . واذا كنا نستمد من الكتاب والمخلفات الأثرية آراء الاغريق ومعتقداتهم ، فان لوحات التلاميذ وكراساتهم وكتبهم ولعبهم والخطابات الخاصة والصور التى زينت بها الآنية والجدران تجعلنا نعيش مع التلاميذ فى عملهم ولهوهم ، فى ساعات دأبهم وساعات تأديبهم ، وتنقلنا معهم من مرحلة الى أخرى من مراحل تعليمهم . وفضلا عن ذلك فاننا نستقى من الكتاب القدماء والوثائق البردية وصور الآنية والجدران والتماثيل الصغيرة صورا حية عن ملابس التلاميذ وسلوكهم .



الفصل الأول

الأسرة والتربية المنزلية



١ ـ الأسرة :

درج الاغريق بوجـه عام على وأد الأطفال وبخاصـة الاناث منهم ، فلم يكن لدى الغالبية العظمى من الأسر أكثر من ابن واحد ، ومع ذلك فان كثيرين من الاغريق كانوا يحرصـون على أن يكون لكل منهم ابنان ، أما زيادة عدد الأبناء على ذلك فكان أمرا نادرا ، وكان أندر منه أن يكون للاغريق أكثر من ابنة واحدة • واذا كان الباعث أصلا على تحديد عدد أفراد الأسرة هو الفقر ، فان هذه العادة تأصلت فى الاغريق وأصبحت من سماتهم الى حـد أن وأد الأطفال لم يعد مقصـورا على الفقراء بل امتد الى الأغنياء • ويحدثنا مصدر قديم بأنه « حتى الأغنياء كانوا يقتلون بناتهم فى حداثة سـنهن » (١) • وقد استمر الاغريق يمارسـون هذه العادة عندما هاجروا الى مصر واستقروا فيها ، حيث يبدو أنها كانت فاشية بينهم •

وتوحى المصـادر القديمة بأنه حتى أواخر القرن الرابع قبل الميلاد لم توجـد مدارس للبنـات فى بلاد الاغريق باستثناء اسبرطه (٢) ، وبأن المرأة الاغريقية بوجـه عام كانت لاتشـارك الرجال نشاطهـم ولا تغشى اجتماعاتهم ، وبأنها كانت تقضى أكثر أوقاتها فى شئون البيت وسد حاجات

---

(١) راجع : G. Glotz, Infanticidium, Expositio, in Daremberg et Saglio, Dictionnaire des antiquités grecques et romaines; W.W. Tarn, Hellenestic Civilization, 1930, pp. 92 ff.

(٢) Cf. Marrou, Histoire de l'Education dans l'Antiquité, pp. 51, 108 et passim.

الأسرة . ولعل خير ما يصور حالة المرأة عندئذ قول بريكليس أن أفضل ما توصف به امرأة ان ذكرها لا يأتي على ألسنة الرجال بخير ولا بسوء (١) .

وتشير القرائن الى أنه في العصر الهلينيسي ازدادت أهمية المرأة وارتفعت مكانتها نتيجة للدور الكبير الذي اضطلعت به الملكات المقدونيات في خلال هذا العصر ، فقد كن يستقبلن السفراء وينشئن المعابد ويشيدن المدن ويستأجرن الفرق المرتزقة ويقدن الجيوش ويدافعن عن الحصون ويضطلعن في بعض الأحيان بالوصاية على العرش أو بالاشتراك في الحكم . والواقع أنه في أسرة البطالمة لم تقتصر مساهمة الملكات في الشئون العامة على أرسينوى الثانية ، شقيقة بطلميوس الثاني وزوجه ، وهي التي وجهت سياسة الدولة بهمة ونشاط في أزهى سني حكم بطلميوس الثاني ، ولا على كليوبترة السابعة المشهورة ، وهي التي جمعت الى جمال الجسم صفاء الذهن وسعة الادراك ومضاء العزيمة وكانت مرتين قاب قوسين أو أدنى من التربع على عرش الامبراطورية الرومانية ، بل شمل أكثرهن فقد تشابهن جميعا من حيث قوة الارادة والتعطش للحكم ، وأظهرن ميلا شديدا للثقافة لم يقل عن ميل الرجال بل انه كان في بعض الأحيان أكثر من ميلهم . ونذكر على سبيل المثال لا الحصر أرسينوى الثالثة ، شقيقة بطلميوس الرابع وزوجه ، ذلك أنه عندما ضاقت هذه الملكة بحياة الفسق والمجون التي انغمس فيها زوجها اعتكفت عن الحياة العامة محاولة أن تجد في الآداب ومخالطة العلماء عزاء لها عن الهوة التي تردى فيها بيتها (٢) . وكليوبترة السابعة التي يصفها خصومها بأنها كانت غانية مترفة متبذلة ، عنيت بدراسة عدد كبير من اللغات وكان لها ولع شديد بالآداب (٣) ولم يصرفها عن

(١) Thucyd., II, 45.

(٢) Bevan, Egypt under the Ptolemaic Dynasty, p. 236; Jouguet, Histoire de la Nation Egyptienne, III, p. 62; Athen., VII, 276 a.

(٣) Plut, Anton., 27; Philostratus, Vit. Soph., I, 5.

ذلك مشاغل الملك ولاحياة اللهو التي اضطرت الى مجاراة انطونيوس فيها ليشعر على الدوام بأنه لا يستطيع الاستغناء عنها ٠

وقد امتد تحرر المرأة من القصر الملكي الى البيت الخاص ، فانتشرت مدارس البنات في كل مكان وأصبح في وسع المرأة ان تحصل على ما تشاء من التعليم وظهر بينهن المبرزات في مجالات الفلسفة والشعر والصوير (١) وأنشئت أندية خاصة للنساء على الأقل في أثينا (٢) والاسكندرية (٣) ٠ لكنه لاشك في أن هذا التحرر العقلي والاجتماعي لم يكن الا من نصيب الأقلية من نساء هذا العصر ، فلم يكن حظ أكثرهن من العلم الا قليلا وأن كان يكمل ثقافتهن فيض من الأدب الشعبي واشتراكهن في الحفلات العامة وترددهن على المسرح ٠ ولاجدال في أن أهم ما كانت تعنى به الغالبية العظمى من نساء هذا العصر كان التمرس بالغزل والنسج والتطريز ورعاية شئون البيت ٠

وبرغم كل ما أصابته المرأة الاغريقية في العصر الهلينيسي من تقدم وتحرر ، فانها لم تحصل على الحقوق السياسية بحيث تشارك الرجال في المجامع الدستورية وتولى المناصب العامة ٠ بل ان الشرائع كانت تعتبرها قاصراً وتشترط أن يكون لها وصي شرعي ولا تستطيع أن تتصرف في نفسها أو فيما تملك دون اذن هذا الوصي ، وذلك على خلاف المرأة المصرية ٠ وقد رأى البطالمة أن من الحكمة أن يساووا بين المرأة المصرية والمرأة الاغريقية حتى لاتتبرم الاغريقية وتضيق ذرعا بحالتها ازاء ما كانت المصرية تنعم به من الحقوق ٠ ولكنه بدلاً من أن يرفعوا الاغريقية الى مصاف المصرية أنزلوا الأخيرة الى مصاف الأولى ، اذ أنه يعزى الى بداية عهد بطليموس

(١) Inscriptiones Graecae, editio minor, II, 1346.
(٢) Tarn, op. cit., pp. 88-91.
(٣) Edgar, J.E.A., IV, p. 253.

الرابع أمر حظر على المرأة المصرية الزواج دون اذن وصى والتعاقد مع طرف ثالث دون اذن زوجها (١) •

وتشير القرائن الى أن تعدد الزوجات عند الاغريق لم يحظره القانون وانما العرف والرأى العام (٢) ، ذلك أنه كان ينص فى عقود الزواج الاغريقية على أنه « لايحق للزوج أن يتزوج من أخرى أو يتخذ حظية أو غلاما أو ينجب أولادا من أية سيدة أخرى عدا زوجته فى خلال وجودها على قيد الحياة » (٣) • وبديهى لو أن القانون كان يحظر كل هذه الأمور لما كان هناك داع للنص عليها فى عقد الزواج •

وقد زينت بعض الآنية الجنازية وأنصاب الموتى بمناظر تمثل مشاهد وداع حارة بين زوج وزوجته (٤) ، مما يكشف لنا عن جانب من الحياة الأسرية والعلاقات التى كانت تسود بين الزوجين • ولاشك فى أن صفاء جو الأسرة كان ملائما لحسن تنشئة الصغار وشعورهم بالاطمئنان والاستقرار •

وازاء كل الاعتبارات التى أوردناها يبدو أنه كان للمرأة الاغريقية أثر كبير فى تربية صغارها ولاسيما فى المرحلة الباكرة التى كانوا يقضونها فى البيت • ولابد من أن أثرها فى تربية البنت كان أبعد مدى ، فقد كان الاغريق يحرصون على منع البنات قدر الطاقة من الخروج من البيت حتى يكبرن ويتزوجن ، وتبعا لذلك كانت البنت تقضى أكثر وقتها فى رعاية أمها وتحت بسمعها وبصرها •

---

(١) ابراهيم نصحى ، مصر فى عصر البطالمة ، ١٩٦٦ ؛ ج٤ ؛ ص٤ •

(٢) **Edgerton**, Notes on Eg. Marriage, p. 23, No. 4.

(٣) **P. Eleph.**, I.P. Gen., 21; P. Tebt, 104.

(٤) **Pfuhl**, Ath. Mitt., XXVI, 1901, pp. 258 ff.; Noshy, Arts in Ptol Eg., pp. 105 ff.

٢ ـ التربية المنزلية :

كان افلاطون وأرسطو اعمق مفكرين تناولا مشكلة التربية والتعليم في العصور القديمة وتعنينا في هذا المقام آراؤهما عن تربية الأطفال وتعليمهم. وقد ناقش أفلاطون هذه المشكلة مناقشة مستفيضة في كتابيه «الجمهورية(١)» و«القوانين(٢)» . وفي رأى أفلاطون أن تربية الانسان تماثل نمو النبات، وأنه كما يجب تعهد النبت الصغير لحمايته مما يضره ويعوق نموه نموا صحيحا كاملا تجب حماية الطفل الصغير من التأثيرات الطبيعية والاجتماعية التي تحول دون تقدمه في هدوء واطمئنان نحو تكامله وسيطرته على نفسه وتمتعه بالوئام معها، وان زمن الطفولة هو أفضل وقت يمكن أن يتكون فيه الخلق ويتيسر اعطاؤه أى طابع منشـــود . وعند أفلاطون تبدأ التربية في المرحلة السابقة لولادة الطفل، فهو يوصي الحامل بالمشي مسافات طويلة ويتبع ذلك بتوصية الأمهات بتدليك أطفالهن الحديثي الولادة، وبهدهدتهم والغناء لهم حتى يغلبهم النوم، فالأغاني تبعث على اطمئنان النفس وهدوئها وتقضي على الخوف الذي هو أكبر شـــعور هدام في الطفولة . وفي رأى أفلاطون أنه في الســـنوات الثلاث الأولى يجب أن تكون حياة الطفل سعيدة خالية من الحزن والألم بقدر ما تسمح رغباته . ويجب ألا يدلل تدليلا يفسـده ولا أن يعامل معاملة خشـنة تبعث فيه القسوة بل يجب أن يراعى جانب الاعتدال سواء في تهذيبه أم في توفير أسباب المتعة ليجد السعادة في اتباع طريق وسط . ومن الثالثة حتى السادسة يجب ألا يشغل الأطفال أوقاتهم الا في ممارسة ما يشاءون من العاب، وفي هذه المرحلة يسمح بتأديب الأطفال بحزم للقضاء على عنادهم ولكن دون افراط

---

(١) Rep., II, 376 e; III, 410 c — 412 a; V, 451 d — 457 b; VII, 536 d — 543 et passim.

(٢) Leg., I, 643 bc — 647; II, 653 de, 654 a — 655 b, 656 ce; III, 700 a — 701 e; VI, 754 cd, 765 d; VII, 793 e — 796 d, 801 d, 804 c — 806 e, 808 d, 809 a — 840; VIII, 829 e, 833 cd et passim.

فى العقاب افراطا يهين كرامتهم ويثير حفيظتهم . وعندما يبلغ الاطفال السادسة من عمرهم يجب ان يتابعوا دراسة نظامية تستهدف تكوين الجسم والعقل معا سعيا وراء تكوين الشخصية المتوازنة المتكاملة (١) .

ويناقش ارسطو (٢) مشكلة التربية والتعليم فى كتابيه « الأخلاق » و « السياسة » . وفى رأيه أن السعادة هى الهدف الذى يرمى اليه الانسان من وراء كل ما يفعله ، وأن السعادة هى الحياة الطيبة ، وأن ممارسة هذه الحياة يقتضى توافر أمرين : رجاحة العقل وحسن الأخلاق ، وأن الأمر الأول ثمرة التعليم أما الثانى فهو وليد العادات ، أى أنه يتولد عن الدأب على ممارسة السلوك القويم ، اذ أنه « بتوخى العدل فى تصرفاتنا نصبح عادلين وبمراعاة الاعتدال نصبح معتدلين ، وبممارسة الشجاعة نصبح شجعانا » . وعند أرسطو أن أوجه النشاط التى تؤدى الى حسن الأخلاق هى تلك التى تتسم بالاعتدال ، ولذلك فانه يجب أن نتعود على الاعتدال منذ الطفولة حتى قبل أن تنمو فينا القدرة على التفكير نموا كاملا ، فذلك هو الوقت الذى توضع فيه قواعد الأخلاق . « ويجب أن نستخدم أداة العادات قبل استخدام أداة العقل » ذلك أن « الوازع والهادى الى الفضيلة » ليس العقل وانما «سلامة الميول» وهذا يقتضى أن نغذى فى الأطفال المشاعر التى تثير فيهم الرغبة فى أن يكونوا طيبين . ولذلك فان أرسطو مثل أفلاطون ، يدعو الى التبكير فى تربية الأطفال وتعليمهم والى حمايتهم حماية فعالة من المؤثرات السيئة ، ومن ثم فانه يجب انتقاء الأقاصيص التى تقص عليهم ، كما يجب ألا يسمعوا عبارات قبيحة ولا أن يروا صورا

---

(١) راجع :

Adamson, The Theory of Education in Plato's Republic, London, 1903; Nettleship, The Theory of Education in the Republic of Plato, Chicago, 1906; Jäger, Paideia, II, 1944, III, Oxford, 1945; Marrou, Histoire de l'Education dans l'Antiquité, Paris, pp. 99 ff.

(٢) راجع :

Defourny, Aristote et l'éducation, Annales de l'Institut Supérieur de Philosophie (de Louvain), IV (1920), pp. 1-176.

غير لائقة ولا أن يشـهدوا تمثيليات كوميدية ، ولا أن يختلطوا بالعبيد • خشية أن يؤثر ذلك كله في سلوكهم • ويدعو أرسطو كذلك الى أن يتمتع الأطفال بقدر كبير من الحرية ولاسيما في العابهم ، بشرط الا تكون « سوقية أو صاخبـة أو باعثـة على التعب » • واذا كان أفلاطون يرى أن الأطفال يجب أن يبدأوا متابعة دراستهم النظامية في السادسة من عمرهم ، فان أرسـطو كان يرى أنهـم يجب أن يبدأوا هذه الدراسة في الخامسة ، بل ان الفيلسوف الرواقي خروسيبوس (١) Chrysippus نادى بضرورة التبكير عن ذلك بعامين •

ولنر الآن كيف كان أغلب الاغريق يربون أطفالهم (٢) ، ونتبين من ذلك الى أي مدى كانت آراء الفلاسفة مبتكرة ، والى أي مدى استجاب الناس الى دعوتهم • ان الاغريق بوجه عام قد دأبوا طوال العصور القديمة على أن يدعوا الأطفال وشأنهم حتى سن السـابعة عندما كانوا يرسلون الى المدرسـة • وهكذا كان الأطفال ينمون في جو من الحرية والتسـامح طالما لا يسببون المتاعب لآبائهم أو لا يقعون في المشاكل • ولم يكن السر في هذه الحرية وهذا التسامح بواعث تربوية وانما اعتقاد ساذج بأن الطفولة فترة من حياة الانسان لا قيمة لها ولا أهمية ، فقد كان هدف التعليم عند الاغريق تكوين رجال صالحين • ولم يعتقد الاغـريق أن للطفولة شـأنا في ذلك وتبعا لذلك كان الطفل يستمتع حتى السابعة من عمره بحياة سعيدة في البيت تحت عين أمه السـاهرة عليه • وأما في الأسر الميسـورة الحال فانه كانت تتولى أمره مربية كانت عادة أمة وأحيانا حرة • ولا أدل على مكانة المربية

---

(١) Apud Quint., Inst. Or., I, 1, 16.

(٢) راجع :

Girard, L'Education athen. au V et IV siècles avant J.C., pp. 66-99
Freeman, Schools of Hellas, London, 1912; Drever, Greek Education, its practice and principles, Cambridge, 1912; Dobson, Ancient Education and its Meaning, London, 1932.

من أنها كانت تظل فى الأسرة موضع رعاية ربيبها حتى تلقى ربها •

وفى هذه المرحلة الباكرة كانت تبدأ تربية الطفل فقد كان يلقن أصول الآداب وقواعد السلوك الحميد • ووفقا لبعض الكتاب القدماء كانت بعض المربيات يعمدن الى كبح جماح الطفل ويحاولن تنمية قوة ارادته بقواعد دقيقة ومعاملة قاسية لاتتناسب مع سنه • وقد كان بعض المعنيين بشئون التربية والتعليم ، مثل خروسيبوس ، ينادون بضرورة اختيار المربيات اللائى تكون لغتهن سليمة ضمانا لسلامة لغة الطفل فلا يلتقط أخطاء يتعين تصويبها فيما بعد (١) • وفى هذه المرحلة الباكرة كان يبدأ أيضا تزويد الطفل بجانب من الثقافة الاغريقية فقد كان يبدأ عندئذ تعريفه بعالم الموسيقى والأدب ، اذ أن أمه أو مربيته كانت تغنى له أغانى الطفولة العذبة وتقص عليه القصص المسلية ، وكان لدى الاغريق منها فيض لا ينضب لعل أشهرها قصص ايسوب الخرافية • وكان الطفل يلقن كذلك بعض أساطير الاغريق عن آلهتهم وأبطالهم •

ويجب أن يلاحظ أنه لم تبذل أية محاولة لادماج كل ذلك فى برنامج دراسى منتظم ، فقد كانت هذه السنوات الباكرة سنوات لعب ومرح قبل كل شىء • وتعطينا آداب هذا العصر والصور التى زينت بها الآنية الفخارية وكذلك التماثيل الفخارية والبرونزية الصغيرة فضلا عن اللعب التى كشفت عنها أعمال التنقيب ـ يعطينا ذلك كله فكرة عن الألعاب التى كان الأطفال يمارسونها (٢) • ويتبين من ذلك كله أنها ذات الألعاب التى يستمتع بها الأطفال فى كل عصر ومكان ويستنفدون فيها نشاطهم الدافق • فقد كان لديهم دمى و « شخاليل » وخيول خشبية هزازة وعربات صغيرة

---

(١) Apud Quint., I, 1, 4; Plut, Lib. Ed., 3E, 4A.

(٢) Cf. e.g. Viereck, Philadelphia, pl. VIII, a, b; P.S.I., 1080; P. Oxy., 119; P. Ianda, 94; Winter. Life and Letters in the Papyri, p. 59.

وأدوات مائدة لحفلات الدمى وأدوات للحدائق وكرات وأراجيح وسيوف خشبية .. الخ .

وقد كان ذلك كله أمـرا عاديا لم يعلق الاغريق عليه أية أهميه ، فهو لم يكن فى نظرهم أكثر من خصائص الطفولة . ولو أنه قدر للاغريق أن يروا المتخصصين فى شئون مدارس الحضانة ورياض الأطفال اليوم وهم يدرسون بجد واهتمام القيمة التربوية لأبسط أنواع الألعـاب لانفجـرت جوانبهـم من الضحك . فالاغريق لم يعرفوا فى أى عصر من عصـورهم مدارس الحضانة ولارياض الأطفال ، وكانت الأسرة عندهم هى مركز تربية الطفل وتعليمه حتى يذهب الى المدرسة فى السابعة من عمره فتتولى المدرسة أمر تعليمه بينما تتابع الأسرة أمر تربيته . ولكنه منذ هذه السن كان يخلف المربيـة فى رعاية الصبى خادم الأسرة (١) (paidagogos) وكانت مهمته ذات شقين : أحدهما هو حماية الصبى من أهل السوء ومخاطر الطريق فى رواحه الى المدرسة وغدوه منها وحمل حقيبته أو مصباحا للضوء له الطريق بل أحيانا حمل الصبى ذاته اذا كان متعبا (٢) . أما الشق الثانى فكان أجل من ذلك وأخطر ، فالبيداجوج هو الذى كان يرعى سلوك الصبى فى البيت والطريق والمدرسة ويسهم فى تكوين خلقه ويساعده على حفظ دورسه ، فلا عجب أنه فى العصر الهلينيسى بدأ اسـمه يأخذ معنى « المربى » ويفقد معناه الحرفى القديم « عبد مرافق » فهو لم يكن الا عبدا وقع عليه اختيار الأسرة للاضطلاع بهذه المهمة لثقتها فيه فضلا عن عجزه عن أداء أعمال أخرى (٣) . فقد روى عن بريكليس أنه عندما رأى ذات

---

(١) Cf. Pauly-Wissowa-Kroll, Real encycl., S.V. Paidagogos.

(٢) أنظر التمثال المصنوع من الفخاروهو يصور خادم الأسرة وعلى كتفه صبى وفى يده مصباح راجع :

Rostovtzeff, Social and Economic History of the Hellenistic World, Vol. I, pl. XXX, 2.

(٣) Cf. Marrou, op. cit., pp. 202-3.

مرة عبدا يسقط من فوق شجرة وتكسر رجله قال « انظر لقد أصبح الآن بيداجوجا » •

وسبب ثقة الأسرة فى البيداجوج هو أنه نشأ بين أحضانها وكان يلم بعاداتها وأساليبها وآدابها ووجهات نظرها ويعتبر أحد أفراد الأسرة • ومع ذلك فان البيداجوج لم يكن الا عبدا محدود المواهب والمؤهلات ، ولم يكن من شأن ذلك أن يكسبه احترام الصبية أو المجتمع ، الا أن العادات والتقاليد جعلت البيداجوج مظهـرا أساسـيا فى حياة الصبية فى العالم الاغريقى • ولم يكن لتحذير الفلاسفة من معاشرة الصبية للعبيد أى أثر فى القضاء على ذلك • ولاشك فى أنه يستوقف النظر أن الاغريق برغم اهتمامهم بتربية أبنائهـم كانوا يسندون مهمة تكوين خلقهـم وتهذيبهم الى عبيد ، بل الى عبيد لم تتوافر لديهم مؤهلات خاصة للاضطلاع بهذه المهمة الخطيرة • ومع ذلك فان البيداجوج كان فى نظر الاغريق أكثر أهمية من المعلم من حيث تربية الصبى الأخلاقية •

الفصل الثاني

التربية العسكرية والرياضية والفنية



١ ـ التربية العسكرية :

انتشرت منظمات الأفيبوى (epheboi) أو الشبان في خلال العصر الهلينيسى حيثما انتشر الاغريق واستقروا سـواء فى رحاب مدن اغريقيـة انشئت من أجلهم أم بين جنبات مدن أو قرى غير اغريقية أتيحت لهم فيها الفرصة ليكونوا جماعات قومية وينعموا بأساليب الحياة الاغريقية • ولما كان أكثر ما لدينـا من معلومات خاصا بمنظمة الأفيبوى الاثينيين ، وكان يغلب على ظن الباحثين أن هذه المنظمة كانت النموذج الذى احتذته سائر منظمات الأفيبوى الاغريق فى كل أرجاء العالم الاغريقى ، فاننا سنبدأ بعرض موجز لمنظمة الأفيبوى الأثينيين (١) •

تشير القرائن الى وجود هذه المنظمه منذ حوالى عام ٣٧٠ ق • م لكنها لم تتخذ شكلهـا النهائى وتزاول نشـاطها بانتظام الا منذ صـدور القانون الخاص بها فيما بين عامى ٣٣٧ و ٣٣٥ ق • م • ويبدو انها كانت فى الأصل تشبه عن قرب الخدمة العسكرية الاجبارية التى تفرضها الدول فى العصر الحديث • ففى كل عـام كان كلّ حى (deme) من أحيـاء أثينا يعد من السجلات الرسمية قائمة بأسماء الشبان الذين كانوا على وشك

---

(١) عن منظمة الأفيبوى فى أثينا وخارجها ، راجع :

Dumont, Essai sur l'éphébie attique, 2 vols.; P. Graindor, Etudes sur l'Ephébie attique, sous l'Empire. Musée Belge, XXVI, pp. 163-208; Rostovtzeff, op. cit., p. 1505, n. 12; Marrou, op. cit., pp. 152 ff.

بلوغ الثامنة عشرة من عمرهم ، وكانت سن الرشد السياسى هناك • وبعد أن يفحص مجلس الشورى (Boule) القوائم ويقدم اسماء الشبان الذين يحق لهم التمتع بحقوق المواطنة ، كان هؤلاء الشبان يسجلون فى منظمة الأفيبوى ويوضعون تحت اشراف فئة مختارة من الضباط ويقضون عامين فى المنظمة • واذا كان الهدف الأول للمنظمة هو التدريب العسكرى فانه لم يكن هدفها الوحيد ، فقد كانت تعنى كذلك باعداد الشبان خلقيا ودينيا ليكونوا أهلا لممارسة حقوق المواطنة وواجباتها على أكمل وجه •

وانه لمن سخرية القدر أن أثينا لم تستكمل هذا التنظيم الدقيق لتكوين جيشها القومى الا بعد أن أفضى انتصار فيليب المقدونى فى موقعة خايرونيا (٣٣٨ ق • م) الى القضاء على حرية الاغريق واستقلال المدن الاغريقية ، فكان شأن منظمة الأفيبوى شأن كثير من المنظمات التى سجل التاريخ أنها لم تبلغ أوج الكمـال الا بعد زوال مبررات وجودها • ومـع ذلك فان المدن الاغريقية وان كانت قد فقـدت فى العصر الهلينيسى حريتهـا فى مباشرة سياسة خارجيـة مستقلة الا أنها لم تصل ابان هذا العصر الى المرحلة التى تلاشت فيها التربية العسكرية وخلفتها كلية التربية الرياضية • وآية ذلك تلك الوثائق الكثيرة التى عثر عليها فى جهـات متفرقة من العالم الاغريقى فهى تشـير الى أنه قبـل فترة التدريب فى منظمات الشبان وفى خلال تلك الفترة وبعد تلك الفترة كان اعـداد مقاتلى المستقبل يلقى قدرا من العناية يختلف من مكان الى آخر •

وترينا المصـادر القديمة انه لم تكد تنقضى بضـعة أعوام على صدور القانون الخاص بمنظمة الشباب الأثينى حتى أنقصت مدة التدريب فى المنظمة من عامين الى عام واحد ، بل ان الاندماج فى المنظمة لم يعد اجباريا • ولكنه لا جدال فى أن المنظمة احتفظت طوال العصر الهلينيسى بملامحها الأصلية من حيث اعداد الشبان ليكونوا جنودا ومواطنين صالحين ، فالوثائق تذكر

حتى نهاية هذا العصر أسماء المعلمين العسكريين فى المنظمة وهم معلم القتال بالسلاح الثقيل (hop!omachos) ومعلم رمى الرمح ومعلم استخدام القوم والسهام • وقد كان الأول يأتى فى مقدمة المعلمين العسكريين وكانت مهامه أعم وتعليمه أهم من تعليم سائر زملائه •

واذا كانت منظمة الشبان الأثينيين قد استمرت طوال العصر الهلينيسى معنية بالتدريب العسكرى ، فانه يبين من المصادر القديمة أنه كلما تقدم العصر الهلينيسى لم يعد هذا التدريب يلقى من العناية قدر ما كان يلقاه أول الأمر وأنه بينما نقص اهتمام المنظمة بالتدريب العسكرى ازدادت عنايتها بالألعاب الرياضية وبذلك حافظت على أهم الخصائص التى اتسم بها التعليم الاغريقى منذ أقدم مراحله • وقد كانت الألعاب الرياضية فى نظر المنظمة وشبابها مثل ما كانت فى نظر أهل العصر الهومرى وعصر النظام الأرستقراطى أساس الثقافة العالية ودليل الرقى والتحضر وتبعا لذلك الدعامة الأساسية للتعليم •

واذا كانت التربية الرياضية قد أصبحت على مر الزمن تحتل مكان الصدارة فى منظمة الشبان الأثينيين ، فانها لم تستأثر باهتمام المنظمة اذ أنها عنيت كذلك بتربية الشبان العقلية فكانت تهيىء لهم التزود بقدر محدود من الثقافة الأدبية والفلسفية • وفى نظر شبان المنظمة كان هناك ما هو أهم بكثير من كل المحاضرات المبسطة التى كانت تلقى عليهم فى المنظمة ألا وهو علاقات الود والصداقة التى كانوا ينشئونها مع زملائهم والخبرة الواسعة التى كانوا يكتسبونها فى هذا المجتمع الصغير ، فقد كان منظما على هيئة مدينة صغيرة لها جمعيتها وحكامها الذين كان الأعضاء ينتخبونهم وبذلك كان يتهيأ للشبان فرص التمرس بما فى الحياة العامة من مناقشة وخطابة وادلاء بالأصوات • ولاجدال فى أن ذلك كان بقيه أخرى من الملامح

الأصلية لمنظمة الشبان حين كانت تهدف الى اعداد المواطن لممارسة حقوق المواطنة وواجباتها •

وقد وجدت منظمات الشـــبان فى أكثر من مائة مدينة هلينيسية فى مختلف أرجاء العـالم الاغريقى • وبرغم بعض الاختـلافات المحلية التى اتسمت بها هذه المنظمات فانها كانت جميعا فى جوهرها تشـابه المنظمـة الأثينية ، فهى مثلها غدت على مر الزمن أرستقراطيه الطابع طغى جانبها الرياضى على جانبها العسكرى وأصبحت تعنى قبل كل شىء بأن تغرس فى نفوس الشبان أسلوب الحياة الاغريقية وقواعد الآداب فى المجتمع الراقى بتربيتهم تربية رياضية صحيحة •

واذا كانت فترة الاندماج فى منظمات الشبان تعتبر أهم فترة للتدريب على فنون القتال والخدمة فى الحصـون ، فان التدريب العسكرى لم يكن مقصورا على تلك الفئة القليلة من الشبان الذين كانوا يندمجون فى هذه المنظمات ولاعلى تلك الفترة القصيرة التى كانوا يقضونها فى تلك المنظمات• فقد كان التدريب العسكرى يبدأ قبل تلك الفترة ويستمر بعدها ، اذ أن سائر الاغريق كانوا يغشون الجومنازيا قبل تلك الفترة وفى أثنائها وبعدها ، وكانت الجومنازيا تتصل اتصالا وثيقا بالتربية العسكرية وتسهم فيها بنصيب وافر • ذلك أن الجومنازيا من ناحيـة بوصف كونها معقل تربية الاغريق الرياضـية كانت تنمى فيهم من الصفات البدنية والخلقية ــ كالقوة ومرونة العضلات وتحمل المشاق والشجاعة والنظام ــ ما لم يكن للجندى عنه غناء ؛ ومن ناحية أخرى لم يقتصر نشاط الجومنازيا على التربية الرياضية والخلقية فضـلا عن العقلية ، بل كان يتضمن كذلك تدريب المواطنين على فنـون القتال قبل فترة انخراطهم فى منظمات الشبان وفى اثناء هذه الفترة وبعد هذه الفترة • فقد كان التدريب على فنون القتال يبدأ من سن الرابعة عشرة تحت اشراف معلم القتال بالسلاح الثقيل ، وكان هذا المعلم يتولى التدريب على فن قتال المشاة •

وفى كل انحاء العالم الاغريقى كان هذا التدريب يتألف من شطرين يقابلان نوعين مختلفين من التسليح ، كان أحدهما القتال بالحربة والدرع المستديرة، والآخر القتال بالسيف والدرع البيضاوية. وكان النوع الأول هو التسليح الثقيل التقليدى وأما النوع الثانى فانه كان التسليح الخفيف الذى احتل مكان الصدارة فى العصر الهلينيسى . ويتبين من أسماء الفائزين فى المباريات الشهرية أن جنود المستقبل كانوا لا يتخصصون فى فن بعينه من فنون القتال بل يتدربون على استخدام الأسلحة ثقيلها وخفيفها وكذلك استخدام القوس والسهام بالرغم من أن الاغريق قلما كانوا يستخدمون جنودهم المواطنين حملة للقوس والسهام بل كانوا عادة يعتمدون فى حروبهم على مرتزقة متخصصين فى هذا الفن .

وقد كان المقلاع والمنجنيق من بين أسلحة القتال ، لكنه على حين أن الشبان فى سائر بلاد الاغريق كانوا يدربون على الأسلحة الأخرى تدريبا جديا منتظما ، لم يكن التدريب على استخدام المقلاع يدخل فى عداد البرنامج المألوف لتدريب الشبان على فنون القتال الا فى بلاد بعينها ذاع صيتها فى استخدام هذا السلاح وأصبح تكوين فرق خاصة من المقاتلين به بين تقاليدها التى تعتز بها مثل آخايا وورودس وبويوتيا . وأما المنجنيق فنجد فى النصوص القديمة بعض الاشارات الى تدريب الشبان على استخدامه فى العصر الهلينيسى ، ويفهم من هذه النصوص ان هذا السلاح كان على نوعين يقذف أحدهما بآلات حادة والآخر بكتل صخرية . واذا صح ان ديونوسيوس السراقوسى اخترع المنجنيق الالتوائى حوالى ٤٠٠ ق . م فانه من المرجح أن يكون المنجنيق قد استخدم على نطاق واسع فى حروب العصر الهلينيسى وبوجه خاص فى حصار المدن . ولدينا معلومات غير قليلة عن استخدام هذا السلاح فى بعض جيوش هذا العصر غير أن ما يعنينا هنا هو معرفة مكانه فى تدريب الشبان على فنون القتال .

ان أرسطو يذكر مدرب الأفيبوى على هذا السلاح " وتتحدث وثائق أثينيه متعددة من القرنين الثالث والثانى قبل الميلاد عن تدريب الشبان على هذا السلاح فيشيد بعضها بهذا التدريب ويهنىء القائمين عليه ، ويذكر بعضها الآخر أسماء هؤلاء المدربين • ويتكشف من هذه الوثائق عدة أمور أهمها :

أولا : أن مهنة التدريب على هذا السلاح كانت فيما يبدو فى بعض الأحيان على الأقل وراثية فى بعض الأسر •

ثانيا : أنه فى النصف الثانى من القرن الثانى اتجه مدربو الشبان الى العناية بالمنجنيق الذى يقذف بآلات حادة واهمال المنجنيق الذى يقذف بكتل صخرية •

ثالثا : أن هؤلاء المدربين كانوا يباشرون مهامهم لقاء أجر لعدة سنوات • أما بعد عام ١٠٠ ق • م فاننا لا نجد فى الوثائق الأثينية شيئا عن تدريب الشبان على استخدام المنجنيق •

واذا كانت الوثائق تحدثنا كذلك عن تدريب الشبان تدريبا منتظما على استخدام المنجنيق فى ساموس وكيوس فانها لا تذكر شيئا عن هذا الموضوع فى أغلب المدن الاغريقية الأخرى • وان دل هذا على شىء فانه يدل على أن تدريب الشبان على هذا السلاح كان أقل شيوعا فى العصر الهلينيسى من تدريبهم على الأسلحة الأخرى • ولعل مرد ذلك الى أن استخدام ذلك السلاح استخداما مثمرا كان يتطلب تدريبا طويلا ويتكلف نفقات كثيرة ، وبعد ذلك كان لا يمارسه فعلا فى الحروب الا المحترفون •

وماذا كان من أمر منظمات الأفيبوى فى مصر فى عصر البطالمة ؟ لسوء

الحظ أنه ليس لدينا عن هذه المنظمات الا معلومات طفيفة (١) يتبين منها أن سن الاندماج فى هذه المنظمات فى مصر كانت الرابعة عشرة وهى سن بلوغ الرشد السياسى فى مصر فضلا عن أنها كانت السن التى مر بنا أن الاغريق فى سائر أنحاء العالم الاغريقى كانوا يبدأون فيها التدريب على فنون القتال • ومعنى ذلك أنه اذا كانت سن الاندماج فى منظمات الأفيبوى فى مصر قد اختلفت عنها فى بلاد الاغريق ، فان صغار الاغريق سواء فى مصر أم فى خارجها كانوا يبدأون تدريبهم العسكرى فى سن واحدة وهى الرابعة عشرة •

ويبدو أن مدة الدراسة فى منظمات الأفيبوى فى مصر كنت عاما واحدا مثل ما كانت فى منظمات الأفيبوى فى جهات أخرى من العالم الاغريقى ، وأن الأفيبوى كانوا ينقسمون فرقا أو وحدات (haireseis) تعرف كل منها باسم مدربها ، وأنه كان يتولى الاشراف على هذه المنظمات حيثما وجدت مدير الجومنزيوم فى المنطقة • ويتبين من الوثائق أنه كان ينبغى أن تتوافر فيمن ينخرطون فى سلك هذه المنظمات شرطان : أحدهما هو أن يكون آباؤهم قد سبق لهم الانخراط فى منظمة أو أخرى من منظمات الأفيبوى ، والشرط الآخر هو أن تكون أمهاتهم مواطنات فى احدى مدن مصر الاغريقية أو احدى الجماعات القومية الاغريقية (Politeumata) • ويجمع الباحثون على أن الاندماج فى هذه المنظمات كان مقصورا على الذين يحق لهم التمتع بحقوق المواطنة • وأما موضع الخلاف فهو هل كان الاندماج فى هذه المنظمات واجبا على كل المواطنين الاغريق أم امتيازا مقصورا على فئة منهم • ونحن نرى فى الشرط الأول

---

(١) P. Jouguet, La vie municipale dans l'Egypte Romaine, pp. 67-8, 150-160; Revue de Philologie, 1910, pp. 43-56; Bickermann, Revue de Philologie, 1927, pp. 367-8; Rostovtzeff, op. cit., p. 1395; Brady, The Gymnasium in Ptolemaic Egypt (University of Missouri Studies, XI, 3), Columbia (Miss.), 1936, pp. 9-20; Marrou, op. cit., pp. 156 ff.

قرينة على أن الاندماج فى منظمات الأفيبوى كان مقصورا على فئة بعينها من المواطنين الاغريق • ويؤيد ذلك أمران : احدهما هو انه لا يوجد أى دليل أو قرينة على أن البطالمة جعلوا التجنيد اجباريا وان كانوا قد قصروا الخدمة فى قواتهم النظامية على المواطنين الاغريق • والأمر الآخر هو ان الاندماج فى منظمات الأفيبوى فى العصر الهلينيسى لم يكن اجباريا فى أثينا ولا فى غيرها من مدن العالم الاغريقى • واذا كان الاندماج فى منظمات الشبان مقصورا على صفوة المواطنين الاغريق ، فمن باب أولى أنه لم يكن مسموحا به على الاطلاق للشبان المصريين •

واذا كان يتعذر علينا أن نتبين من الوثائق القليلة التى لدينا وجود صلة بين منظمات الأفيبوى فى مصر وبين الجيش ، فان هذا لا ينبغى أن يثير دهشتنا وذلك بسبب السن المبكرة التى كان الشبان أو بعبارة أدق الصبية يندمجون فيها فى هذه المنظمات فى مصر • ويترتب على ذلك وعلى كون الاندماج فى هذه المنظمات مقصورا على فئة بعينها من المواطنين الاغريق أمران : أحدهما هو ان التدريب العسكرى الذى كان الصبية يحصلون عليه فى هذه المنظمة لم يكن الا مرحلة اعدادية لا تؤهلهم للخدمة العسكرية عقب العام الذى كانوا يقضونه فى تلك المنظمات وان كانت تعدهم لمتابعة التدريب العسكرى فى الجومنازيا • والأمر الآخر هو ان هذه المنظمات كانت أرستقراطية الطابع تعنى قبل كل شىء بأن تبث فى نفوس النشء أسلوب الحياة الاغريقية بتربيتهم تربية رياضية صحيحة • ولا أدل على الصلة الوثيقة بين هذه المنظمات والجومنازيا من أنه كان يشرف عليها حيثما وجدت مدير الجومنازيوم فى المنظمة على نحو ما مر بنا •

وفى مصر ــ مثل ما كانت الحال فى باقى العالم الاغريقى ــ يبدو أن الشبان الاغريق بوجه عام كانوا يحصلون على تربيتهم العسكرية فى الجومنازيا • وترينا الوثائق انه حيثما نزل الاغريق فى كثرة وكونوا مدنا

أو جماعات قومية (politeumata) خاصة بهم انشأوا جومنازيا ، فالوثائق تحدثنا عن وجود جومنازيا فى الاسكندرية وكانوب (ابو قير) وسبنيتوس (سمنود) وفاربايثوس (هربيط) وتمويس (تمى الامديد) ومنف (ميت رهينه) وأفرود يتوبوليس (اطفيح) وعدد من مدن الفيوم وقراها ولوكوبوليس (اسيوط) وكوبتوس (فقط) وطيبة (الاقصر) وهومونثيس (ارمنت) وأومبوس (كوم امبو) وفيلة (١) •

وترينا الوثائق أنه فى مصر ، مثل ما كانت الحال خارجها ، كان رجال الجيش من مختلف الرتب شديدى الاهتمام بالجومنازيا ووثيقى الصلة بها ، ففى احدى قرى الفيوم مثلا (ساماريا) أسس أحد أرباب الاقطاعات العسكرية جومنازيوم • ولسوء الحظ اننا لا نعرف شيئا عن مؤسس جومنازيوم كوم امبو أكثر من أنه يحمل أحد الألقاب الفخرية وهو لقب «صديق أول» الملك • وفى جهات مختلفة بمصر نجد رجال الجيش يسهمون فى تحمل نفقات الجومنازيا أو يكرمون مدير الجومنازيوم أو يشغلون منصب مدير الجومنازيوم • والواقع اننا اذا اطلعنا على قائمة مديرى الجومنازيا فى مصر البطلمية ، فاننا نلاحظ أن الكثيرين منهم كانوا من رجال الجيش (٢) •

وما تفسير حدب رجال الجيش وعطفهم على الجومنازيا وشدة اتصالهم بها ؟ يبدو أن الدافع الأول كان الرغبة فى اظهار ولائهم للملوك الذين كانوا أولياء نعمتهم ، فقد كان اظهار الاهتمام بالجومنازيا يعتبر دليلا على الولاء للأسرة المالكة ، ذلك أن الجومنازيوم سواء فى مصر أم فى ممتلكاتها الخارجية كان فى مقدمة الاماكن التى تقام فيها بانتظام شعائر العبادة الاغريقية

---

(١) Wilcken, Grundzüge, pp. 138 ff.; Rostovtzeff, op. cit., pp. 324, 1059-60, 1395, 1588 n. 23; Launey, Recherche Arm. Hell., II, pp. 836 ff.; Sources et Bibl.; Zucker, Gymnasiarches Komes, Aegyptus, XI, 1930-31, pp. 486—496.

(٢) Launey, loc. cit.

للملك الحاكم وكذلك حفلات الابتهاج فى مناسبات عيد ميلاده وارتقائه العرش • وأما الدافع الثانى فهو أن الجومنازيا البطلمية ، شأنها شأن الجومنازيا فى سائر العالم الاغريقى ، كانت مراكز للثقافة والتربية الرياضية مثل ما كانت مراكز للتربية العسكرية ، ومن ثم فان الجومنازيا كانت معاقل حصينة للحضارة الاغريقية يستطيع الاغريق فى رحابها أن يتلقوا ثقافتهم ويمارسوا تدريباتهم ويقيموا شعائر عبادتهم وينعموا باسلوب حياتهم دون التعرض لأية تأثيرات مصرية ، اذ أن الجومنازيا كانت توصد أبوابها دون المصريين • فلا عجب ازاء ذلك كله أنه كان للجومنازيا أكبر الفضل فى المحافظة طويلا على روح الحضارة الاغريقية فى مصر •

واذا كان يتعذر علينا أن نتبين من الوثائق وجود صلة بين منظمات الأفيبوى فى مصر وبين الجيش ، فاننا نرى بوضوح الصلة بين الجومنازيوم والجيش وبين جماعة أخرى من الشبان تدعوهم الوثائق نيانيسكوى (Neaniskoi) ، وهى كلمة اغريقية معناها شبان • وكان هؤلاء الشبان ممن يغشون الجومنازيا ، ويبدو أنهم كانوا يؤلفون الى جانب مدير الجومنازيوم هيئة ادارية تمارس سلطة معينة ، ففى وثيقة من فيلادلفيا (جرزة) بالفيوم نجد أن رجلا يقدم التماسا يطلب فيه الى كاتب القرية تقديم تعزيز عن ملتمسه الى مدير الجومنازيوم والنيانيسكوى فى جومنازيوم هذه القرية • وفى وثيقة من كوم امبو نجد أن النيانيسكوى هم الذين اتخذوا قرارا باقامة تمثال فى الجومنازيوم لمؤسسه •

وترينا الوثائق صلة النيانيسكوى الوثيقة بالجيش ومعاملتهم معاملة مماثلة لرجال الجيش ، اذ أن وثيقة من عام ٢٥٢ ق • م • تطالعنا بعزم فانياس سكرتير الفرسان على أن يستعرض فى فيلادلفيا كل النيانيسكوى الذين منحوا اقطاعات فى مديرية ارسينوى (الفيوم) وعلى أن يقوم كذلك بتحليفهم اليمين • ونقرأ فى بردية من عام ٢٥٦ ق • م أن ابولونيوس وزير

المالية فى عهد بطليموس الثانى يأمر وكيل أشغاله زينون باتمام اعداد المساكن التى سبق تخصيصها للنيانيسكوى • وهكذا نرى ان النيانيسكوى كان شأنهم شأن رجال الجيش من حيث انهم كانوا يمنحون اقطاعات ومساكن ويحلفون يمين الولاء للملك • ونجد فى وثيقة من عام ٢٥١ ق • م امرا الى أحد الموظفين بأن يحصر الأراضى المنزرعة فى منطقته لكى يستطيع نيانيسكوى المنطقة ان يأخذوا مؤنتهم من المحصول قبل ان يشخصوا بخيولهم الى الملك • وقد فسرت هذه الوثيقة تفسيرات شتى لعل ارجحها انه كان يتعين على النيانيسكوى ان يذهبوا الى الاسكندرية فى مناسبات معينة للاشتراك فى الحفلات الكبرى مثل البطوليمايا ، على نحو ما كان يفعل الأفيبوى فى البلاد الاغريقية الأخرى (١) •

واذا كان من اليسير أن نرى أن النيانيسكوى كانوا فئة من الشبان العسكريين ، فانه يتعذر علينا الجزم بأنهم كانوا ضباطا فى دور الاعداد على نحو ما يذهب اليه فريق من الباحثين ، أو أنهم كانوا مجرد شبان مجندين على نحو ما يذهب اليه فريق آخر ، وان كان مركزهم الرفيع فى الجومنازيا يوحى بأنهم كانوا فئة ممتازة من المجندين مما يجعل رأى الفريق الأول أدنى الى الاحتمال • وازاء الصلة الوثيقة بين الجومنازيا والجيش من ناحية والنيانيسكوى من ناحية أخرى يبدو لنا على الفور وجه شبه قريب بين النيانيسكوى فى مصر البطلمية والأفيبوى فى البلاد الاغريقية الأخرى مما يجعلنا نتساءل اذا لم يكن نظام النيانيسكوى قد انبثق من نظام الأفيبوى • وهل من المستبعد أن الأفيبوى فى مصر كانوا يمثلون أول مرحلة من مراحل التدريب العسكرى على حين أن النيانيسكوى كانوا يمثلون آخر مراحل هذا التدريب ؟

وتذكر الوثائق فئة أخرى من الشبان كانت تتصل بالجيش اتصالا

(١) Cf. A.H.M. Jones, The Greek City. p. 354, n. 35.

نقـــا وهی فئـــة الابیجـــونوی (١) (epigonoi) . وقد اختلفت آراء الباحثين فی تفسير ماهية الابيجونوی ، ولعل أدنی هذه الآراء الی الصحة أنهم كانوا أفراد فرق حربية لهم أجر مالی وعينی ويتولی الاشراف علی كل فرقة منهم ضابط معين . ويبدو أن هذه الفرق كانت تتألف من أبناء أرباب الاقطاعات العسكرية أی أبناء الاغريق وأشباههم الذين اعتمد البطالمة عليهم فی تكوين جيوشـهم ففتحوا لهم أبواب مصر علی مصـاريعها واختصـوهم بمركز ممتاز فی البـلاد ومنحوهم اقطاعات زراعيـة ومساكن . ولابد من أنه كان يحتم علی أبناء أرباب الاقطاعات العسـكرية ان يخدموا مدة معينة فی احدی هذه الفرق لأنه كان من صالح الملك عندما يتوفی رب الاقطاع أن يكون ابنه الذی يخلفه فی الاقطاع وفی الجيش قد تعلم فنون الحرب . ولما كان يوليبيوس يحدثنا بانه كان يوجد ابيجونوی فی جيش بطلميوس الرابع فی موقعـة رفح فان هذا يدل علی أن هذه الفرق لم تكن للتدريب فحسب بل كانت أيضا جزءا من الجيش . والواقع أن بعض الوثائق البردية تطلق هذا الاصطلاح علی احـدی فئات الجنود . ولعل فرق الابيجونوی لم تضم فقط أكبر أبناء أرباب الاقطاعات العسكرية ، بل كل أولئك الأبناء الذين كان من الممكن أن يخلف أحدهم أباه فی الجيش وفی الاقطاع .

واذا صح أن الابيجونوی كانوا أبناء الاغريق من فئة أرباب الاقطاعات العسكرية فهل يبعد ان النيانيسكوی كانوا أبنـاء فئـة أو فئات أخری من المواطنين الاغريق ؟

---

(١) أنظر ابراهيم نصحی ، تاريخ مصر فی عصر البطالمة فی الطبعة الثالثة ١٩٦٦ ص ٣٦٨ ـ ٣٩٩ والمصادر والمراجع .

٢ ـ التربية الرياضية (١) :

لما كانت الألعاب الرياضية لاتزال فى العصر الهلينيسى أهم الخصائص المميزة للتعليم الكلاسيكى واسلوب الحياة الاغريقية ، اذ أنه حيثما استقر الاغريق فى أعداد وفيرة كانوا ينشئون الجومنازيا وغيرها من دور الرياضة ، ولذلك نجد معالمها فى بلاد تمتد من مرسيليا غربا الى سوسا شرقا ومن أقصى مصر العليا جنوبا الى القرم شمالا .

وقد يتعذر علينا فى ضوء معلوماتنا الحالية أن نحدد بالضبط متى كانت تبدأ تربيـة الاغريق الرياضـية ، لكن القرائن تشير الى أن تربية الصبية الرياضية كانت تقترن بتربيتهم العقلية فى المدارس الابتدائيـة منذ السابعة أو الثامنة . ومن المؤكد أن صـبية المدارس الثانوية كانوا يتلقون تعليما رياضيا ويشتركون فى مسابقات خاصة بهم . وفى العصر الهلينيسى لم تكن اسبرطة المدينة الاغريقية الوحيدة التى تتلقى فيها البنات تعليما رياضيا على نسق الأولاد . وهكذا كان صغار الاغريق من الجنسـين يتلقون منذ نعومة أظفارهم تعليما رياضيا يبدو أنه لم يختلف تبعا للجنس والسن ، وان كانت المصـادر القديمة تحدثنا بأن تدريبات الصبية كانت أقل عنفا من تدريبات الشبان وأن سباق النساء فى الجرى فى أولومبيا كان أقصر من سباق الرجال بمقدار السدس .

ولما كانت الألعاب الرياضـية الاغريقية من تراث الحضـارة الاغريقية الباكرة ، فانها اتخذت منذ عهد بعيد شـكلا وأوضاعا ثابتـة لم تتأثر تأثرا محسوسا بما طرأ بعد ذلك من تطورات على الحضارة الاغريقية . حقا انه منذ القرن الخامس قبل الميلاد أخذ يزداد الاحتراف فى الألعاب الرياضية ، كما أخذت ألعاب المحترفين تبتعد باطراد عن ألعاب الهواة وتبعا لذلك عن

---

(١) راجع :
Gardiner, Greek Athletic Sports and Festivals, London, 1910; Athletics of the Ancient World, Oxford, 1930; Forbes, Greek Physical Education, New York, London, 1929; Marrou, op. cit., pp. 165 ff.

الألعاب الرياضية في المدارس ، الا أن التربية الرياضية ظلت بوجه عام ابان العصر الهلينيسي على نحو ما كانت عليه في العصر السابق من حيث الروح والتنظيم • وينهض دليلا على ذلك ان برنامج المباريات سواء في الحفلات الجامعة الكبرى أم في حفلات المدن لم يختلف عما كان عليه في القرن السادس قبل الميلاد ، وكان يتألف عادة من الجرى والقفز وقذف القرص ورمى الحربة والمصارعة والملاكمة والمصارعة الحرة •

واذا كانت هذه الألعاب تؤلف الأركان الأساسية للتربية الرياضية بالنسبة للاغريق بوجه عام ، فان أفراد الطبقات العليا كانوا يضيفون اليها ركوب الخيل • وبرغم أن الاغريق كانوا يمارسون خمسة أنواع من ألعاب الكرة ، فانهم كانوا يعتبرونها ضربا من التسلية أو على أحسن الفروض ضربا من التدريب لم يعتبر اطلاقا ألعابا رياضية بأدق معنى الكلمة ، ولم يصادف لدى الاغريق ما تصادفه ألعاب الكرة لدينا اليوم من القبول والمحبة• ولم يعتبر الاغريق السباحة أيضا في عداد الألعاب الرياضية وان اعتبروا عدم الالمام بها وصمة ، فاذا أريد الزراية بشخص وصف بانه « يجهل القراءة والسباحة » •

ولنتناول الآن في ايجاز الألعاب الرياضية التي كان الاغريق يعتبرونها جزءا أساسيا من التربية الرياضية التي ظلت تستهدف غرس روح التنافس الشريف في الصبية والشبان واعدادهم لأن يكونوا أهلا للاشتراك في المباريات على نحو يكسبهم الاجلال والتقدير • ويتبين من المصادة القديمة ان الأغريق كانوا يدربون على جرى المسافات القصيرة والمتوسطة والطويلة ، وأن أقصر المسافات عندهم كانت الاستاديون (stadion = حوالى ٢٢٠ ياردة) ، وأن سباق هذه المسافة كان أهم المسابقات في الألعاب الأولومبية وأقربها الى قلوب الناس الى حد أن الدورة الأولومبية بأجمعها كانت تعرف باسم الفائز في هذا السباق • أما اليوم فان الاختبار الحقيقي

للسرعة فهو سباق المائه ياردة • وكذلك كانت طريقتهم للتأهب للجـرى مختلفة عن الطريقة المألوفة اليوم ، اذ ان عدائيهـم لم يتدربوا على اتخـاذ أماكنهم عند بداية السباق شبه راكعين وانما على الوقوف مع ثنى الجسم الى الأمام وضم القدمين • وكان من أنواع السباق المألوفة عند الاغريق سباق المشاعل وسباق الجرى مع ارتداء خوذة وحمل درع •

ولم يمـارس الاغريق من أنـواع القفز الا القفز الطويل فقط ، وكانت طريقتهـم تختلف عن الطريقـة المألوفة اليوم ، ذلك أن الرياضى الاغريقى كان يتأهب للقفز بجرى مسـافة أقصر وبسرعة أبطأ مما يفعل الرياضى اليوم • وكان القافز يهبط على رقعة من الأرض أعدت بعناية بالغة بحيث تكون ممهدة دون أن تكون صلبة متماسكة • وكانت القفزة لا تحتسب الا اذا ظهرت معالم القدمين كاملة واضحة فى مكان الهبوط • ولعل أكثر ما يستوقف النظر هو انه فى أثناء القفز كان الرياضى الاغريقى يحمل فى كل يد ثقلا من الحجر أو البرونز يتراوح وزنه بين رطلين وعشرة أرطال ، وذلك لمساعدة الذراعين على حفظ توازنهما •

ومنذ أواخر القرن الخامس كان القرص الذى يتدرب الاغريق على قذفه مصنوعا من البرونز ويتراوح وزنه بين ثلاثة أرطال وتسعة أرطال على حين أن القرص الذى يستعمله الرياضـيون اليوم مصـنوع من الخشب وله اطار من الحديد ويزن نحوا من ثلاثة أرطال • ولم يـكن المكان الذى يقف فيه الرياضى الاغريقى لقذف القرص دائرة على نحو ما هو اليوم بل كان محددا من الجانبين والناحية الأمامية فقط مما كان يترك للرياضى مجالا أوسع للحركة • وكان الرياضى يحمل القرص بكلتا يديه مع اسناده بقوة الى مقدم ذراعه اليمنى ويبدأ برفع القرص الى مستوى رأسه ثم يجذب هذه الذراع بشدة الى أقصى ما يمكن أن تصل اليه خلفه مع ثنى الرجل اليمنى وادارة الرأس والجسم لمتابعة هذه الحركة • واذ يستجمع كل قواه يهب

واقفا فى اتجاهه الأول على حين فجأة قاذفا القرص بالقوة المستمدة من هذه الحركة العكسية الفجائية • وكان كل ثقل الجسم يقع على القدم اليمنى التى كانت بمثابة نقطة الارتكاز ، أما القدم اليسرى والذراع اليسرى فقد كانت مهمتهما تقتصر على حفظ توازن الجسم •

وكانت تستخدم فى الاغراض الرياضية حربة غير مدببة يبلغ طولها طول جسم الانسان ولا يتجاوز سمكها قيراطا واحدا ، ويبدو أنها كانت خفيفة الوزن برغم الثقل الذى كان يضاف الى مؤخرتها • وكانت تتبع فى رميها طريقة تختلف عما نألفه اليوم ، ذلك أنه قرب مركز جاذبية الحربة كان يلف سير من الجلد يتراوح طوله بين قدم وقدم ونصف وينتهى بأنشوطة يضع فيها الرياضى الأصبعين الأولين من اليد اليمنى • وكان هذا المقلاع يساعد على مضاعفة طول الرمية مرتين أو ثلاث مرات وعلى انطلاقها فى خط مستقيم • وقبل رمى الحربة كان راميها يتخذ وضعا يماثل وضع قاذف القرص قبل ان يقذف به •

وقد كانت المصارعة تتمتع بقدر من محبة الاغريق يكاد يماثل ان لم يبز الجرى الى حد ان كلمة بالايسترا (Palaestra) ـ ومعناها الدقيق « حلبة المصارعة » ـ كانت تطلق فى آن واحد على ميدان الألعاب ومدرسة التربية البدنية • وكانت المصارعة بأدق معنى الكلمة أى المصارعة الواقفة ، تجرى على رقعة من الأرض أعدت على نسق رقعة الأرض التى كانت تستخدم فى القفز الطويل • وبعد اختيار المتبارين بالقرعة كان هدف كل مصارع أن يطرح خصمه أرضا سواء على ظهره أم كتفه أم فخذه دون أن يقع هو نفسه • أما اذا حدث ذلك أو لم ينجح الا فى انزال خصمه على ركبته فانه كان لا يعتبر فائزا • وكانت المباراة تتألف من ثلاث دورات ، ويبدو أنه كان يسمح فيها بالعرقلة ومسك الأذرع والعنق والجسم لكنه كان لا يسمح بمسك الأرجل •

وفى الملاكمة كانت تغطى راحـة اليد دون الأصابع بلفـائف كانت فى بادىء الأمر لينة ثم استبدلت بهـا منذ بداية القرن الرابع قبـل الميلاد لفائف أكثر صلابة يرجح انهـا كانت من الجلد • وكان المعصـم ومقدم الذراع حتى المرفق يغطيان بقطعة من جلد الغنم ، أما الأصابع فكانت توضع عليها ثلاث أو خمس قطع من الجلد السميك تثبت فى مكانها بالأربطه • ولم توجد حلقة للملاكمة ولا دورات محددة فكانت الملاكمة تستمر حتى يستنفد أحـد المتلاكمين قواه أو يعترف بالهزيمة برفع احـدى ذراعيه • وكانت اللكمات توجه أساسا الى الرأس مما كان يستوجب اجادة التغطية وطول الذراعين •

وكانت المصارعة الحرة أكثر الألعاب القديمة عنفا وقسوة وتوصف عادة بأنها مزيج من الملاكمة والمصارعة • وكان الهدف هو ارغام الخصم على رفع احدى ذراعيه دلالة على التسليم بالهزيمة • وكان لا يسمح فيها باللكمات المألوفة فى الملاكمة والمسكات المعروفة فى المصـارعة فحسب بل أيضا بالعض وركل البطن ولوى الذراعين والضغط على العنق •• الخ • لكنه كان لايسمح بوضع الأصابع فى عينى الخصم أو أنفه أو فمه • وفى العادة ، بعد تبـادل بعض الضربات ، كان الخصمان يلتحمان ويقعان على الأرض ويستمران فى الصراع حتى يستسلم أحـدهما • وكانت المبـاراة تجـرى فوق أرض معـزوقة ومروية فكان المتبـارون ينزلقون عليهـا ويتدحرجون حتى يغطيهم الوحل من قمة الرأس حتى أخمص القدمين •

هذه هى أنواع الألعاب الرياضـية التى كانت قوام التربية البدنية عند الاغريق وكان يتولى أمـرها مدرس تخصص فى فنونها • ولم يكن هذا المدرس مجـرد مدرب بل معلمـا بأدق معنى الكلمة كان يجب أن يتوافر فيه الى جانب الكفاية الرياضية المام دقيق بقوانين علم الصحة وبكل ما وضـعه الطب الاغريقى من القواعد الخاصـة بنمو الجسـم ، مثل تأثير

التمرينات المختلفة على الجسم ونوع التغذية والتدريب الملائم • فقد أفادت تربية النشء الرياضية من الدراسات العلمية للألعاب الرياضية التى صاحبت الاحتراف في الرياضة • حقا ان معلم التربية البدنية لم يذهب الى حد محاراة المدرب المحترف في هذه الناحية لكنه لم يكن في وسعه اهمال كل جديد فى فنه ، وكان يحرص على أن يضمنه دروسه •

ولا نعرف عن الأساليب التي كان مدرس التربية البدنية يتبعها فى تدريسه قدر ما نعرف عن أساليب مدرس التربية العقلية ، غير أن القليل الذى نعرفه يوحى بأنها كانت مماثلة لها فلم تقتصر على مجرد المحاكاة والتمرين • ذلك أن الاغريق حاولوا دائما أن يرتفعوا فوق المستوى التجريبي البحت ، وأن يخضعوا كل ما يمارسون للفحص الدقيق المفصل مما أدى فى التربية البدنية ، مثل ما أدى فى التربية العقلية ، الى نظريات كان المدرس يحرص على أن يفيد منها بتطبيقها فى دروسه • وأكثر ما لدينا من المعلومات خاص بطريقة تدريس المصارعة فقد كان المدرس يشرح للتلاميذ الوقفات والمسكات المختلفة وكيفية مواجهة كل مسكة ثم يطلب اليهم تطبيق ذلك عمليا فى مباريات تدريبية •

وكانت التربية البدنية لا تقتصر على تلقين أصول الألعاب الرياضية المختلفة بل تشمل كذلك سلسلة من التمرينات الرياضية ابتدعها مدرسو التربية البدنية الاغريق لتكون بمثابة اعداد غير مباشر للألعاب ذاتها • وكانت هذه التمرينات تتضمن المشى والجرى مسافات مختلفة الطول ، والجرى الى الأمام والى الخلف ، والجرى مع الوثب بحيث تمس القدمان العجز ، والركل فى الهواء وتسلق الجبال ، فضلا عن ألعاب مختلفة بالكرة ، وتأدية حركات متنوعة بالذراعين وكذلك تمرينات مختلفة شبيهة بما نعرفه بالتمرينات السويدية • وكان ذلك كله يؤدى على نغمات المزمار ، فقد كان في كل مؤسسة رياضية زمار مهمته ان يعزف الأنغام

التى تصاحب تأدية التمرينات الرياضية بل أيضا التى تصاحب مباريات العدو والقفز الطويل وقذف القرص ورمى الحربة والمصارعة •

وكان من أبرز سمات الاغريق أنهم درجوا منذ القرن الثامن قبل الميلاد على ممارسة نشاطهم الرياضى عراة لا يضعون شيئاً على أجسامهم ولا فوق رءوسهم حتى تحت شمس الصيف الحارقة ولا ينتعلون شيئا حتى فى أثناء مباريات الجرى والقفز الطويل ، ولذلك فان مضمار الجرى عندهم كان أكثر ليونة مما نألفه اليوم ويغطى بطبقة سميكة من الرمل •

وكان الرياضيون يمارسون نشاطهم تحت اشراف مدرسهم الذى كان يجول بينهم مرتديا عباءة قرمزية - كان من اليسير أن يخلعها ليعطى تلاميذه ما يراه ضروريا من الارشادات - وممسكا بيده عصاة لم يكن القصد منها تصحيح وضع خاطىء أو الاشارة اليه بقدر ما كان عقاب التلميذ الكسول أو الذى يحتال على قواعد اللعب أو يخرج على الأصول المرعية •

وكان أيضا من أخص سمات الرياضيين الاغريق تدليك أجسامهم ، وكانوا يعلقون على التدليك أهمية كبيرة ويقومون به وفقا لقواعد دقيقة نجد تفاصيلها فى المؤلفات الطبية التى صدرت فى هذا العصر • وقبل ممارسة الألعاب كانت كل أعضاء الجسم تدلك فى غرفة دافئة على مرحلتين : فى المرحلة الأولى كان الجسم يدلك باعتدال دون استخدام الزيت ، وفى المرحلة الثانية كان الزيت يستخدم مع التدليك برفق أولا ثم بشدة • وبعد الانتهاء من اللعب كان الجسم يدلك ثانية بالزيت • وقد كان الغرض من التدليك قبل اللعب تليين العضلات وبعد اللعب ازالة التعب واسترخاء العضلات • وكان يعقب التدليك الأول بالزيت تغطية جسم الرياضى بطبقة رقيقة من التراب كان ينثرها فوق جلده • وتحدثنا المصادر القديمة بأن الباعث على ذلك هو ان التراب ينظم تسرب العرق

ويحمي الجسم من تأثيرات الجو • وبعد انتهاء الرياضي من ممارسة نشاطه كان يستشعر حاجة ملحة الى تنظيف جسمه تنظيفا جيدا : أولا بحكه بمطمار برونزى ثم بالاستحمام •

وتدعو المصادر القديمة مدرسة التربية البدنية أحيانا بالايسترا وأحيانا جومنازيوم • ولا جدال فى أن هاتين الكلمتين لم تكونا مترادفتين • لكن اغريق العصر الهلينيسى استخدموهما على نحو اختلطت معه معانيهما المختلفة الى حد أصبح يتعذر معه التفرقة بينهما تفرقة دقيقة • فأحيانا توصف البالايسترا بأنها مدرسة الصبية والجومنازيوم مدرسة الأفيبوى ومنتدى الراشدين ، وأحيانا توصف البالايسترا بأنها مدرسة خاصة والجومنازيوم مدرسة عامة أنشأتها بلدية المدينة ، وأحيانا توصف البالايسترا بأنها مكان التدريب بكل معداته ، والاستاديوم بأنه مضمار السباق والجومنازيوم بأنه الكل الذى كان يتألف من البالايسترا والاستاديوم • واذا كنا نتفق مع الوصف الأخير من حيث أن علاقة البالايسترا بالجنومنازيوم كانت علاقة الجزء بالكل،فاننا نخالفه من حيث أن الاستاديوم كان جزءا من الجومنازيوم • فنحن نرى — استنادا الى ما كشفت عنه الحفائر فى أولوميا والى الوصف الذى تركه المعمارى الرومانى فيتروفيوس — أن الجومنازيوم كان يتألف من البالايسترا والجومنازيوم بأدق معنى الكلمة ، وأن الاستاديوم كان وحدة منفصلة قائمة بذاتها ، وأن كلا من البالايسترا والجومنازيوم كان يتألف من ساحة الألعاب — وكانت عبارة عن فناء يحيط به بهو أعمدة — ومن عدة غرف أقيمت حول البهو وكانت تستخدم لأغراض مختلفة : التدريس وخلع الملابس والتدليك والاستحمام ، وحفظ الأدوات •• الخ • وازاء وجود مجموعتين متلاصقتين من المنشآت لتوفير الأماكن المناسبة للتربية البدنية والعقلية ، نميل الى ترجيح الرأى القائل بأن البالايسترا كانت مدرسة

الصبية ، وبأن الجومنازيوم بأدق معنى الكلمة كان مدرسة الشبان ومنتدى الراشدين •

واذا كان من الجائز أن يكون دور الألعاب الرياضية فى تربية النشء فى العالم الاغريقى بوجه عام قد تضاءلت أهميته بعد القرنين الأولين فى العصر الهلينيسى ازاء اقتحام المحترفين هذا المجال وما حققوه فيه من مستوى رفيع كان يتعذر على تلاميذ المدارس بلوغه ، فان القرائن تشير الى أنه فى مصر وفى بعض الدول الهلينيسية التى تماثلها فى الأوضاع استمسك الاغريق بالتقاليد الخاصة بالتربية البدنية • وتفسير ذلك أنه فى مصر وفى هذه الدول كان الاغريق يعيشون فى بيئة أغلب سكانها غريبون عنهم ، وأن الألعاب الرياضية كانت من أبرز سمات الحضارة الاغريقية التى حرص الاغريق على الحفاظ عليها ليكون لهم طابع يميزهم عن أهالى تلك الدول •

٣ ـ التربية الفنية (١)

١ ـ الموسيقى

كانت الموسيقى تحتل مكانا هاما فى التعليم عند الاغريق فقد كانوا يعتقدون أنها تحدث تأثيرات نفسية وحسية عميقة لا فى الانسان فحسب بل فى الدولة أيضا • فنرى أفلاطون يوصى باقامة الدولة المثالية على أساس من الموسيقى ، وبعدم السماح بأى تغيير فى قواعد الموسيقى التقليدية حتى لا يحدث تبعا لذلك تغيير خطير فى شئون الدولة ذاتها • ويقول أرسطو فى كتاب « السياسة » ان لكل مقام من المقامات الموسيقية تأثيرا مختلفا فى الناس ، فالمقام الميكسوليدى يبعث فى النفس شعورا

---

(١) راجع Jaeger, Paideia, vol. II; Morrou, op. cit., pp. 188 ff., and Bibl., pp. 509-511.

بالضيق والمقام الدورى شعورا بالاستقرار والمقام الفروجى شعورا بالحماسة . واذا كان كتاب الاغريق قد اختلفوا فى تقدير التأثير الذى يحدثه فى النفس كل مقام من المقامات الموسيقية ، أو بعبارة أوضح اختلفوا في تقدير تأثير الألحان المنتمية الى كل سلم موسيقى بعينه ، فانهم اتفقوا على أن الألحان الموسيقية تكسب سامعها صفات خلقية تسهم فى تكوين شخصيته .

وقد عرف الاغريق نوعين من الآلات الموسيقية هما : اللورة (Lyra) والمزمار (aulos) . وكانت اللورة تتألف من صندوق الرنين ، وكان على أشكال مختلفة الا أنه لم تكن له رقبة وان كانت له ذراعان متباعدتان يعترضهما من أعلى قضيب كانت الأوتار تمتد منه الى أسفل فيما بين الذراعين ثم على سطح صندوق الرنين . وكانت اللورة نوعين : أحدهما دقيق الصنع والتركيب وهو الذى كان المحترفون يستخدمونه وكان يعرف بالقيثارة (kithara) والآخر بسيط الصنع والتركيب وهو الذى كان المبتدئون والهواة يستخدمونه وكان يعرف باللورة .

وفى القرن الخامس قبل الميلاد كان صغار الأثينيين يتعلمون عزف اللورة والمزمار . واذا كان تعليم عزف المزمار للنشء قد فقد أهميته بعد ذلك فى أثينا ، فانه كان لايزال باقيا فى القرن الرابع عندما أوصى أرسطو باستبعاده من المنهج الدراسى . وتشير القرائن الى ان مدارس الموسيقى بوجه عام فى خلال العصر الهلينيسى أخذت بوجهة نظر أرسطو . واذا كان عزف المزمار لم يعد عندئذ جزءا من المنهج الموسيقى الذى كان التلاميذ بوجه عام يدرسونه ، فانه ليس معنى ذلك أنه قد بطل عزف المزمار أو تعلم عزفه وان كان يبدو أن ذلك أصبح مقصورا على المحترفين لمصاحبة الرياضيين والمغنين وكذلك على الذين كانوا يهوون عزف هذه الآلة

الموسيقية ، ومن أبرز أمثلة هؤلاء بطليموس الثانى عشر والد كليوبترة المشهورة وكان شديد الشغف بعزف المزمار الى حد أنه لقب « بالزمار » (auletes) وعرف فى التاريخ بهذا اللقب • وعلى كل حال فانه قياسا على ما جرى به العرف فى أغلب بلاد الاغريق كانت اللورة تحتل المكان الأول فى ثقافة التلاميذ الموسيقية فى العصر الهلينيسى •

وقد عرف الاغريق نوعين من التدوين الموسيقى كان أحدهما للمغنى والآخر للعازف • وهذان التدوينان يوضحان مواضع العفق عند العزف لكنهما لا يوضحان الطبقة الصوتية • وهذا يبدو غريبا بالنسبة للتدوين الأول وذلك لعدم ارتباط الصوت بالأوتار ولا بالأصابع ، ولذلك فان هذا النوع من التدوين هو تدوين للحن الغنائى معزوفا على الآلة الموسيقية • ولعل ذلك يرجع الى أنه منذ عرف الاغريق الموسيقى كان المغنى يصاحب نفسه عزفا على اللورة •

ومعلوماتنا طفيفة عن كيفية تدريس الموسيقى ، ومع ذلك فانه يصعب علينا قبول ما يذهب اليه بعض الباحثين من أن الدراسة كانت عملية بحتا بالطريقة المباشرة دون تعليم التلاميذ قراءة « النوتة » • ويستند أصحاب هذا الرأى الى أن التصاوير التى زينت بها بعض الآنية ترينا المدرس والتلميذ يجلسان قبالة بعضهما بعضا ومع كل منهما آلته الموسيقية فقط ، ولذلك يقولون بأن المدرس كان يعزف أولا ويصغى التلميذ اليه باتنباه وبعد ذلك يحاول التلميذ محاكاته بقدر ما يستطيع ، وتتكرر العملية الى أن يحفظ التلميذ القطعة الموسيقية دون الاستعانة بأية « نوتة » موسيقية • ولعل الأدنى الى الحقيقة أن زخارف الآنية لاتصور الا مرحلة أو أخرى من مراحل دراسة الموسيقى قد تكون لاحقة لتعلم السلم الموسيقى وقواعد الايقاع وقراءة « النوتة » •

وقد كان الغناء جزءا أساسيا من ثقافة الاغريق الموسيقية بل ان اهتمامهم بالموسيقى الغنائية طغى على اهتمامهم بموسيقى الآلات • ومرد ذلك

الى أن عقليتهم الكلاسيكية كانت تتطلب من فنونهم طابعا واضحا لا لبس فيه ولا غموض وهو ما لم يتوافر فى الموسيقى الا عندما كانت تتحد مع الكلمات ، ولذلك فان أفلاطون يتساءل عما يمكن أن يعنى اللحن والايقاع وحدهما اذا لم تكن معهما كلمات • وقد كان أمر الغناء يسيرا من وجهة النظر الموسيقية لأنه كان غناء جماعيا تصاحبه دائما آلة موسيقية كانت المزمار عادة • وكان اشتراك جوقات صغار المنشدين فى طقوس الحفلات الدينية العديدة من التقاليد التى حرص الاغريق على الحفاظ عليها حتى عندما كانوا فى العصر الهلينيسى يستخدمون جوقات من المنشدين المحترفين سعيا وراء توفير مستوى رفيع من الأداء فى مثل هذه المناسبات •

وكان الرقص يتصل اتصالا وثيقا بغناء الجوقات ، وان كان كل منهما يختلف فى أهميته عن الآخر تبعا لاختلاف ظروف الأداء ، ففى التمثيليات كان الغناء يفوق الرقص فى الأهمية على حين أنه فى مناسبات أخرى كان العكس صحيحا • وقد كانت لدى الاغريق مجموعة حافلة من الرقصات التى كانت تؤدى بمصاحبة الموسيقى •

ومما يجدر بالملاحظة أن الرقص والغناء لم يحتلا فيما يبدو مكانة هامة فى التعليم فى خلال العصر الهلينيسى • ولعله يمكن القول بأنه كان شأنهما الى حد ما شأن التمثيل فى مدارسنا اليوم • واذا كانت الموسيقى ذاتها قد أخذت فى كثير من الدول الهلينيسية تفقد مكانتها بالتدريج فى المنهج الدراسى بقدر ما تقدم الفن الموسيقى ذاته وأصبحت اجادته تتطلب سنوات من المران المستمر كان يعز على الهواة بوجه عام أن يتوافروا عليه ، مما أفضى الى ترك الميدان للمحترفين ، فاننا نرجح أن يكون اغريق مصر قد احتفظوا بالموسيقى احتفاظهم بالألعاب الرياضية فى تربية صغارهم وذلك من ناحية دعما لطابعهم الذى كان يميزهم عن أهل البلاد ، ومن ناحية أخرى أخذاً برأى أرسطو القائل بأنه ليس الغرض من التربية البدنية

اعداد الأبطال المبرزين بل تهيئة الأولاد لينموا نموا متناسقا ، والقائل كذلك بأن الهدف من التربيـة الموسيقية ينبغى الا يـكون اعداد التلاميـذ لينافسوا المحترفين وانما ليتذوقوا الموسيقى (١) •

(ب) الرسم :

ظلت الموسيقى أمـدا طويلا العنصر الأساسى بل الوحيد فى تربية الاغريق الفنية الى ان ظهر الرسم لأول مرة فى مناهج الدراسة فى مدينة سيكوون بتأثير الرسام يامفيلوس ، وكان أحد أساتذة الرسام الكبير أبلس (Apelles) • ومن سـيكوون انتشرت البـدعة الجديدة الى كافة بـلاد الاغريق • ومع ذلك فان ارسطو كان لايزال يعتبر الرسم دراسة اضافية بالقياس الى الموسـيقى والتربيـة البدنية والآداب وهى التى كان يعتبرها دراسات أساسية ، لكنه فى العصر الهلينيسى غدا الرسم يؤلف جزءا من المنهج الدراسى المـألوف حيثما توافرت الامكـانيات التى كانت تهيىء دراسته •

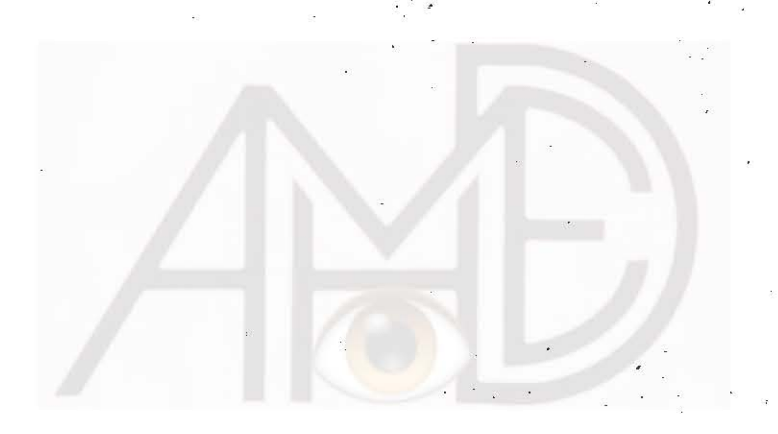
ومعلوماتنا طفيفة جدا بصدد الرسم فهى لاتكاد تتعدى أن الطفل كان يتعلم كيف يرسم بالفحم ومن المحتمل أيضا بالألوان على لوحة من الخشب • ويبدو أن جسم الانسان كان النموذج الرئيسى الذى يتعلم رسمه فى أوضاع مختلفة ، فقد استهوى الاغريق جمال الجسم الى حد أنه كان محور كل أعمالهم الفنية ، مما حدا بهم الى دراسـة أجـزائه وحـركاته وسكناته ليجيدوا التعبير عنه سواء بالرسومات أم بمختلف أنواع التماثيل والنقوش • وقد عرف ارسطو الغرض الحقيقى من الرسم بأنه ليس على الاطلاق غرضا عمليا وانما تهذيب الحواس •

ومنذ أن أصبح الرسـم ضمن مواد الدراسـة فى العصر الهلينيسى

---

(١) Arist., Polit., VIII, 1337 b — 1341 b.

لم تقتصر دراسته حتى أواخر العصر الرومانى على مرحلة التعليم الابتدائى بل كانت تتعدى ذلك الى مرحـلة التعليم الثانوى ان لم يـكن الى مرحلة التعليم العالى • ومع ذلك فانه لايوجد ما يستدل منه على أن كل تلميذ أو طالب كان يستطيع متابعة دراسة الرسم حتى ولو كان شديد الرغبة فى ذلك ، فقد كان الأمر يتوقف على توافر الامكانيات التى كانت تهيىء دراسته •



الفصل الثالث

نظام التعليم



١ – الدولة والتعليم

لاشك فى أن أهم دعامة للحضارة الاغريقية كانت المدارس والمعاهد الاغريقية ، فهى التى كانت تفتح أمام أبنائهـا آفاق الفكر الاغريقى (١) وفى الواقع كان شائعـا بين اغريق مصر قول مأثور فحـواه أن التعليم هو المصدر الرئيسى للتفكير (٢) • وحسبنا دليلا على الدور الهام الذى قام به التعليم فى حياة الحضارة الاغريقية فى مصر تلك النتائج الباهرة التى تمخض عنها • ولاشك أيضا فى أن البطالمة نصبوا أنفسهم حماة للحضارة الاغريقة وحرصوا على أن تبرز مصر بوصفها دولة اغريقية لا دولة شرقية ، وعملوا على أن يجتذبوا الى دولتهم أبرز العلماء والأدباء والشعراء والفنانين الاغريق وانشأوا فى عاصـمتهم « دار العلم » (الجامعـة) والمكتبة الكبرى ، فغدت الاسكندرية أبرز عواصم الحضارة الاغريقية وخلعت اسمها على حضارة القرنين الثالث والثانى قبل الميلاد •

ومع ذلك كله فانه باستثناء « دار العلم » لم توجد فى طول مصر وعرضها مدارس حكومية تنفق الدولة وتشرف عليها بانتظام ، ولم يكن التعليم اجباريا ولا بالمجان • وليس معنى ذلك أنه لم تكن هناك أية رقابة على التعليم أو تشريعات خاصة به ، فقد أصبح من سمات الدول الهلينيسية

(١) Marrou, op. cit., pp. 142 ff.

(٢) Rostovtzeff, Soc. and Econ. Hist. Hellen. World, p. 894.

اصدار تشريعات خاصة بمعاهد التعليم ، وكان مصدر هذه التشريعات الملوك وكذلك البلديات والهيئات التى كانت على شاكلتها (١) • وقد مر بنا انه كانت توجد فى مصر ثلاث مدن اغريقية وأن الاغـريق النازلين خارج هذه المدن كانوا يؤلفون جماعات قومية منظمة على نمط المدن الاغريقية•وقدكانت هذه المدن وهذه الجماعاتالاغريقية تتمتع بقدرمن الحكم الذاتى فى مباشرة شئونها المحلية• ولذلك كانت هذه المدن وهذه الجماعات تشرف على المعاهد الموجودة فى كل منها غير أنه لم يكن لديها من الموارد ولا الأجهزة الادارية ما يمكنها من أن تتولى بنفسها شئون التعليم فبقيت اكثر المدارس أهلية • وقد كان ذلك طابع مدارس المرحلة الابتدائية بوجه خاص ، وكانت هذه المدارس تعتمد على ما يدفعه التلاميذ من مصروفات •

وكانت الجومنازيا أو بعبـارة أخـرى مدارس المرحـلة الثـانوية منشـآت محلية أو خاصة أسستها الجماعات أو الأفـراد ، ومع ذلك فان البطالمة كلؤها برعايتهـم وكانوا أحيـانا يمدونها باعاناتهم (٢) ، مما خلع عليها صبغه شبه رسميه ، فاحدى الوثائق التى وصلت الينا من مديريه الفيوم عبارة عن التماس مقدم الى حاكم تلك المديرية للحصول على اذن منه باجراء الاصلاح اللازم فى جومنازيوم بتلك المديرية (٣) ، مع أن أحد الأفراد هو الذى كان قد أسسه ثم ورثه عنه فرد آخر • ومعنى ذلك أن الجومنازيا كانت تخضع للنظام نفسه الذى كانت تخضع له مصانع النسيج والهياكل التى أسسها الأفراد وذلك لأن شئون التعليم كانت تهـم الدولة مثـل ما كانت تهمها شئون الديانة والصناعة (٤) • وكانت الحكومة تعترف بجمعيـــات رجـال الجومنـــازيوم (hoi ek tou gymnasiou) التى

(١) Tarn, Hellen. Civiliz., p. 88.

(٢) Wilcken, Grundzüge, pp. 138 ff.

(٣) Guéraud, Enteuxeis, 8.

(٤) Guéraud, op. cit., p. 21; Henne, B.I.F.A.O., XXII, pp. 197 ff

نشأت حول هذه المعاهد (١) • وكان الهدف الرئيسى لهذه الجمعيات هو امداد الجومنازيا بما كانت تحتاج اليه من الأموال والاشراف على الجومنازيا وتنظيمها ، ولذلك منح البطالمة هذه الجمعيات امتيازات هامة كامتلاك الاراضى والمبانى والأثاث •

واذا كان سخاء البطالمة على دار العلم والمكتبة الكبرى ورعايتهم للجومنازيا وحدبهم على جمعياتها — اذا كان ذلك كله يدل على أنهم أولوا التعليم قدرا من عنايتهم ، فانهم مع ذلك لم يعنوا به قدر عنايتهم باقتصاديات البلاد وماليتها التى أنشأوا من أجلها ادارات مالية دقيقة كانت لها فروع وموظفون حتى فى أصغر قرية من قرى مصر •

بيد أن الدلائل تشير الى أنه حيثما نزل الاغريق بمصر ، سواء فى مدنها الاغريقية أم فى خارجها ، كانت توجد مدارس ابتدائية اغريقية جنبا الى جنب مدارس المرحلة الثانوية أى الجومنازيا (٢) •

ولسنا نعرف شيئا على وجه الدقة عن شكل المدرسة الإبتدائية ، بيد أنه لايبعد أنها كانت تماثل المدرسة الثانوية من حيث ان كلا منها كان لا يتألف الا من قاعة واحدة للدراسة زينت بتماثيل لربات الحكمة والفنون (٣) (Muses)

ولحسن الحظ أننا أوفى علما بأثاث قاعة الدراسة ، فقد كان هذا

---

(١) Jouguet, Vie Municipale, pp. 79-86; Rostovtzeff, op. cit., pp. 324, 1059; Archiv f. Papyrusforschung, II, 548, 26; V, 415-416, 13, 17; S.E.G., VIII, 504, 531, 641, 694; Cf. P. Oxy. 2186.

(٢) Marrou, op. cit., p. 203; Rostovtzeft, op. cit., p. 1691 a; P. Cairo Zen., III, 59326, 28; B.G.U., VI, 1256; P.S.I., IV, 391 a; 418, 7; P. Guéraud et Jouguet, O. Michigan, 656, 657, 658, 661, 662, 693; P. Wars., 7; P. Grenf., II, 84; P. Fayoum, 17; P. Ianda, 83; Ziebarth, Ant. Schule. p. 29.

(٣) Herondas, Didask., III, 71E; 97; Athen., VIII, 348 D.

الأثاث يتألف من كرسى للمدرس زود بمسند للظهـر (١) ومن مقـاعد خشبية (٢) يجلس عليها التلاميذ دون أن يجدوا خلفهم ما يسند ظهورهم ولا أمامهم ما يكتبون عليه •

٢ ـ مراحل التعليم

نستخلص من المعلومات الطفيفة التى لدينـا عن التعليم الاغريقى فى مصر ابان عصر البطالمة أنه كان على ثلاث مراحل • وكانت المرحلة الأولى من التعليم تدوم عادة من السابعة الى الرابعة عشرة وتخصص لتلقين مبادىء العلم اما فى المدارس التى أنشأها المعلمون فى كل مكان واما فى البيت تبعا لحالة الأسرة المالية • ويبدو أن الفقراء لم يكونوا عادة فى حالة تسمح لهم بتعليم أبنائهم أو أنهم لم يعنوا بذلك ، فكان أبناؤهم يبقون أميين • ويبين ان الاثرياء ومتوسطى الحال هم وحدهم الذين كانوا يعنون بأن يتابع أبناؤهم التعليم مدة تطول أو تقصر تبعا لمواردهم وميـول أبنـائهم وقدرتهـم على التحصيل •

وبعد تلقى مبادىء العلم الأولية كان التلاميذ الذين تسـمح حالتهـم المالية بمتابعة تحصيل العلم يذهبون الى الجومنازيا حيثما وجدت ، اما فى مواطنهم واما فى القرى الكبيرة والمدن القريبة • ويبدو أنهم كانوا يتلقون فى هذه المعاهد من الثقافة العلمية والتربية البدنية قدرا يماثل ماكان نظراؤهم يتلقونه فى شتى معاهد العلم المماثلة فى مختلف أنحـاء العالم الهلينيسى • ويبدو أن هذه المعاهد كانت تهىء للتلاميذ مرحلة الثقافة العامة التى كانت تضع ، وفقا لتوصـيـات ايسقراط(Isocrates) (٣)، أساس الدراسات العليا • ولم تقتصر الجومنازيا على تعليم الصبية بـل كانت أيضا ملتقى كل

---

(١) Athen., IX, 174, 5.

(٢) Plat., Prot., 315 c; 325 c; Demosth., de Corona, 258.

(٣) Panath., 18-27; Ant., 180-185, 261, 265-266, 268; Ad Nic., 13, 35.

الراشدين الاغريق وبخاصة أولئك الذين تعلموا فيها وكانت تؤلف منهم « جمعيات رجال الجومنازيوم » التى سلفت الاشارة اليها • ولذلك كانت الجومنازيا أهم مراكز الحياة الاجتماعية عند الاغريق ، اذ أنها كانت تقوم بدور المدرسة والنادى فى آن واحد • وينهض انتشار الجومنازيا فى مصر وتمتعها بمكانة هامة دليلا على استمساك الاغريق بتقاليدهم ، وعلى العناية التى كان القادرون منهم يوجهونها لاعطاء أبنائهم ثقافة اغريقية صحيحة •

وبعد انتهاء هذه المرحلة التى كانت تدوم عادة أربع سنوات من الخامسة عشرة الى الثامنة عشرة ، كان عدد قليل من الشبان السعداء يذهبون لمتابعة دراستهم العالية على كبار الأساتذة اما فى الاسكندرية واما فى احدى المدن الكبيرة مثل أوكسورونخوس (البهنسة) أو لو كوبوليس (أسيوط) (١) •

ولم توجد عند الاغريق مدارس لتعليم الزراعة أو الصناعة أو التجارة ، فقد كانت الزراعة والصناعة والتجارة لا تدخل فى نطاق الثقافة والتعليم عندهم • وذلك لأن الاغريق كانوا منذ عهد بعيد يعتبرون من يتقن أية حرفة يدوية أدنى شأنا من المواطنين الآخرين ، كما أنهم بوجه عام يعتبروا التجارة وسيلة مواتية للحياة القومية • وعلى كل حال فان المدارس الصناعية الوحيدة عندهم كانت حوانيت الصناع ودور التشغيل مثل ما كانت الحقول ذاتها مدارسهم الزراعية والمتاجر عينها مدارسهم التجارية •

٣ ــ تعليم الخاصة

وكان الشائع المألوف أن يتابع أبناء الاغريق بوجه عام تعليمهم فى المدارس الموجودة فى مختلف أنحاء البلاد ، غير أنه كان يشذ عن ذلك

(١) Préaux, Rev. Belge de Philologie et d'Histoire, VIII, 1929, pp. 757-800; Collart, Chronique d'Eg., 1935, p. 494; Rostovizeff, op. cit., pp. 1058-60.

ابناء الطبقات العليا والأمراء الصغار • اما أبناء الطبقات العليا فانهم كانوا عادة يتلقون في بيوتهم على أيدى مدرسين خصوصيين مبادىء العلم الاولية ، التى كانت تلقن فى مدارس المرحلة الابتدائية • وفى سن الرابعة عشرة كانوا ينخرطون فى منظمات الأفيبوى ، أما الخطوة التالية فيبدو أنها كانت تتوقف على ميول كل منهم ، ولا يبعد ان بعضهم كانوا ينصرفون الى حياة الكسل والدعة وبعضهم كانوا يندمجون في جماعات النيانيسكوى وبعضهم كانوا يستكملون دراستهم الثانوية •

ولقد احتفظ البطالمة كغيرهم من ملوك الدول الهلينيسية الأخرى بتقليد كان معروفا في مقدونيا وفى مصر القديمة وفي بلاد الفرس وهو تربية عدد من أبناء كبار الأسر وكبار الموظفين مع أبناء الأسرة الملكية • ويظن أنهم كانوا بمثابة رهائن لضمان ولاء أسرهم للعرش ، غير أنه كان يختار منهم كبار الموظفين (١) ، ولكنه يجب الا يفهم من ذلك أن كبرى المناصب المدنية والعسكرية كانت وقفا عليهم ، فقد أفسح البطالمة الفرصة أمام أصحاب المواهب مهما تكن نشأتهم (٢) • وكان يطلق على هؤلاء الأولاد الذين كانوا يربون مع أبناء الأسرة الملكية اسم فتيان القصر (paides basilikoi) • وعندما يرتقى العرش الأمير الذى ربوا معه كان يطلق عليهم أقران الملك (syntrophoi basileos) ، ويبدو أنه كان لبعض هؤلاء الأولاد صبغة عسكرية وكان يطلق عليهم اسم ملاكس (mellakes) (٣) • ومن المحتمل ان عددا من البنات كان يربى كذلك مع الأميرات (٤) •

وكان أبناء الأسرة الملكية ورفاقهم يتلقون العلم فى القصر الملكى •

(١) Bouché-Leclercq, Hist. des Lagides, III, p. 118.

(٢) Cf. Aymard-Auboyer, L'Orient et la Grèce Ant., 2e éd., Paris, 1955, p. 404.

(٣) Jouguet, Macedon. Imperialism, p. 298.

(٤) Bevan, op. cit., p. 118.

ولا بد من أن خبرة معلمي العصر كانوا يتولون تعليمهم فترة معينة على الأقل قبل أن يصبحوا أهلا لتلقى العلم على أيدى كبـار الأسـاتذة الذين أتانا خبرهم • واذا كنـا نعرف أسماء مشاهير الأساتذة الذين تتلمذ عليهم بعض البطالمة فى حداثتهـم ، فاننا لا نعرف أسماء أساتذة باقى البطالمة وان كان لدينا من الشواهد ما يدل على الأقل على سعة ثقافة بعضهم • ولانعرف كذلك اذا كان البطالمة يتابعون دراستهم لفترة معينة فقط أم أنهم كانوا يستمرون فى متابعة هذه الدراسة وفقا لميولهم وظروفهم •

ولقد كان بطلميوس الثانى تلميذ الفيلسوف استراتون (Straton) والشـاعر فيلتاس (Philetas) • وكانت ثقافته واسـعة وله ولع بالجغرافيا والتاريخ الطبيعى وشغف بالبحث عن أنـواع الحيوان النـادرة لحدائقه بالاسكندرية (١) • وكان بطلميوس الثالث ملكا مثقفا مثل أبيه اذ أنه كان تلميذ ابولونيوس ـ وكان شاعرا فحلا وأمين المكتبة الكبرى ـ كما كان صديق العالم الفذ اراتوسثنيس • ويمكننا ان نلمس أثر ميله للعلم الدقيق فى اصلاحه التقويم الذى فرضـه على الكهنة المصريين ثم اقتبسـه فيما بعد يوليوس قيصر (٢) • وكان بطلميوس الرابع تلميذ العالم الكبير اراتوسثنيس والفيلسـوف الرواقى سـفايروس (Sphaeros) ، وكان معنيـا بالآداب شغوفا باظهار مواهبه الشعرية ، فكتب قصة شعرية تدعى ادونيس (٣) • وكذلك كان بطلميوس الثـامن يورجتيس الثـانى يطمـع فى مكانة بين المؤلفين الاغريق وخلف كتـابا ضمنه بعض ذكرياته (٤) • وربما كانت كليوبترة السابعة ، مثل أخيها بطلميوس الرابع عشر ، تلميذة ثيودوتوس

---

(١) Diod., III, 36, 3; Theocr., I, 167-8; P. Cairo-Zen., I, 59075.

(٢) Jouguet, Mac Imp. pp. 247-8; Nat. Eg., pp. 55-6; Cary, Greek World, p. 398; Sarton, Hell. Science and Culture, in the Last Three Cent. B.C., pp. 140 ff, and Bibl.

(٣) Bouché-Leclercq, I, pp. 325 ff.; Schol. Aristoph., Triesmopn. 1059; Archiv, IV, p. 413; Bevan, pp. 233-4; Jouguet, Nat. Eg., p. 62.

(٤) Bevan, p. 308.

أستاذ الخطابة (١) • وعلى كل حال فانها تعلمت تعليما عاليا وكانت مغرمة بالدراسات الأدبية (٢) وتعلمت الى جانب اللغة المصرية اللغات الارامية والعبرية والعربية والفارسية والبارثية و « الاثيوبية » والصومالية (٣) ، وكانت صديقة العلماء مثل فوتينوس (Photinus) الذى ألف كتابا فى الحساب والهندسة أطلق عليه اسم « قواعد كليوبترة » ، والطبيب المشهور ديوسقوريديس (Dioscurides) الذى ألف تحت رعايتها عددا من الكتب الطبية التى ظلت مرجعا لطلاب الطب عدة قرون والفلكى سوسيجينيس (Sosigenes) الذى عاون قيصر على اصلاح التقويم (٤) •

٤ ـ اعداد الموظفين (٥)

ولم يكن فى وسع البطالمة ووزرائهم الاضطلاع بمهام الحكم دون مساعدة هيئة كبيرة مدربة من الموظفين • ويعتبر تكوين هذا الجيش من الموظفين من جلائل أعمال البطالمة الأوائل • ويزيد فى قيمة عمل هؤلاء البطالمة أنه لم يكن لهم ولا لأعوانهم الذين وفدوا معهم على مصر دراية خاصة ولا اعداد مناسب للعمل الذى اضطلعوا به • ذلك أنهم قبل ذلك كانوا يديرون شئونهم الخاصة بطريقة بدائية ، كما أن ادارة الشئون العامة التى شارك فيها كثيرون من أولئك المهاجرين كانت تخضع لنظم بسيطة أولية بالقياس الى النظم البطلمية • ومن العسير أن نعرف كيف تمكن البطالمة الأوائل من تكوين هذه الأداة الحكومية الدقيقة ، فى بلد أجنبى ووسط ظروف غريبة ، من عناصر لم تتوافر لديها المؤهلات اللازمة لمثل هذا العمل • ذلك أن رءوس هذه الأداة ومديرى مصالحها المختلفة وأقسامها المتعددة

---

(١) Plut., Pomp., 77; Caes., 48-9; Brut., 33; App., B. Civ. II, 84.
(٢) Philost., Vit. Soph., I, 5.
(٣) Plut., Ant., 27.
(٤) Cf. Plut., Ant., 29; Caes., 59; Sarton, op. cit., p.
(٥) Cf., Rostovtzeff, op. cit., pp. 1078-81.

كانوا كلهم تقريبا من الاغريق الذين لم يعدهم ماضيهم للاضطلاع بمثل هذه الأعمال المعقدة •

ولاشك فى ان أداة البطالمة الحكومية كانت الى حد ما من تراث الماضى، لكنها أصبحت فى مجموعها أداة اغريقية منظمة تنظيما دقيقا • ولم تقتصر هذه الصبغة الاغريقية على أسماء المناصب ـ وقد كانت فى بداية الأمر غامضة وغير دقيقة ـ ولا على استخدام اللغة الاغريقية ، ولا على نظام اغريقى للمحاسبة ، اذ أن هذه الأداة كانت اغريقية فى نظامها وفى الروح التى سرت فيها • وقد كان ذلك أمرا طبيعيا لأنه كانت للبطالمة الأوائل أهداف وأغراض جديدة كان تحقيقها يتطلب اعادة تنظيم الشئون الادارية والمالية والاقتصادية القديمة التى كانت سائدة فى مصر قبل عصر البطالمة • ومن ثم فانهم كانوا يتطلبون من موظفيهم أن ينشئوا ويجددوا ، والا يكتفوا بتسيير الأداة الحكومية القديمة • ولا أدل على المهارة التى اكتسبها أولئك الموظفون على عهد بطلميوس الثانى من القوانين المالية والاقتصادية التى أصدروها فى عهده •

ونجاح البطالمة الأوائل فى اعادة تنظيم الأداة الحكومية لتحقيق أهدافهم يعتبر من أبدع مبتكرات العقلية الاغريقية ، ودليلا على مرونتها واستعدادها لتكييف نفسها وفقا للظروف التى تكتنفها • ومن المؤكد أن البطالمة الأوائل أنفسهم وكبار مساعديهم ومستشاريهم هم الذين وضعوا أساس البناء ، الذى كان يجب على صغار الموظفين استكماله • واذا كانت الظروف قد اقتضت أول الأمر اختيار الموظفين من أوفق العناصر الأجنبية التى توفرت عندئذ ، فانه بمضى الزمن اكتسب هؤلاء الموظفون دراية بعملهم أورثوها لخلفائهم • ولا يبعد أن مكاتبهم كانت منذ البداية مصالح حكومية وفى الوقت نفسه مراكز لاعداد الشبان لتولى المناصب الحكومية بعد احرازهم قسطا من التعليم ، وذلك على غرار ما كان مألوفا فى مصالح الحكومة المصرية على عهد

الفراعنة • وهكذا يبدو أن ذلك كان بعضا من تراث الماضى الذى أفادت منه أداة البطالمة الحكومية وطورته وفقا لاحتياجاتها •

وازاء اتساع نطاق اداة البطالمة الحكومية باستمرار لابد من ان تكون مصالحها قد استمرت فى متابعة وظيفتها التعليمية لاعداد الشبان لتولى مناصبها • وقد كان اقبال الاغريق شديدا على مناصب الحكومة وبخاصة فى الشطر الثانى من عصر البطالمة عندما فقد تجار الاغريق وصناعهم وزراعهم روح الاقدام والمغامرة فتركوا التجارة والصناعة والزراعة وتكالبوا على مناصب الحكومة (١) •

٥ ــ المعلم والتلميذ ووسائل التأديب

وإذا تركنا جانبا كبار الأساتذة والمدرسين النابهين الذين كان الملوك وأهل الطبقة العليا يختارونهم لتعليم أبنائهم ، فاننا نجد أن الذين كانوا يحترفون التدريس لم تتوافر لديهم أية مؤهلات خاصة لممارسة مهنتهم • ذلك أن الدول والمدن والهيئات المعنية بشئون التعليم ، وان اشترطت توافر شروط معينة لاضطلاع المدارس بمهامها ، لم تشترط توافر أية مؤهلات فيمن يضطلعون بالتعليم • فنرى أنه فى المدن ، مثل تيوس وميلتوس ، التى كانت توجد بها مدارس حكومية كان الذين يعهد اليهم باختيار المدرسين لايرعون اختيار أصلح المتقدمين من ذوى الخلق الحسن والسيرة الحميدة (٢) •

والواقع انه كان فى وسع أى انسان معوز أن يفتح ما يمكن تسميته من باب التجاوز مدرسة ابتدائية أو عالية اذا كان على قدر صغير أو كبير من العلم ، وكانت الدلائل توحى بوجود عدد كاف من التلاميذ ينقدونه

---

(١) J.E.A., 1920, p. 170.

(٢) Rostovtzeff, op. ct., pp. 1087-88.

أجره كل شهر • واذا كانت الوثائق تشير الى حالات كان التلاميذ فيها يقدمون لمدرسيهم الهدايا والمأكولات (١) ، فانها تشير الى حالات أخرى كان الآباء يعجزون فيها عن دفع الأجر فى آخر كل شهر ، أو آباء كانوا ، من باب الاقتصاد ، يعمدون الى احتجاز أبنائهم عن المدرسة فى شهر تكثر فيه العطلات المدرسية توفيرا للمصروفات (٢) • وقد كان مدرسو المدارس الثانوية أقل اعتمادا على كرم التلاميذ وذويهم وان لم يكونوا أفضل حالا ، فقد كان يتكفل بانشاء هذه المدارس المدن والجماعات القومية وأحيانا الأثرياء وتقوم جمعيات خريجيها بالانفاق عليها واستئجار المدرسين لها لقاء أجر زهيد (٣) •

ونستخلص من المصادر القديمة ان المدرسين كانوا لا يستقرون فى مكان واحد الى حد أننا نرى بعضهم ينتقلون فى خلال عام واحد من مكان الى آخر (٤) • ولعلهم كانوا يذهبون الى مزاولة مهنتهم حيثما كانت تبدو لهم بارقة أمل فى الفوز بعدد أكبر من التلاميذ أو بمرتب أسخى نسبيا • وازاء ذلك كله ظلت مهنة التدريس طوال العصور القديمة مهنة وضيعة لم يكن أربابها موضع الاحترام والتقدير وانما موضع الزراية والاستخفاف • وخير شاهد على ذلك أن خصوم الزعيم السياسى ايسخينيس (٥) والفيلسوف ابيقور (٦) كانوا يأخذون عليهما أن أبويهما انحدرا الى حد أنهما اضطرا الى ممارسة التدريس • وتشير القرائن الى أن هذه المهنة كانت الملجأ الأخير الذى كثيرا ما كان ينشده كرام الناس عندما تنحدر بهم

---

(١) P. Giss. 80.

(٢) Theophr., Char., 30.

(٣) عن أجور المدرسين الاغريق بوجه عام راجع :
C.A. Forbes, Teachers' Pay in Ancient Greece, 1942.

(٤) P. Lond., 1575 verso; P. Oxy., 930.

(٥) Demosth., de Corona, 288.

(٦) Diogen., X, 4.

الحال ويفقدون عزهم وجاههم وتضطرهم الحاجة الى تكسب رزقهم ليدفعوا عن أنفسهم وذويهم غائلة الجوع • ذلك ان المصادر القديمة تتحدث عن سياسى منفى (١) أو طاغيـة معزول (٢) « اضطرته الحاجـة الى ممارسة التدريس » • وفى فقرة شعرية يتندر رجل زلق اللسان على شخص مفقود فيقول « انه اما ان يكون قد مات واما أنه يقوم بالتدريس فى جهة ما »(٣)• ويصور لوكيانوس فى احدى مقطوعاته الفكرة الشائعة عن المدرسين فى العالم القديم فيرينا كيف ان الملوك وقد فقدوا ثروتهـم فى العالم الآخـر اضطروا الى بيع الملح أو الأحذية القديمة أو الى أن يصبحوا مدرسين (٤) •

ولعل هذا الاحتقار الذى كان قدماء الاغريق يكنونه للمدرس يرجع الى ثلاثة عوامل رئيسية :

أولا : عدم توافر أية مؤهلات خاصة فيه •

ثانيا : طريقة التدريس البدائية وطابعها التكرارى •

(وقد كان هذان العاملان نتيجة طبيعية لعدم وجود معاهد خاصة فى كل أنحاء العالم الهلينيسى لاعداد المدرسين) •

ثالثا : ان المدرس كان يؤدى عمله لقـاء أجـر وأن هذا الأجر كان زهيدا مما هبط بمستوى المدرس الى مرتبة اجتماعية وضيعة جدا •

وقد ترتب على هذه العوامل بالاضافة الى جهل المدرسين بعادات أسر تلاميذهم وأساليبها وآدابهـا ووجهـات نظرها نتيجـة لعدم وجود اتصال مباشر بينهـم وبين هـذه الأسر : ان الاغريق كانوا لا يعولون كثيرا على

---

(١) Athen., IV, 184 C.

(٢) Cicero, Disc. Tusc., III, 27; Trog. Pomp., XXI, 5.

(٣) Meinecke, Frag. Comic. Graec., IV. 698, 375.

(٤) Lucian., Menipp., 17.

المدرسين فى الاشراف على تربيــة صـغارهم وتكوين أخلاقهم ، وأن هذه المهمة ــ على نحو ما مر بنا ــ اذا كانت من اختصــاص أحد غير الأبوين فانها كانت من اختصاص عبد الأسرة البيداجوج بسبب نشأته فيها واتصاله المستمر بها وبصبيتها . وان دل هــذا على شيء فهو يدل على أن العامــل الحاسم فى التربيــة عند الاغريق لم يــكن المدرسة وانما الأسرة بخدمها وأصدقائهــا . وليس معنى ذلك أن المدرســـين كانوا ينصرفون كلية الى التعليم وحده ، فقد كانوا يفيضون فى توكيد القيمة المعنوية لأداء التلاميذ واجباتهم ويجهدون أنفسهم فى تفسير النصوص ويحملونها أكثر مما تحتمل ليستنبطوا منها المواعظ الأخلاقية .

وبالرغم من أن الاغريقى كان يرغب أشد الرغبة فى أن يتلقى ابنه تعليما جيدا ، فانه كان عادة لا يحب أو لا يستطيع دفع الثمن المجزى الذى يحقق له رغبته ، ومن ثم فانه كان يقنع بأن يعهد بتربية ابنه وتعليمه الى العبيد والمعوزين الذين لم يكونوا أهلا لمهمتهم . وقد عجــز الاغريق على الأقل من الناحية العملية عن ادراك أن أفضــل النتائج تتحقق من اتصــال الصبية بأشــخاص يحترمونهــم ويقدرونهم . ويتضح هذا التناقض بجلاء عندما ندرك مقدار ما كان الاغريق يعلقونه من أهمية على القيم المعنوية التى كانت توفرها الآداب والموسيقى والألعاب الرياضية .

وازاء عدم المام المدرســين بالوسائل التربوية لا نعجب من أن أهــم ما كانوا يعنون به هو حشــو ذاكرة التلاميــذ بالمعلومات حتى وان لم تتفق وعقليتهم (١) والا لما لقنوا صغارهم فى المرحلة الابتدائية مثل هذه العبارات « البحر والنــار والمرأة ثالوث مزعج » (٢) أو « تزوج امــرأة ولاتتزوج ثروة » (٣) . ولا نعجب أيضا من أن الضرب كان الوسيلة الرئيسية لتأديب

---

(١) Collart, Chronique d'Egypte, 1935, p. 497.

(٢) P. Bouriant, I, 197.

(٣) Crum-White, Monastery of Epiphanius at Thebes, No. 615.

التلاميذ الكسالى والعابثين (١) وان لجأ المدرسون أحيانا الى أن يفرضوا عليهم واجبات اضافية (٢) • ولم يكن العقاب الجسمانى مسألة هينة بسيطة على النحو المألوف من صفعة أو ركله أو ضرب اليد بأداة خفيفة وان كانت موجعة ، بل كان أخطر من ذلك كثيرا وأشبه ما يكون بجلد المجرمين • وترينا لوحة حائطية من بومبى (٣) منظرا يمثل هذه المأساة ، فنرى تلميذا تعسا نزعت عنه ملابسه وحمله على ظهره وأمسك بذراعيه زميل له بينما أمسك زميل آخر برجلى الشقى الذى لم يعد يستطيع حراكا وخلا ظهره بأكمله ليهوى عليه المدرس بسوط ذى ثلاثة أطارف •

ولا أدل على أن هذه اللوحة الحائطية لم تكن وليدة خيال مصور رومانى كان يحمل ضغنا لمدرسه من ان الشاعر الاغريقى هروندااس ـ وهو الذى كان يعيش فى القرن الثالث قبل الميلاد ويعتبر من أشهر شعراء الاسكندرية ـ يصف لنا منظرا مماثلا (٤) ، ذلك ان أما وقد ضاقت ذرعا بسلوك صغيرها كوكالوس شكته الى مدرسه فنادى على اثنين من تلاميذه ليعطياه « ذيل الثور » ويمسكا كوكالوس • وما أن فعلا ذلك حتى انهال المدرس على ظهر التلميذ الذى علا صياحه متوجعا ومسترحما ، لكن المدرس لم يكف عن الضرب الا بعد أن كف التلميذ عن الصياح والتمس من المدرس الا يقتله !

وقد عثر فى البهنسة على لوحة من الخشب نقشت عليها هذه النصيحة « كن مجتهدا يابنى حتى لا ينكل بك » • وقد جاء فى مقطوعة شعرية ساخرة : ان عكازته التى كان يستهدى بها ويتوكأ عليها ، وبعض السياط ، وعصاه وذراعه الطويلة التى كان يهوى بها على اصداغ الصغار ، وخف وأخيرا قلنسوة كان يغطى بها شعره ، هذه هى كل شارات مهنة كالون

---

(١) Ziebarth, Aus d. Antiken Schule, 12.

(٢) Tait, Greek Ostraca Petrie, 411, 413.

(٣) Reinach, Répertoire de Peintures grecques et romaines, 255, 3.

(٤) Herond., Didask, III, 59-73.

المدرس التى وهبهـا الآن لهرميس القوى بعد ان هد كيـانه العمل الذى أضـناه • وقد سبق ان ذكرنا ان العصا كانت لا تفارق كذلك يد مدرس الألعاب الرياضية •

وقد جاء في احدى مسرحيات مناندروس (Menandros) الكوميدية التى ترجمها بلاوتوس (Plautus) من الاغريقية الى اللاتينية : « وبعد عودتك الى البيت من ميدان الألعـاب والباليسترا تذهب أنيقا مهندما وتتخذ مقعدك أمام مدرسك والكتاب بين يديك • واذا اخطأت قراءة مقطع واحد نقرش المدرس جلدك بعصاه حتى يصبح كثوب مربيتك » (١) •

وهكذا يبدو آن الرأى السـائد قديما هو أن العقاب الجسـمانى كان جزءا لا يتجزأ من التربية والتعليم ، وأنه كان من حق البيداجوج والمدرس ممارسـة الاثنين معا • وقبل أن نقسـو فى حكمنا على المدرس لشدة ولعه باستخدام العصـا والمقرعة يجب أن نلتمس له بعض العـذر ، فقد كان يمارس عمله فى ظروف غير مواتيـة للدراسـة المنتظمة ، وكفيلة باستنفاد صبر أى انسـان • ذلك أن فصل المدرسة الذى يسوده النظام والهدوء والسكينة، على نحو ما نرى فى الصور التى زينت بها بعض الآنية الاغريقية حيث نرى المدرس جالسـا على كرسى له ظهر مائل مرتفع وأمامه التلاميذ جالسين فى دعة وهدوء على كراس أو مقاعد لا ظهر لها ـ ان مثل هذا الفصل كان لا يستمر على هذه الحالة طوال اليوم الدراسى ، ولا سيما أنه كان يسمح للتلاميذ بأن يصطحبوا معهم حيواناتهم الأليفة • ومن اليسير أن نتصور ما كان يترتب على مجرد وجود الحيوانات فى الفصل ـ حتى اذا لم تشتبك بعضها مع البعض الآخـر وما كان يستتبعه ذلك من اشتباك أصحابها مع بعضهم بعضا ـ من صرف انتباه التلاميذ عن متابعة دروسهم ، وتبعا لذلك من اثارة غضب المدرس • واذا أضفنا الى ذلك كله تردد المارة على المدرسة

---

(١) Plaut., Bacchides, 431-434.

بين حين وآخر ـ جريا وراء عادة الاغريق من الوقوف بأى متجر أو حانوت صانع أو مدرسة لا لشيء الا لارضاء فضولهم وحبهم للاستطلاع وقتل الوقت ـ أمكننا أن نتصور مدى الهدوء أو على الأصح مدى الاضطراب الذى كان يسود الفصل ، ومدى عوامل الاثارة التى كانت تدفع المدرس على الدوام الى العنف فى محاولاته اليائسة للسيطرة على تلاميذه .

ويجب الا يفوتنا أن فن التدريس فى العصر الهلينيسى قد ظل بدائيا مثل ما كان من قبل ومثل ما ظل بعد ذلك على مدى ألفى عام ، وأنه باستثناء بعض الوسائل التعليمية العتيقة ، مثل تلقين حروف الهجاء عن طريق مقاطع منظومة ، لم يكن لدى أولئك المدرسين العصاميين فى أكثر المدارس أية دراية بوسائل بسط المعلومات بشكل مستساغ قريب الى الفهم . وفضلا عن ذلك فانهم كانوا يفتقرون الى أهم الوسائل التوضيحية وأعنى السبورة ، اذ ليست هناك أية قرينة على أن الاغريق كانوا يعرفون السبورة أو ما يماثلها . ولما كانت جودة التدريس هى الى حد كبير قوام النظام فى الفصل ـ وهذه حقيقة أدرك كنهها كثير من المدرسين المعاصرين ـ فانه حيثما يعز ذلك تتبوأ العصا مكانها عادة . ولا يوجد دليل على أن المدرسين الاغريق وعوا هذا الدرس ، فلا عجب أنه كانت تتراقص دائما وراء ذكريات الحياة المدرسية عند الاغريق أشباح الخوف من عصا المدرس .

وفى الصباح كان التلاميذ يذهبون الى فصولهم اما بمفردهم واما برفقة مربيهم أو أمهاتهم . وكان صغارهم يرتدون ملابس قصيرة وكبارهم ملابس طويلة . وكان الأنيقون منهم يلبسون رداء أبيض اللون أشبه ما يكون بالجلباب ويرتدون فوقه معطفا أرجوانيا أو أخضر أو أحمر فاقع اللون (١) ، ومتدل من رقاب بعضهم على الأقل تعاويذ تقيهم شر عين

---

(١) Collart, op. cit., p. 496.

السوء (١) • وكان التلاميذ المجدون وكذلك أولئك الذين يرافقهم الكبار يمضون مباشرة الى المدرسة ومعهم أدواتهم المدرسية ، وكانت عبارة عن لوحة واحدة أو لوحتين أو ثلاث لوحات من الخشب تثبت سويا اما بمفصلات واما بثقبها وربطها بقطعة من الخيط (٢) • وكانت بعض اللوحات تغطى بطبقة من الشمع للكتابة عليها بقلم مصنوع من مادة صلبة احد طرفيه مدبب لاستخدامه في الكتابة والطرف الآخر مستو لاستخدامه على نحو ما تستخدم المحاة (٣) • بيد أن أغلب اللوحات كانت تطلى باللون الأبيض للكتابة عليها بالحبر (٤) • وكان يستخدم لهذا الغرض أقلام من البوص (٥) مثل التي كانت مألوفة عندنا الى عهد قريب ولم يكن عنها غناء ولا سيما في دروس « الخط العربى » • وكان استخدام الحبر يستتبع ان يحمل التلاميذ معهم محابرهم • وكانوا يستخدمون أيضا ورق البردى فى شكل قطع منفصلة أو قطع محزومة سويا على هيئة الكراسة (٦) ، ولكنه يبدو أن استخدام البردى كان محدودا بسبب ارتفاع ثمنه (٧) • ولعل كسر الفخار كانت أكثر المواد استخداما لسهولة الحصول عليها دون مقابل وامكان غسلها واستعمالها مرارا • والواقع ان استخدام كسر الفخار فى الكتابة كان أمرا شائعا فى العصور القديمة لا فى المدارس فحسب بل أيضا في شئون الحياة اليومية لكتابة خطاب خاص واعطاء ايصال (٨) •

ومن المحتمل أن كل تلميذ كان يحمل معه الى مدرسته كتابا

---

(١) Cf. Perdrizet, in Mel. Maspero, II, pp. 137 ff.

(٢) P. Oxy., 736.

(٣) J.H.S., 13, 1893, 293.

(٤) Kenyon, J.H.S., 29, 1909, pp. 29-40.

(٥) Demosth., de Corona, 258.

(٦) P. Bouriant, I.

(٧) N. Lewis, L'industrie du Papyrus dans l'Egypte gréco-romaine, 1934, pp. 152-7.

(٨) Marrou, op. cit., pp. 216-7.

للقراءة (١) . ومما يجدر بالذكر أن الكتاب المكون من عدد من الأوراق المتجانسة المحزومة سويا على النحو الذى نألفه لم يعرف الا فى العصر الرومانى (٢) . اما قبل ذلك فان الكتاب كان عبارة عن لفافه طويلة تتكون من عدد من الأوراق البردية التى لصق طرف كل واحدة منها الى طرف التى يليها وثبت عند كل من طرفى اللفافة قطعة من الخشب . واذا كنا نعرف كيف يسىء صغار التلاميذ الى كتبهم ومقدار التلف الذى يصيب الكتب المجلدة التى يستخدمها أبناؤنا كل يوم ، فانه من اليسير أن نتصور مصير لفافة طويلة مصنوعة من مادة هشة فى يد تلميذ مهمل أو عابث حتى اذا اكتفى بفتحها واعادة لفها لاستخدامها فى الفصل وفى الاستذكار ، وقاوم استخدامها فى أغراض أخرى لاتغيب عن فطنة القارىء . وازاء ذلك يعتقد « مارو » (Marrou) ان الكتاب المدرسى الذى عثر عيه فى مصر بحالة جيدة ويرجع الى أواخر القرن الثالث قبل الميلاد وقام بنشره « جيرو » و « جوجيه » (٣) لم يكن كتاب تلميذ حسب رأى الأستاذين الناشرين وانما كتاب لارشاد المدرس الى الخطوات النمطية فى تعليم القراءة والكتابة (٤) .

وتصور لنا المصادر المختلفة نشاط التلاميذ فى فصول الدراسة حتى لنكاد نسمع صغارهم يلثغون وهم يقرأون دروسهم ، ونرى البعض الآخر يعبثون بلوحاتهم (٥) ، والبعض يركنون الى الجهاد فى

---

(١) Cf. Schubart, Einfuehrung, pl. III.

(٢) Kenyon, Books and Readers in Ancient Greece and Rome, Oxford, 1932.

(٣) Guéraud-Jouguet, Un livre d'écolier du IIIe siècle avant J.C., 1938.

(٤) Marrou, op. cit., p. 216.

(٥) Herondas, III, 11-13, 18, 34.

سبيل كتابة أسمائهم وتاريخ اليوم (١) ، والبعض يختلسون لحظة تسهى فيها عنهم عين المدرس ليرتكبوا حماقة من حماقات الصغار (٢) .

واما غير المجدين من التلاميذ ـ زهداً فى العلم أو كرهاً للمدرس أو خوفا من بطشه أو ضيقا بطريقته غير المشوقة التى كان يزيد من ثقل وطأتها صرامة نظرته وسلاطة لسانه ولهيب عصاه أو سوطه ـ أما هؤلاء التلاميذ فانهم كثيرا ماكانوا يتعمدون ان يضلوا الطريق ويهربون الى ساحات الألعاب ، أو يتنزهون على ضفاف القنوات ، أو يقطعون الوقت فى مشاهدة قوافل التجارة وهى تغدو وتروح ، أو يذهبون الى الأسواق للاستمتاع بما يقع من المشادات الكلامية بين المارة الثرثارين أو بين الباعة والمشترين (٣) . فهروب التلاميذ من دور العلم ليس اذن بدعة وليدة مبتكرات التسلية الحديثة وتتحمل وزره دور السينما بما تقدمه من حفلات العرض الصباحية .

٦ ـ العطلات المدرسية

ولم يعرف النظام المدرسى عند الاغريق تخصيص يوم للراحة كل أسبوع ولا فترة معينة للعطلة كل عام . وليس معنى ذلك انه لم توجد أية عطلات على الاطلاق ، فقد كانت المدارس تعطل فى أيام الأعياد العامة وكذلك الأعياد الدينية (٤) . وفى مصر البطلمية كان أهم الأعياد العامة : عيد ميلاد الملك وعيد ارتقائه العرش ، وأهم الأعياد الدينية الاغريقية : الأعياد الخاصة بعبادة الملك بوصفه الها اغريقيا عاما والأعياد الخاصة بالاله الأكبر سرابيس وفيما يبدو أيضا الأعياد الخاصة بالالهة ديمتر ،

---

(١) Milne, J.H.S., 28, 1908, p. 126; Jouguet-Lefebvre, B.C.H., 28, 1904, p. 201.

(٢) Kenyon, loc cit.

(٣) Herondas, loc. cit.

(٤) Marrou, op. cit., p. 208.

اذ توحي القرائن بأن حرص اغريق مصر على اقامة الحفلات الخاصة بهذه الالهة • وكانت تسمي ديمتريا (Demetria)ـ لم يكن مقصورا على اغريق الاسكندرية (١) والفيوم (٢) بل كان يشمل الاغريق كافة حيثما نزلوا بين جنبات وادى النيل • ونتبين من أشعار هروندداس أنه فى خلال القرن الثالث قبل الميلاد كانت المدارس فى الاسكندرية تعطل فى اليوم السابع واليوم العشرين من كل شهر اجلالا للاله أبولو (٣) • وتحدثنا المصادر القديمة كذلك عن حفل البطوليمايا الذى انشأه بطليموس الثانى اجلالا لذكرى أبيه المؤله على نمط الحفلات الأولومبية أو الحفلات الأثينية الجامعة (٤) ، وكان يحج اليه السفراء والمتبارون من كافة أنحاء العالم الاغريقى ، مما يقطع بأنه كان من الأعياد العامة فى مصر • ويعطينا ثيوكريتوس (٥) صورة حية لاحتفاء الاسكندرية بعيد أدونيس (Adonis) وهو الذى أنشأه بطلميوس الثانى اجلالا لزوجته ارسينوى الثانية •

وقد ورد فى بردية مشهورة (٦) (Papyrus Halensis) ذكر ثلاث حفلات كانت تقام فى الاسكندرية وتؤلف المباريات الرياضية جزءا منها • أما الحفل الأول فلا نعرف اسمه بسبب تمزق ذلك الجزء من الوثيقة الذى ورد فيه الاسم ، ولكن المؤرخين يرجحون انه كان اجلالا لذكرى الاسكندر المؤله بوصفه مؤسس الاسكندرية • وأما الحفل الثانى فكان حفل الباسيليا (Basilea) ، وفى رأينا ان بطليموس الأول هو الذى

---

(١) P. Cairo Zen., I, 59028; Callimachos, Hymn VI; E. Cohen, Callimaque, 91; Cf. Bilabel, Die Graeko-Aeg. Feste, pp. 3-31, Neue Heidelberger Jahrb., Neue Folge, 1920.

(٢) P. Cairo Zen., I, 59027 = S.B. 6784.

(٣) Herond. 53-55.

(٤) Athen., V, 197 d; 198 b.

(٥) Theocs., XV, 110.

(٦) Pap. Hal., II. 262-3.

أنشأه تخليدا لذكرى اتخاذه لقب ملك • وأما الحفل الثالث فهو حفل البطوليمايا الذى سبقت الاشارة اليه •

ويحدثنا مصدر قديم (١) بأن الاسكندرية اعتادت طوال العصور القديمة على الاحتفال فى اليوم الخامس والعشرين من شهر طوبة (٢) كل عام بذكرى تأسيسها ، ففى هذا الموعد من كل عام كان الاسكندريون يزينون الحيوانات بالزهور ويقدمون القرابين لآلهة المدينة الحارسة (Agathoi Daimones) .

وليس هناك ما يدل على أن سلسلة الأعياد التى ذكرناها تستنفد كل أعياد الاسكندرية ، بل هناك ما يوحى بأنه كانت توجد أعياد أخرى للاسكندرية قاطبة ، فضلا عن الأعياد الخاصة مثل أعياد ميلاد التلميذ وأفراد أسرته الى جانب المناسبات الأسرية مثل الزواج وما الى ذلك • وبطبيعة الحال لم تنفرد الاسكندرية دون المدينتين الاغريقيتين الأخريين فى مصر ـ نقراطيس وبطوليميس ـ والجاليات الاغريقية المنتشرة فى طول البلاد وعرضها بأعياد محلية مماثلة الى جانب الأعياد الخاصة فضلا عن الأعياد العامة •

والى جانب هذا كله كان يخصص فى كل شهر يوم أو يومان للامتحانات ، وكانت الدراسة تعطل فى أيام الامتحانات • وهكذا يتبين لنا ان تلاميذ المدارس الاغريقية فى مصر شأنهم شأن زملائهم فى سائر أنحاء العالم الاغريقى ، كانوا يتمتعون بعدد وافر من أيام العطلة المدرسية • بيد أنه مهما يكن هذا العدد فانه لايدانى عدد أيام العطلة الأسبوعية والسنوية فضلا عن أيام العطلة فى المناسبات القومية والدينية التى يتمتع بها التلاميذ اليوم •

---

(١) Ps. — Callisthenes, I, 32.

(٢) راجع ابراهيم نصحى ، مصر فى عصر البطالمة ، الطبعة الثالثة ١٩٦٦ ، الثانى ص ٢٨٢ حاشية (٣) •

٧ - الامتحانات

ان المعلومات التى لدينا عن الامتحانات طفيفة جدا ، وكل ما يمكن استخلاصه منها هو ان الامتحانات كانت فيما يبدو نوعين : احدهما امتحانات عامة والآخر امتحانات خاصة • وكانت الامتحانات العامة عبارة عن عدة مسابقات عامة لتلاميذ المدارس • ويبدو أن كل مسابقة منها كانت تخصص لمادة بعينها من مواد الدراسة ، اذ نسمع عن مسابقات فى مختلف فنون الشعر ومسابقات فى الحساب ومسابقات فى الرسم ، وذلك فضلا عن مباريات فى الموسيقى ومباريات فى الألعاب الرياضية • وأما الامتحانات الخاصة فكانت عبارة عن اختبارات تعقدها المدارس شهريا لمدة يوم أو يومين فى مواد الدراسة المختلفة •

وقد كانت الدولة أو المدن أو الجماعات القومية هى التى تقيم المسابقات والمباريات العامة • وكانت هذه المسابقات والمباريات أفضل وسيلة تشرف بها هذه الهيئات على النشاط التعليمى وتتعرف عن طريقها على مدى جدية المدارس فى الاضطلاع بمهامها • وكان الفوز فى هذه المسابقات والمباريات خير شهادة ، بل الشهادة الوحيدة التى يحصل عليها التلاميذ •

الفصل الرابع

التعليم الابتدائى



كان المفروض أن يذهب التلميذ فى مرحلة التعليم الابتدائى الى ثلاث مدارس فى آن واحد : احداها للموسيقى وأخرى للتربية البدنية وثالثة للقراءة والكتابة • ذلك أن أفلاطون يحدثنا فى أحد مؤلفاته (١) بأن الصبى كان يرسل الى مدرس التربية البدنية عقب دروسه فى القراءة والكتابة والموسيقى • بيد أنه يتبين مما جاء فى المسرحية التى نقلها بلاوتوس (Plautus) الى اللاتينية عن مناندروس (Menandros) ـ وهو الذى توفى فى عام ٢٩٢ ق • م •) أنه كان يتعين على الصبية لذهاب الى الباليسترا قبل طلوع الشمس والا أنزل بهم مدرس التربية البدنية عقابا صارما ، وأنهم بعد ذلك كانوا يعودون الى البيت ومنه يذهبون الى المدرسة لتلقى دروسهم فى القراءة والكتابة تحت تهديد عصا المدرس (٢) • وقد ورد فيما كتبه الفيلسوف الكلبى « تلس » (Teles) عند منتصف القرن الثالث قبل الميلاد ان اليوم الدراسى كان يبدأ فى الصباح الباكر حتى فى الشتاء (٣) ، عندما كان التلميذ يضطر الى الذهاب الى مدرسته مستهديا بمصباح مربيه (٤) • ويتضح مما أورده الشاعر الرومانى لوقيانوس أن

---

(١) Plato, Protag., 326 b.

(٢) Plaut., Bacchides, ll. 424-34.

(٣) Teles ap. Stobaeum, 98, 72.

(٤) Rostovtzeff, Soc. Ec. Hist., Hell. World, pl. XXX, 2.

التلميذ كان يذهب أولا الى مدرسته لتعلم القراءة والكتابة ثم يذهب الى الباليسترا لممارسة الألعاب الرياضية قبل أن يعود الى بيته لتناول وجبة الظهيرة ، وانه بعد الظهر كان يذهب ثانية الى المدرسة لتلقي دروسه في القراءة والكتابة مرة أخرى (١) .

ويختلف الشاعران الرومانيان بلاوتوس ولوقيانوس مع أفلاطون من حيث اغفالهما ذكر الموسيقى ، وكذلك يختلف لوقيانوس مع أفلاطون وبلاوتوس من حيث ان نصيب دروس القراءة والكتابة فترتان عند الأول وفترة واحدة عند الثاني والثالث . ولا يبعد أن هذين الاختلافين لا ينمان عن التضارب بقدر ما ينمان عن التطور وكذلك عن الاختلاف بين اليوم الدراسي عند كل من الاغريق والرومان ، ولا سيما أن الرومان لم يعنوا بأمر الموسيقى قدر عناية الاغريق . وهذا يوحي بأن بلاوتوس في ترجمته أو على الأصح في اقتباسه مسرحية ماندروس أخذ في اعتباره ظروف البيئة المحلية في وطنه . ومع ذلك فان هذا لاينفي انه ازاء شدة اهتمام الاغريق في العصر الهلينيسي اهتماما مطردا بتعلم القراءة والكتابة ازداد التركيز على دروسها ، وكان ذلك بطبيعة الحال على حساب دروس الموسيقى والتربية البدنية .

ويرى « مارو » (Marrou) أن دراسة الموسيقى كانت لا تبدأ الا في المرحلة الثانوية وأنه في بداية العصر الهلينيسي كان نظام اليوم الدراسي يماثل ما أورده بلاوتوس ولكنه مع ازدياد الاهتمام بتعلم القراءة والكتابة أضيفت في الصباح دروس في القراءة والكتابة قبل ممارسة الألعاب الرياضية ، وهي التي قل الاهتمام بها باطراد (٢) . بيد أنه لما كانت الموسيقى من أخص السمات المميزة للحضارة الاغريقية ، وكان اغريق

(١) Lucian., Am., 44-45. Paras., 61.

(٢) Marrou, op. cit., pp. 207-8.

مصر ومن كانوا فى وضع مماثل شديدى الحرص على الحفاظ على الطابع المميز لهم ، وكانت القرائن توحى بأن أكثر التلاميـــذ كانوا لايتقلون الا التعليم الابتدائى ، فاننا نميل الى الاعتقاد بأن النظام الذى أورده أفلاطون وسبقت الاشارة اليه ظل متبعا فى العصر الهلينيسى مع ادخال بعض تعديلات عليه كان أهمها اضافة دروس فى القراءة والكتابة بعد الظهر عقب تناول وجبة الظهيرة وهى التى كانت تسبقها منذ الصـباح الباكر دروس خصص أكثرها بالتدريج للقراءة والكتابة وتبعـا لذلك أقلها للموسيقى والتربية البدنية .

ولما كنا قد تناولنا من قبل الموسيقى والتربية البدنية فاننا سنقتصر الكلام هنا عن تعليم القراءة والكتابة . ويبدو أن التلاميذ كانوا يبدءون بتعلم القراءة وكانت مهمة شاقة عسيرة تقتضى مجهودا كبيرا وتستنفد وقتا طويلا . وقد كان ذلك نتيجة طبيعية من ناحيـة لجهل المدرسـين بأصول التربية وطرق التدريس القويمة ، فأغفلوا اغفالا تاما مشاكل التلميذ النفسية ولم يبذلوا أى جهد لاثارة شغفه بما يقرأه ، ومن ناحية أخرى لافتقارهم الى الوسائل التوضيحية التى من شأنها أن تخفف العبء على التلميذ فى هـذه المرحلة الدقيقة من التعليم . وقد كانت القاعدة الأساسية هى الانتقال بالتدريج من البسيط الى المعقـد ومن الجزء الى الكل (١) ، ومن ثم فان التلاميـذ كانوا يبدأون بحروف الهجـاء فالمقاطع فالكلمات فالجمل فالفقرات (٢) ، وكانوا لاينتقلون من مرحلة الى أخـرى الا بعد استيعاب المرحلة السابقة استيعابا كاملا (٣) . ويبدو أن كل مرحلة من هذه المراحل كانت تشمل التدريب على القراءة والكتابة .

وقد كان أهم ما يعنى به المدرسـون هو ذاكرة التلاميـذ ، فقد كان

---

(١) St. August., Ord., II, 7 (24).

(٢) Dionys. Hal., Demos., 52.

(٣) Dionys. Hal., Comp. Lit., 25.

ينبغي عليهم قبل كل شيء ان ينقشوا في ذاكرتهم أسماء حروف الهجاء وترتيبها وكانت اربعة وعشرين حرفا • وللتأكد من ذلك كان يجب على التلاميذ ان يحفظوا أسماء الحروف بالترتيب من أولها الى آخرها ومن آخرها الى أولها ، دون أن يعرفوا فيما يبدو أشكالها ولا الأصوات التى تعبر عنها (١) • وبعد ذلك يعطون لوحات كتبت عليها حروف الهجاء مكبرة ومنظمة صفا تلو صف (٢) ليحفظوا شكلها ويتدربوا على تلاوتها أو انشادها جماعة قبل أن يمارسوا كتابتها • ومنذ القرن الخامس قبل الميلاد كان على التلاميذ أن يستظهروا أربعة أبيات شعرية تتضمن حروف الهجاء جميعا • وترجمة البيت الأول : « توجد ألفا وبيتا وجاما ودلتا وكذلك أيضا زيتا » •

ويبدو أنه بعد تدريب التلاميذ على قراءة الحروف تدريبا كافيا كانوا يتعلمون كيفية كتابة كل منها • ولعل أن المدرس كان يفعل ذلك بأن يرسم هو أولا الحرف مخففا ثم يمسك بيد التلميذ ليوجهها في المرور على الحرف ويكرر هذه العملية عدة مرات قبل ان يسمح للتلميذ بمحاولة رسم الحرف بمفرده (٣) • وعندما يحفظ التلميذ كيفية رسم الحرف بمجهوده الشخصى منفردا كان يستمر في المران على رسمه مرات عدة قبل الانتقال الى تعلم رسم حرف آخر وهكذا (٤) • فلا عجب أن التلاميذ كانوا يشعرون بالفخار ويشكرون الله ويثنون عليه عندما يحفظون حروف الهجاء قراءة وكتابة ، ولا أنه كان يحيط بهذه « العناصر الأولية » نوع من الرهبة الدينية يتمثل في الاعتقاد بأن حروف الهجاء كانت ترمز الى « عناصر الكون » وبأنه كانت توجد صلة بين الحروف السبعة المتحركة وبين الملائكة السبعة الذين كانوا يحرسون الكواكب السبعة • وقد كان الاغريق يصنعون التمائم والتعاويذ

---

(١) Quint., I, 1, 25; J.H.S., 28, 1908, p. 121.

(٢) Ann. Br. Sch. Athens, 12, 1905-6, p. 476 n. 38.

(٣) Plato, Protagoras, 326 d; Seneca, Ep., 94, 51.

(٤) Ziebarth, op. cit., No. 48.

على هيئة حروف الهجاء لاعتقادهم بأنها ـ وقد كانت لديها تلك القوة العجيبة على الأعراب عن أفكار الانسان ـ كانت حافلة بقدرة سحرية غامضة (١) •

وبعد أن يفرغ التلميذ تماما من مرحلة الحروف قراءة وكتابة كان ينتقل الى مرحلة المقاطع بادئا بالمقاطع المكونة من حرفين فيلقن قائمة طويلة من المقاطع المكونة من اضافة كل حرف من الحروف السبعة المتحركة الى كل حرف من الحروف السبعة عشر الساكنة وفقا لترتيب كل حرف من حرفى المقطع (٢) • ويبدو انه كان لا يكتفى بالتدريب على قراءة المقاطع فحسب ، بل كان يتعين أولا نطق اسم كل حرف من حرفى المقطع على حدة قبل نطقهما معا (٣) • وكان التلاميذ لا يفتأون يكررون ذلك فى كل مقطع الى حين صدور الأمر لهم بالانقضاض على المقطع التالى فيعالجونه أو يعاجلونه بالطريقة نفسها وهكذا حتى يأتوا على هذه المقاطع جميعا •

وبعد اتقان المقاطع المكونة من حرفين كان التلاميذ يلقنون قائمة طويلة من المقاطع المكونة من ثلاثة حروف (٤) قبل أن ينتقلوا الى قائمة أخرى من المقاطع المكونة من أربعة حروف (٥) متبعين فى التدريب على قراءة مقاطع هاتين القائمتين الطريقة نفسها التى اتبعت فى التدريب على قراءة المقاطع ذات الحرفين •

وكان يتبع التدريب على قراءة كل قائمة من قوائم المقاطع التدريب على كتابتها • ويتبين من البرديات وكسر الفخار ان التلاميذ كانوا يستنفدون قدرا كبيرا من الجهد والوقت وأدوات الكتابة فى المران على الكتابة •

---

(١) Marrou, op. cit., p. 211.

(٢) Quint., I, 1, 30; Guéraud-Jouguet, op. cit., 1-8; U.P.Z., 1, 147, 1-18.

(٣) Athen., X, 453 C D.

(٤) Guéraud-Jouguet, op. cit., 9-15.

(٥) Guéraud-Jouguet, op. cit., 16-18; U.P.Z., 147, 19-29.

وعندما يستوعب التلاميذ المقاطع استيعابا كاملا كانوا يتقدمون خطوة بعد أخرى في مرحلة الكلمات ، ذلك أنهم كانوا يبدأون أولا بالكلمات المؤلفة من مقطع واحد (١) ، فالكلمات المؤلفة من مقطعين (٢) ، فالكلمات ذات الثلاثة مقاطع ، فالكلمات ذات الأربعة مقاطع ، فالكلمات ذات الخمسة مقاطع (٣) .

ويتبين من البرديات أولا : أن قوائم الكلمات التي كانت تتكون من مقطع واحد وتدرس في المدارس كانت تتألف من مزيج عجيب من الكلمات بعضها أسماء أشياء مألوفه في الحياة اليومية ، وبعضها أسماء نادرة يبدو أنها اختيرت لصعوبة قراءتها وكتابتها . وثانيا : أن قوائم الكلمات ذات المقاطع المتعددة كانت تتألف من أسماء الأعلام التي نصادفها في أشعار هومروس بوجه خاص ، ومن أسماء آلهة وأنهار وشهور السنة (٤) .

وهكذا كان المدرسون يجمعون الى جانب الكلمات العادية المألوفة في الحياة اليومية الكلمات النادرة الغريبة .

واذا كان من الجائز تفسير اختيار بعض هذه الكلمات بأنه كان من قبيل اعداد التلاميذ قبل الأوان لقراءة الشعراء ، فان اختيار بعضها الآخر لا يمكن تفسيره الا بصعوبة نطقها وكتابتها . ولم يقف الأمر عند هذه المفردات الغريبة بل كانت تكون منها عبارات سقيمة يصعب نطقها بقدر ما يتعذر فهم معناها ، وليس لها ما يبررها الا أن كل عبارة منها تتألف من كل حروف الهجاء الأربعة والعشرين دون تكرار حرف واحد منها (٥) .

---

(١) Guéraud-Jouguet, op. cit., 27-30; P. Bouriant, I, 1-12.

(٢) Guéruad-Jouguet, op. cit., 67.

(٣) Guéarud-Jouguet, op. cit., 68-114; P. Bouriant, I, 13-140; J.H.S., 28, 1908, 122, 2.

(٤) Guéraud-Jouguet, op. cit., 38-47; 58-66; Collart, Chron., 1935, ·dd 498-500.

(٥) Wessely, Studien, II, XLV, 2.

وكان التلاميذ يدربون على قراءة هذه العبارات بأقصى سرعة ممكنة لأنه كان مفروضا أنها تساعد على المنطق السليم واقالة اللسان من عثراته (١) ٠

وبعد اجتياز كل هذه الحواجز والموانع كان التلاميذ يدربون على قراءة وكتابة جمل ثم فقرات قصيرة ٠ وفى بداية هذه المرحلة كانت تستخدم نصوص شطرت فيها الكلمات الى مقاطعها المنفصلة ، وبعد ذلك كانت تستخدم نصوص عادية ٠ وقد كانت قراءة النصوص العادية أمرا شاقا عسيرا على الصبية ، وذلك لعدم وجود أى نوع من أنواع الفواصل ، سواء بين الجمل أو العبارات أو حتى بين كل كلمة وأخرى (٢) ٠

وقد كان يستخدم لهذا الغرض بعض القصص المشهورة وبعض الحكم والأقوال المأثورة (٣) ٠ واذا كان بعض هذه الأقوال مناسبا للمقام مثل « الاجتهاد منجاة من العقاب » فان بعضها الآخر كان غير مناسب لصبية فى هذه السن الباكرة ، كالأقوال التى سبق ذكرها مثل « البحر والنار والمرأة ثالوث مزعج » ٠ وكان التلاميذ يعطون أيضا بعض الأحاجى مثل : ما هو ذو الأربع الذى لا ينشط فى النهار غالبا ؟ وما هو ذو الأربع الذى لا يعيش على الأرض ؟ وما هو الطائر الذى يرضع أولاده ؟ (٤) ٠

وكان التلاميذ يقرأون أيضا مختارات أدبية لم يقتصر فيها على أشعار شاعر بعينه وان كان هومروس يحتل مكان الصدارة ويجىء يوريبيديس من بعده ثم يأتى شعراء آخرون فى المؤخرة (٥) ٠ وازاء تكرار ذات القطع فى مختلف كتب المطالعة وكذلك فى مقتطفات المؤلفين يبين ان التقاليد أو على

---

(١) Quint, I, 1, 37.

(٢) Marrou, op. cit., p. 214, 217-8.

(٣) P. Teb. 278; P. Berlin Erman-Krebs, p. 233; P. Bouriant, I, 141-166; P. Hibeh, 17.

(٤) Collart, Mel. Maspero, II, 293.

(٥) Collart, Chron., 1935, pp. 502-4; Cf. Guéraud-Jouguet, op. cit., pp. 115-39.

الأصح أن ذات طرق التدريس الرتيبة المتكررة أضفت على قطع بعينها من الشهرة ما جعل أبناء جيل بعد جيل يدرسونها ويستوعبونها وبذلك أصبحت الأساس المشترك الذى بنى عليه المتعلمون فى كل جيل ثقافتهم الشعرية (١). واذا كان للشعر نصيب كبير من هذه المختارات ، فانها كانت تشمل كذلك مختارات نثرية من كتب أدبيــة مثل خرافات ايسوب بوجه خاص ، ومن مؤلفات الفلاسفة مثل أفلاطون (٢) .

وحتى أواخـر العصر الرومانى كان التلاميـذ يدربون على قراءة المختارات بصوت مرتفع فأصبحت القراءة بصوت جهورى هى العرف السائد بين الناس حتى عندما كانوا يقرءون لأنفسهم أو يستخدمون تابعا ليقرأ لهم . اما القراءة بصوت خفيض أو فى السر فانهــا لم تكن الا من قبيل الاستثناء الذى يثبت القاعدة (٣) .

وكان التلاميذ لا يدربون فقط على قراءة المختـارات بصـوت عال ، وانما يكلفون أيضا بنسخها وحفظها عن ظهر قلب (٤) . ويبين أن المبتدئين على الأقل كانوا يترنمون بالكلمات فيلقونها مقطعا مقطعا (٥) . وبمقارنة كتب المطالعة التى كانت مستخدمة فى مدارس القرن الثالث قبل الميلاد (٦) بكتب المطالعة التى كانت مستخدمة فى مدارس القرن الرابع بعد الميلاد (٧) يتبين انه فى خلال فترة امتدت نحوا من ستة قرون لم تطرأ الا تعديلات طفيفة على طرق التدريس ومناهج الدراسة (٨) .

---

(١) Guéraud-Jouguet, op. cit., pp. XXIV — XXXI; Marrou, op. cit., p. 214.

(٢) e.g. Wilcken, Ostraka 1226, 1310; Thompson, Proceed. Soc. Bibl. Arch., 34, 1912, 197; P.S.I. 1093; P. Bouriant, I, 141 ff.

(٣) Marrou, pp. 214-5.

(٤) Callimachos, Epig. 48.

(٥) Herondas, Didask., 30-36.

(٦) Guéarud-Jouguet, Un livre d'écolier...

(٧) P. Bouriant, I.

(٨) Cf. Marrou, op. cit., p. 215.

ولما كان كثيرون من التلاميذ الذين يغشون مدارس المرحلة الابتدائية لا أمل لهم فى متابعة الدراسة بعد الانتهاء من هذه المرحلة ، وكان كل ما يأملون فيه هو أن يشغلوا وظيفة كتابية سواء فى خدمة الحكومة أو فى خدمة رجل من رجال الأعمال أو أن يصبحوا فى عداد الكتبة العموميين ، وكان المدرسون يدركون هذه الحقيقة ويقدرون مدى أهميتها عند التلاميذ وذويهم ، فانهم كانوا يدربون تلاميذهم على نسخ صور العقود والخطابات الرسمية (١) • ويبدو أن ذلك كان باعثا لهم على حث التلاميذ وتشجيعهم على اجادة الكتابة ، فقد كانوا يمنحون جوائز للذين يتفوقون على اقرانهم فى هذا المجال •

ولم يكن التعليم الابتدائى مقصورا على الآداب اذ لا شك فى أنه كان يشمل كذلك دروسا فى التاريخ والجغرافيا لكنه لما كانت هاتان المادتان تدرسان شفويا فانه يتعذر علينا ان نعرف كيف كانتا تدرسان ، ولا أى كتب من كتب التاريخ والجغرافيا كانت تستخدم فى المدارس • ولايبعد ان التلاميذ كان يعطون ولو فكرة عامة على الأقل عن أشهر الحكام والمشرعين والمصورين والمثالين والمعماريين والمهندسين وأمناء مكتبة الاسكندرية وعجائب الدنيا السبع وأسماء البحار والجزر والبحيرات وأكثر الجبال ارتفاعا وأعظم الأنهار طولا (٢) •

وكان للحساب نصيب محدود من عناية التعليم الابتدائى • وبطبيعة الحال كان التلاميذ يبدأون بتعلم الأرقام ومعرفة الفردية منها والزوجية (٣)• وكان الاغريق يعبرون عن الأرقام بحروف الهجاء الأربعة والعشرين مع اضافة ثلاثة رموز أخرى ليصبح المجموع سبعة وعشرين رمزا كانوا يقسمونها ثلاث مجموعات : الأولى للآحاد والثانية للعشرات والثالثة

(١) Collart, Chron., 1935, p. 499.

(٢) Collart, op. cit., pp. 504-6.

(٣) Ziebarth, Ant. Schule, No. 51; J.H.S., 28, 1908, 131, 16.

للمئات (١) • وكان التلاميذ يتعلمون ذلك في الوقت الذى كانوا يتعلمون فيه قراءة المقاطع (٢) •

ويظن ان تلاميذ المدارس الابتدائية كانوا يتعلمون طريقة العد على الأصابع (٣) ، وكانت تختلف اختلافا بينا عما نقصده بذلك ، فقد كانت طريقة معقدة لها قواعد دقيقة يستطيع الانسان بفضلها أن يعبر بيديه عن أى عدد صحيح ابتداء من الواحد حتى المليون • وبيان ذلك أن الثلاثة الأصابع الأولى فى اليد اليسرى كانت تعبر عن الأعداد من ١ الى ٩ تبعا لمدى ثنيها تجاه راحة اليد ، على حين أن الابهام والسبابة فى هذه اليد كانا يعبران بأوضاعهما عن العشرات • وبالطريقة نفسها كانت أصابع اليد اليمنى تستخدم للتعبير عن المئات والآلاف ، وأما العشرات والمئات من الآلاف فانه كان يعبر عنها حسب وضع اليد اليسرى أو اليمنى بالنسبة الى الصدر أو السرة أو عظم الفخذ ، على حين أن المليون كان يعبر عنه بضم اليدين مع تشابك أصابعهما •

وبعد ذلك كان التلاميذ يلقنون سلسلة من التربيعات المبسطة مثل ٢ × ٢ = ٤ ، ٣ × ٣ = ٩ ، ٤ × ٤ = ١٦ ثم قائمة بأجزاء وحدات القياس والعملة : الفدان (الارورة) ، والدراخمة • ودراسة أجزاء هذه الوحدات تعتبر اعدادا للحياة العامة أكثر منها حسابا بأدق معنى الكلمة ، أى أن شأنها كان شأن التدريب على نسخ صور العقود والخطابات الرسمية ، فهى اذن تنهض دليلا آخر على أنه كان دائما فى خاطر مدرسى المدارس الابتدائية مستقبل تلاميذهم الذين لن يتابعوا الدراسة بعد هذه المرحلة •

---

(١) P.S.I., 250; Preisigke, SB., 6215

(٢) Guéraud-Jouguet, op. cit., 21-26.

(٣) Marrou, op. cit., pp. 219-20, No. 9. pp. 517-8.

ويستوقف النظر ما توحي به الأدلة من أنه حتى المسائل الحسابية البسيطة التي يألفها أبناؤنا اليوم في مرحلة التعليم الابتدائي ـ مسائل الجمع والطرح والضرب والقسمة ـ كانت بعيدة عن أفق المدارس الابتدائية في العصر الهلينيسي ، مما يدل الى أي مدى كانت دراسة الحساب محدودة في هذه المدارس • وتدل كثرة استخدام جداول الجمع والآلات الحاسبة على عجز كثرة كبيرة من الناس عن الجمع • ومما له دلالة بالغة أن هذه الحال استمرت امدا طويلا بعد العصر الهلينيسي ولم تكن مقصورة على غير المتعلمين فقط •





الفصل الخامس

التعليم الثانوي



اذا كانت الدراسة الثانوية فى العصر الهلينيسى قد تأثرت بالفكرة التى نادى بها الرياضى هيبياس منذ القرن الخامس قبل الميلاد وظفرت بتأييد أفلاطون وأيسقراط وهى القائلة بأن دراسة الرياضيات تدريب ممتاز للعقل ، ومن ثم كانت دراسة الرياضيات جزءا من المنهج الدراسى فى هذه المرحلة من التعليم ، فانه بالرغم من كل جهود أفلاطون ظلت الثقافة الهلينيسية وفية للتقاليد القديمة ، اذ أن دراسة الآداب - وبخاصة الشعر - ظلت عمادها الرئيسى . وقد كانت النتيجة الطبيعية لذلك أن الدراسات الأدبية حظيت بنصيب الأسد فى التعليم الثانوى ، وأن هذا التعليم لم يكن معنيا بتنمية ملكة التفكير قدر عنايته بنقل التراث الأدبى من جيل الى جيل .

١ - الآداب :

ومما يجدر بالملاحظة أن الحضارة الهلينيسية وجدت لديها تراثا هائلا من جلائل الأعمال التى ابتكرتها عبقريات فذة تكاتفت عوامل مختلفة على ظهورها فى فترات معينة . وقد سيطرت هذه الأعمال على مخيلة أبناء العصر الهلينيسى سيطرة جعلتهم لا يستشعرون الحاجة الى الابتكار والأصالة بقدر ما يستشعرون الاعتزاز والفخار بما ورثوه من كنوز الماضى ، مما حدا بهم الى اتخاذ تلك الأعمال أساسا لمعيار حضارتهم ، وجعل التعمق فى دراستها هدفهم الذى لا يدانيه هدف آخر . واذا كانت التقاليد الدراسية

القديمة قد تمخضت عنها قوائم بشخصيات عظيمة من رواد الفكر القدماء ، فانه بعد الفحص والدراسة وضع جهابذة العصر الهلينيسى قوائم ثابتة اعترف بها فى كل مكان ، وكانت تشمل عشرة من كل فئة من فئات خطباء أثينا والشعراء والفلاسفة والمؤرخين والمصورين والمثالين ... الخ (١) •

ولما كان يتعذر دراسة كل أعمال هؤلاء العباقرة اما لكثرتها الطاغية أحيانا واما لعدم تناسب بعضها للدراسة فى المدارس أحيانا أخرى ، فقد وضعت كذلك قوائم بأنسب تلك الأعمال للدراسة فى المدارس • ويظهر أثر ذلك جليا فيما عثر عليه من البرديات ، فمن بين المسرحيات الأربع والأربعين التى ألفها اريستوفانس واستمتع بها القدماء لم تصل الينا الا احدى عشرة مسرحية كان قد نشرها مدرس حوالى عام ١٠٠ بعد الميلاد بعنوان « مسرحيات مختارة للمدارس » • وكذلك من كل العدد الضخم من المسرحيات التى ألفها كل من أيسخولوس وسوفوكليس ويوريبيديس لم تصل الينا الا المسرحيات التى كانت قد اختيرت من مؤلفات كل منهم لدراستها فى المدارس ، وعدد هذه المسرحيات المختارة سبع لكل من الأول والثانى وعشر للثالث (٢) •

ولما كان الشعر ربيب الحضارة الاغريقية منذ بزوغ نجمها ، فان مدارس العصر الهلينيسى اختصته بمكان الصدارة فى مناهجها • وقد كانت أشعار هومروس تأتى فى الطليعة وظلت تحتل دون منازع المكان الأول فى قلوب الناس وفى مناهج الدراسة أمدا طويلا الى ما بعد العصر الهلينيسى بعدة قرون • وهل هناك دليل على ذلك أبلغ من أن كثيرا من المدن فى

---

(١) J. Cousin, Etudes sur Quintilien, vol. I, Contribution à la Recherche des Sources de l'Institution Oratoire, Paris, 1935, pp. 565-570; Marrou, op. cit., p. 225.

(٢) V. Coolon, Aristophane, Introd., pp. X-XI; P. Mazon, Eschyle, Introd., pp. XIV-XV; P. Masqueray, Sophocle, Introd., P. XIII; L. Méridier, Euripide, Introd., p. XX.

وهذه المؤلفات جميعا منشورة فى مجموعة المطبوعات الفرنسية الشهيرة (Collection Bude)

مختلف أرجاء العالم الاغريقي كانت تعتز بأن يكون لكل منها « طبعتها » الخاصة من الالياذة (١) ! وقد عثر في مصر على برديات ولوحات للكتابة وكسر من الفخار تحتوى على مئات من أشعار هومروس (٢) • ويستوقف النظر انه قلما خلت مواد الكتابة التى عثر عليها فى مصر من أشعار هومروس • حقا انه لايمكن القول بأن كل ما عثر عليه كان من مخلفات المدارس ، لكن عدد ما يمكن وصفه يقينا على هذا النحو يبلغ من الكثرة بحيث يجعلنا نقطع بأن مكانة هومروس فى التعليم بمصر كانت تعادل مكانته فى التعليم فى أى مكان آخر فى العالم الاغريقى • واذا كان أكثر ما عثر عليه من مخلفات التلاميذ الاغريق ، فلابد من أن بعضه كان من مخلفات التلاميذ المصريين الذين اقبلوا على التعليم الاغريقى •

وتكشف لنا البرديات كذلك عن مدى تباين الاهتمام لا بالالياذة والأوديسا فحسب بل بمختلف أجزائهما أيضا • فقد كان الفلاسفة يعتبرون الأوديسا أهم من الالياذة ، على حين أن رجال الأدب وبوجه خاص المدرسين كانوا يفضلون الالياذة • فلا عجب أن كانت البرديات تحتوى من أشعار الالياذة ضعف ما تحويه من أشعار الأوديسا مرتين أو ثلاث مرات • ولما كانت بعض أجزاء الالياذة تتكرر فى البرديات أكثر من غيرها ، فانه يبدو ان تلك الأجزاء المتكررة كانت أحب الى الناس من غيرها • ومما يجدر بالملاحظة أن هذه الأجزاء التى كانت محببة الى القدماء لا تزال حتى اليوم تطبع بمفردها من أجل طلبة المدارس فى البلاد الغربية (٣) •

والى جانب هومروس من شعراء الملاحم كان التلاميذ يدرسون كذلك

---

(١) Cf. Chantraine, Apud P. Mazon, Introd. à l'Iliade, Paris, 1942, pp. 23-25.

(٢) Oldfather, The Greek Literary Texts from Graeco-Roman Eg., University of Wisconsin Studies in the Social Sciences and Hist., 9, Madison, 1923, pp. 66-70; P. Collart, ap. Mél. Desrousseaux, pp. 76-79; et ap. Mazon, Introd. à l'Iliade, pp. 59-60; Cf. Schwartz, Papyrus Homériques, Bull. Inst. Fr. Arch. Or., XLVI, pp. 29-71.

(٣) Marrou, op. cit., p. 227.

من الشعراء القدامى هسيودوس ، ومن الشعراء المحدثين كثيرين مثل خويريلوس (Choerilus) صديق المؤرخ هرودوتوس وصاحب ملحمة مشهورة عن الحروب الفارسية وانتصار أثينا فيها ـ وبوجه خاص الشاعر الاسكندرى الفحل ابولونيوس وكانت أعظم قصائده ملحمة طويلة تعرف باسم ارجوناوتيكا (١) (Argonautica).

وقد كان الشعر الغنائى لا يزال فى العصر الهلينيسى يكون جزءا أساسيا من المنهج الدراسى ، فكان التلاميذ يدرسون عندئذ قصائد أبرز مؤلفى هذا اللون من الشعر سواء من القدامى مثل الكمان (Alcman) والكايوس (Alcaeus) وسافو (Sappho) وبينداروس ، أم من المحدثين مثل الشاعر الاسكندرى كاليماخوس .

وفضلا عن ذلك كله فان التلاميذ كانوا يدرسون المسرحيات سواء أكانت من التراجيديا أم من الكوميديا . وقد كان يوريبيدس يحتل فى المنهج مكانة لا يدانيها أحد من أترابه ثم يأتى وراءه عن بعد ايسخولوس وسوفوكليس . وفى دراسة الكوميديا كانت مكانة مناندروس تعادل مكانة يوربيديس فى دراسة التراجيديا ، أما أريستوفانيس فانه لم ينتزع مكانة مناندروس الا فى أواخر العصر الرومانى . والى جانب فطاحل المؤلفين الذين طبق صيتهم الآفاق كان التلاميذ يدرسون عددا من المؤلفين الآخرين الذين كانوا أقل شهرة .

واذا كانت مدارس العصر الهلينيسى قد اختصت الشعر بمكان الصدارة فى مناهجها ، فانها مع ذلك أفسحت أيضا للنثر مكانا ، وان كان شديد التواضع . وكانت دراسة النثر فى المدارس تقوم أساسا على دراسة المؤرخين هرودوتوس وكسنفون وهيلانيكوس وقبل كل شىء توكيديديس ، وهو

---

(١) Cf. Oldfather, op. cit., pp. 4 ff.; Marrou, op. cit., p. 227, No. 9 pp. 521-2.

صاحب تاريخ الحرب البلوبونيزية ، وأعظم مؤرخى العصور القديمة قاطبة الذى لم يرق الى مستواه منذ أن كان هناك مؤرخون الى اليوم الا قلة قليلة جدا •

ولا سبيل الى الشك فى ان أى اغريقى خليق بأن يعتبر مثقفا لم تفته قراءة مؤلفات الخطباء وبوجه خاص دموستنيس الذى طغت مكانته حتى على مكانة أيسقراط لكنه يبدو ان دراسة هؤلاء الخطباء كانت ترجأ عادة الى مرحلة التعليم العالى •

وقد بقى أن نتناول كيفية دراسة فروع الأدب الكلاسيكى التى كان المنهج الدراسى يتضمنها • ولما كان عالم المدرسة الصغير وثيق الصلة بعالم الثقافة الكبير ، فقد كان طبيعيا أن يتأثر تدريس الآداب بما أحرزه فقه اللغة من تقدم هائل يعتبر من أبرز سمات الحضارة الهلينيسية • ومع ذلك فانه يجب عدم المبالغة فى تأثير كبار فقهاء الاسكندرية ـ زنودوتوس واريستوفانيس البيزنطى واريستارخوس ـ على الثقافة بوجه عام وعلى المدارس بوجه خاص • ذلك أنه يتبين من كل مخطوطات الالياذة والأوديسا أنه لم يؤخذ بآراء هؤلاء العلماء الأفذاذ فى نقد النصوص وتحقيقها ، وأن التقاليد الأدبية الاغريقية كانت محافظة أشد المحافظة فقاومت كل جهودهم لاستبعاد الأبيات التى كانوا يعتبرونها دخيلة على أشعار هومروس • ويبدو كذلك أن آراءهم فى النقد الأدبى لم يكن لها الا صدى خافت فى الوسط المدرسى لأنه اذا كان من الجائز ان نلمس بعض آثارها فيما دونه الشراح من الحواشى فى المخطوطات أو البرديات التى وصلت الينا (١) ، فان هذه الحواشى تتسم بطابع علمى كان أعمق من أن يجعلها مجدية لمعلمى المدارس الثانوية • ولعل أن الرواقيين الذين وجهوا عناية كبيرة ـ وبوجه خاص

---

(١) P. Oxy., 1086-1087.

منذ أيام خروسيبوس – الى تعليم كيفية دراسة هومروس ، كانوا أبعد أثرا من الفقهاء (١) •

وازاء ما اتسم به المتأدبون من الميول المحافظة والاصرار على ان يضمنوا ثقافتهم التراث الاغريقي كاملا ، فانهم كانوا لا يعنون بتنقيح نصوص هومروس وفقا لما يعن لفقيه أو آخر من آراء نظرية قدر عنايتهم بتفسير النصوص الموجودة بحالها • ولذلك فانهم بدلا من البحث عن أشعار يمكن اعتبارها معيبه أو زيوفا يجب حذفها ، كانوا يصرفون جهودهم الى محاولة فهم النصوص وتبرير حادث بعينه أو تفصيل بعينه وان اقتضى ذلك استخدام كل أساليب الجدل الصوري •

وقبل ان يبدأ التلاميذ دراسة النصوص كان المدرس يعطيهم ملخصا لما سيدرسونه أو فكرة عامة عنه (٢) ، سواء أكان قصيدة أم مسرحية • ويبدو انه عند شرح قصائد الملاحم كان المدرس يستعين بلوحات حائطية وكانت لوحات صغيرة تصور بالنقش البارز أهم ما في قصص الأبطال من أحداث وتتضمن عناوين وعبارات قصيرة للتعرف بفضلها على المناظر والشخصيات • ويوجد في المتاحف عدد من هذه اللوحات(٣) ، وهي تصور أحداثا من الالياذة وكذلك من قصص بطولية أخرى كالقصص الخاصة بأعمال هرقل الكبيرة •

وقد كانت الخطوة التالية خطوة عملية ضرورية أملتها مقتضيات الأحوال في العصور القديمة • فاليوم بفضل المطابع ومختلف وسائل الاستنساخ يمكن الحصول على أي عدد من النسخ المتماثلة لأي كتاب أو نص ، على حين أن مهمة تحقيق النص يتولى أمرها المختصون • وأما في

(١) Marrou, op. cit., p. 229.
(٢) Plut., Aud. Poet., 14 E.
(٣) Cf. Daremberg-Saglio. Dict. Antiq., s.v. Illiacae; Pauly-Wissowa-Kroll, Realencycl.

العصور القديمة فانه لم توجد الا مخطوطات وقلما كانت توجد نسختان متماثلتان لنص بعينه • ولذلك كان أول واجبات المدرس أن يقارن نسخ تلاميذه بنسخته ويصحح تلك النسخ لتطابق نسخته (١) •

وبعد ذلك كانت تبدأ دراسة المؤلف بقراءته قراءة تعبيرية (٢) ، تنم عن معنى النص وطابعه العام وأوزان أشعاره • ولم تكن هذه المرحلة بالسهولة التى قد تتبادر الى الذهن لأول وهلة ، ذلك أنه كما سبق أن أشرنا كانت الكتب مخطوطة باليد ، ولم تكن هناك فواصل حتى بين الكلمات ولا شارات للوقف أو الاستفهام أو التعجب • ويمكننا ادراك مدى الصعوبة التى كان التلميذ يواجهها فى هذه المرحلة عندما نتبين أنه كان عليه أن يفصل الكلمات والعبارات والجمل بعضها عن البعض ، وأن يشطر الأشعار وفقا لقواعد العروض وأوزانه ، وأن يميز بنبرات صوته الأسئلة ومواضع التعجب والجمل الاخبارية • فلا عجب اذن أن كانت قراءة أية قصيدة قراءة صحيحة سليمة تقتضى دراسة النص دراسة واعية واعداده اعدادا دقيقا • ونجد فى مخلفات التلاميذ بعض أمثلة لهذا النوع من الاعداد ، اذ أننا نرى فى هذه المخلفات العلامات التى استخدمها التلاميذ لفصل الكلمات والأبيات وكذلك لتقسيم الكلمات الى مقاطع من أجل التشطير (٣) • وبطبيعة الحال كانت دراسة النص على هذا النحو تجعل استظهاره أمرا ميسورا ، وتوحى القرائن بأنه فى المدارس الثانوية ، كما فى المدارس الابتدائية ، كان استظهار النص يسبق تلاوته •

وبعد ذلك كانت تأتى المرحلة التى يتضح فيها أثر الدراسات الفقهية فى الثقافة الأدبية وفى تدريس الآداب • وكانت هذه المرحلة تعتبر مرحلة رئيسية فى دراسة النص ، ولذلك كانت تحظى بأكبر قسط من العناية

---

(١) Marrou, op. cit., p. 230; Saint Augustin, pp. 21-23.

(٢) Dionys. Thrax., Gram., 2-3.

(٣) P. Berl., 13839; Schubart, Einführung, pl. III, 3; Philologus, 1905, 146, 2; Cf. Diog. Laer., I, 57.

اذ أنها كانت تتناول أولا تفسير المعنى الحرفي للألفاظ وبعد ذلك المعنى الادبى المنزن (١) • ولما كان شعراء الاغريق يميلون الى استخدام الفاظ عتيقة بائدة ، فان التلاميذ كانوا يصادفون صعابا جمة ولا سيما فى أشعار هومروس • وقد كان أول واجبات التلميذ فى هذه المرحلة اعداد قائمة تتضمن مفردات هومروس ومرادفاتها المعاصرة وحفظ معانى المفردات الهومرية (٢) • وكان القدماء يعلقون على الالمام بلغة هومروس أهمية كبيرة الى حد أنهم يعتبرون ذلك أولى سمات الرجل المتعلم • ولم يقف الأمر عند معرفة معانى الكلمات بل كان يتعداه الى دراسة تركيب الكلمات وكيفية اشتقاقها واعرابها وتكوين الجمل وأساليب التعبير الشعرية بما فيها من تشبيهات واستعارات وكنايات (٣) •

وقد كان ادخال النحو والصرف فى المنهج الدراسى من أبرز الأمثلة الدالة على نزوع التعليم نحو مسايرة ركب التقدم العلمى وتطوره • وقد كان علم النحو والصرف ثمرة مجهود طويل بدأه بروتا جوراس وثابر فيه أفلاطون وأتباعه • ويعتبر ازدهار هذا العلم من مفاخر العصر الهلينيسى وخير ما ينم عن اتجاهاته الفكرية التى تتسم بالنقد والتحليل أكثر منها بالابداع والابتكار • وقد كان للاسكندرية جهد كبير فى هذا المجال توجه أحد أبنائها ــ ديونوسيوس الترافى ، تلميذ العالم الاسكندرانى أريستارخوس ــ بصياغة نتائج كافة الأبحاث السابقة على هيئة قواعد اللغة الاغريقية ونشرها فى القرن الأول قبل الميلاد فى كتاب (٤) (Techne Grammatike) اكتسب شهرة واسعة وتأثر به واضعو قواعد اللاتينية ، وعن طريقهم واضعو قواعد أغلب اللغات الأوروبية •

---

(١) Schol. Dionys. Thrax, 10, 9.

(٢) P. Oslo, 12; Berl. Erman-Krebs, 232.

(٣) Marrou, op. cit., pp. 231-2.

(٤) Ed. by Uhlig in Teubner's Grammat. Gr. Scholia; Cf. Oxford Class. Dict. s.v. Dinonysios Thrax, Grammar, Grammarians.

وكانت تلى ذلك دراسة ما أطلق المدرسون الاغريق عليه « القصة » (Historikon) • وكان يقصد بذلك المضمون بكل ما يرد فيه من أشخاص وأماكن وأزمنة وأحداث • وقد تفنن بعضهم في تنظيم هذه الدراسة بحيث تعددت أقسامها وفروع هذه الأقسام • فقد كانت القصة عند بعضهم تنقسم الى ثلاثة أنواع : قصة حقيقية وقصة ممكنة وقصة خيالية ، وكانت القصة الحقيقية تنقسم الى شخصيات وأزمنة وأماكن وأعمال • وهنا يتبين لنا أن ما كان تلميذ المدرسة الابتدائية يلقنه من قوائم بأسماء الآلهة والأبطال والأنهار المستمدة من الآداب كان اعدادا مبكرا مقصودا لدراسة عيون الأدب الاغريقي (٢) •

ويستوقف النظر أنه حتى في مرحلة التعليم الثانوى كانت العناية تظل مركزة على المعلومات أكثر منها على الأفكار والمشاعر ، فقد كان أهم ماينتظر من التلميذ النابه أن يعرفه من الأشعار التي قرأها : من كان هذا أو ذاك الشخص ، أو ماكان هذا أو ذلك المكان ، أو ما كانت الالهه المحببة مثلا الى قلوب الطرواديين ، أو من كان ملكهم ، ومن كان قائدهم ، ومن كان رسلهم •

وقد كانت الدراسة أقل احتفالا بالتاريخ منها بفيض الأساطير التي تزخر بها الأشعار ، وبمن تدور هذه الأساطير حولهم من آلهة وأبطال لاحصر لهم ، وبوجه خاص بسلسلة نسب كل أولئك فضلا عن أعمال كل منهم (٣) • فلا عجب أن أصبح هذا اللون من الدراسة موضع تندر الفلاسفة وسخريتهم • وعلى مر الزمن لم يعد واضحا في أذهان الاغريق سبب كل تلك الأهمية التي كانت دراسة الشعر تحظى بها • ومع ذلك فانهم استمروا في هذه الدراسة وفي احاطتها بهالة من القدسية ، لأن الالمام بالشعر كان يعتبر من أسمى القيم الثقافية وأبرز سمات المتعلمين • وحسبنا ان تصفح

(١) Schol. Dionys. Thrax., 10, 9.

(٢) Marrou, op. cit., p. 233.

(٣) Sext. Empiricus, Cont. Mathm., 253; 255; 258; 261.

كتب المؤلفين القدماء لندرك على الفور مقدار تغلغل الشعر فى ثقافتهم ومدى استشهادهم بأقوال الشعراء • ويتبين من المصادر القديمة أنه سواء فى المحادثات أم فى المراسلات الخاصة أم فى الخطير من مواقف الحياة كان الاستشهاد بالأشعار المناسبة أمرا مألوفا متوقعا ومقبولا •

وكانت المرحلة الأخيرة فى دراسة الشعر هى مرحلة النقد الأدبى ، لكن الغرض منها لم يكن جماليا يستهدف تذوقه ومعرفة سمات أسلوبه بقدر ما كان أخلاقيا ، للتعرف على أمثلة فذة لكمال الانسان فى العصور الماضية • فقد درج المعلمون فى العصر الهلينيسى على أن يتخذوا من دراسة الشعر ، وبخاصة أشعار هومروس ، وسيلة لغرس الفضيلة وقواعد الأخلاق الحميدة فى نفوس تلاميذهم • وقد كان الرواقيون مسئولين عن هذا الاتجاه ، اذ أنهم كانوا يعتبرون هومروس أحكم الشعراء ويعتقدون أنه كان يتعمد أن يخفى وراء أساطيره مبادىء خلقية يمكن تبينها بتحليل مجازاته • أما تذوق الشعر والاستمتاع به وادراك ما يكمن وراء كلماته من معان ومشاعر ترهف الحس وتسمو بالنفس ، فانه كان يشوهها بل يقتلها جميعا الهدف الذى كان المدرسون يتوخونه والاغراق فى الدراسات الفقهية (١) •

وقد كان أستاذ الخطابة هو الذى يعلم طلابه فى مرحلة التعليم العالى فن الخطابة (شفويا وتحريريا ، فقد كان الاثنان فى نظر القدماء صنوين لا ينفصلان) • بيد أنه قبل أن يشرع طلاب الخطابة فى اعداد خطبة جديرة بالاسم كان يتعين عليهم أن يؤدوا سلسلة من التدريبات التمهيدية (٢) • وازاء التقدم الذى أحرزه فن الخطابة والمستوى الرفيع الذى بلغه أخذت توجه عناية كبيرة الى التدريبات التمهيدية فأصبحت تبدأ

---

(١) Marrou, op. cit., pp. 234-5.

(٢) Quint., I, 9, I; 3.

فى مرحلة التعليم الثانوى • ولذلك فانه جنبا الى جنب دراسة الآداب وقواعد اللغة ، كان تلاميذ المدارس الثانوية يعطون تدريبات أولية فى الانشاء تتألف من أربعة أنواع (١) •

وكان النوع الأول من هذه التدريبات عبارة عن تكليف التلاميذ بأن يكتبوا نثرا قصة شعرية قصيرة قرأوها أو تليت عليهم دون أن يطالبوا بشرح القصة أو التعليق عليها أو استخدام الفاظ أخرى من عندياتهم • أما النوع الثانى فكان يتطلب قدرا من التفكير ، ذلك أن المدرس كان يشرح لتلاميذه موضوع قصيدة أو مسرحية من عيون الأدب الاغريقى ، ويطلب اليهم أن يعيدوا كتابة الموضوع الذى تدور حوله القصيدة أو المسرحية بشرط الا يستخدموا ذات الكلمات التى سمعوها مع مراعاة الايجاز والوضوح فضلا عن التماثل والدقة بالقياس الى الأصل • ولم يكن الموضوع الذى يكتبه التلاميذ ليزيد على عشرة سطور ، ومع ذلك فانه كان يجب الا تتوافر فيه الصفات الأربع السالفة الذكر فحسب بل أيضا ستة عناصر : الفاعل وما فعله ، ووقت حدوث الفعل ومكانه ، وطريقة فعله ، وسبب ذلك ، الى جانب وصف القصة بأنها أسطورية أو شاعرية أو تاريخية أو وطنية •

أما النوع الثالث فانه يمثل مرحلة أرقى بكثير ، ففى هذه المرحلة كان المدرس يختار فى كل مرة أحد الأقوال المأثورة المسندة الى شخص بعينه ـ وكان فى الغالب ديوجنيس ـ ليكتب التلميذ عنه موضوعا يملأ صفحة متوسطة الحجم وفقا لقواعد ثابتة محددة بحيث تتوافر فى الموضوع الصفات الأربع والعناصر الستة السالفة الذكر ، وبشرط أن يشمل الموضوع ثمانى خطوات تتضمن :

١ ـ مقدمة عن صاحب القول المأثور مع الاشادة به •

---

(١) Marrou, op. cit., pp. 238-40.

٢ – شرح القول المأثور .

٣ – دفاع موجز عن فكرته .

٤ – اثبات صحة الفكرة بتفنيد ما يعارضها .

٥ – توضيح الفكرة بالأمثلة .

٦ – توضيح الفكرة بواقعة مستمدة من مصدر قديم .

٧ – تأييد الفكرة بأشعار أو أقوال وردت في مصادر قديمة .

٨ – خاتمة تشيد بسداد الفكرة .

وكانت تدريبات النوع الرابع تماثل تدريبات النوع الثالث فيما عدا أن موضوعاتها كانت حكما شائعة غير مسندة الى شخص بعينه ، وأن التلميذ كان مطالبا بنقد فكرة أو أسطورة فيؤيدها أو يفندها كما يتراءى له وانما وفقا للقواعد المقررة .

وقد كان المدرسون يحرصون دائما على ألا يخطو تلاميذهم خطوة جديدة قبل ان ترسخ أقدامهم جيدا في الخطوة السابقة . ويمكننا أن نتصور مدى الوقت الذى كان يتطلبه اتقان ذلك كله ولاسيما ان المدرس كان يعلم التلاميذ قواعد اللغة مع الانشاء . وهذا يفسر ما درج عليه المدرسون من أن يطلبوا الى تلاميذهم اعراب كل كلمة من كلمات القصص أو الفقرات أو الأقوال المأثورة أو الحكم أو الآراء التى كانت موضوعات الانشاء تدور حولها . ولا أدل على سخف هذه التدريبات اللغوية من المثل التالى الذى حفظته لنا لوحة تلميذ عثر عليها في مصر (١) . فالمثل عبارة عن قصة جاء فيها : « عندما وصل الفيلسوف فيثاغورث الى الشاطىء وبدأ يعطى دروسه في اللغة نصح تلاميذه بتجنب أكل اللحم . ويقال ان

(١) J.H.S. 29, 1909, 30 ffg.

فيتاغورث كان يرى ٠٠ » ويتبين من اللوحة ان المدرس طلب الى تلاميذه تحويل الفاعل في هذه القصة الى صيغ المنادى والمضاف اليه والمفعول به ومفعول الأداة في حالات المفرد والمثنى والجمع !

٢ - الرياضيات

ويتبين من المصادر القديمة أنه من الناحية النظرية كان المنهج المثالى للمدارس الثانوية فى العصر الهلينيسى يضع الرياضيات فى مرتبة الآداب ، غير أنه من الناحية العملية كانت الرياضيات لا تحظى بالقدر نفسه من العناية والأهمية مثل الآداب • فيتبين مثلا مما أورده ديوجنيس لايرتيوس عن تعليم الفيلسوف أركسيلاوس (١) - وكان يعيش فى القرن الثالث قبل الميلاد - أنه كان يقوم على أساس متين من الدراسات الأدبية ولكنه تضمن كذلك دراسة الرياضية ، وأن أركسيلاوس درس الرياضة قبل أن يقرر أيختص فى الفلسفة أم فى الخطابة • ونستمد كذلك من فقرة وردت فيما كتبه المؤرخ نيقولاوس الدمشقى عن سيرته الذاتية (٢) أنه درس أولا قواعد اللغة ثم مبادىء الخطابة والموسيقى والرياضة وأخيرا الفلسفة • ومع ذلك فانه يصعب أن نقرر اذا كان التلاميذ جميعا يدرسون الرياضة فى مراحل التعليم الثانوى كافة ، أم أن دراستها كانت مقصورة على النابهين منهم أو على الذين بلغوا مرحلة متقدمة في دراستهم الثانوية •

وقد كانت الرياضيات تشمل الهندسة والحساب والفلك ونظريات الموسيقى (٣) • ولما كانت قد وصلت الينا كتب مدرسية كثيرة من العصر الهلينيسى ، فاننا نستطيع أن نكون فكرة واضحة عما كان شباب الاغريق يدرسونه من هذه العلوم فى ذلك العصر •

---

(١) Diog. Laer., IV, 29-33.

(٢) Apud Suidas, III, p. 468.

(٣) Seneca, Ep., 88, 20.

ولا مجـال للشك فى أن الهندسة (١) كانت تحتل مكانة سامية بين رياضيات العصر الهلينيسى ، فقد كانت تعتبر أساس كل العلوم لأن الأرقام لم تكن قد عرفت بعد ، ولأن الهندسة كانت تشمل الكثير مما يعتبر اليوم علم الجبر • ولايمكن المبـالغة فى الخدمات التى أسداها الى الهندسة العالم الجليـل ، اقليدس (حوالى ٣٣٠ ـ ٢٧٥ ق • م) وهو الذى أسس فى الاسكندرية مدرسة تعلم فيها كثيرون من كبار الرياضـيين واقترن اسـمه بأشهر مؤلفاته فى الهندسة « كتاب العناصر » (Elements = Stoicheia) الى حـد أن كتـاب الاغريق كانوا يدعونه عادة « مؤلف العناصر » دون استخدام اسمه ، وأن العرب زعموا أن معنى اسـمه « مفتاح الهندسة » • ولم يكن هذا الكتاب ابتكارا أصـيلا بل مجموعة معلومات معروفة الا أنه يمتاز بما اختاره فيه اقليدس من المعلومات المسلم بها كالتعاريف والفروض والبديهيات ولا سيما النظريات التى تستحق ان تسـمى « عناصر » لأنهـا أساسية وتفوق غيرها فى الأهمية وفى التطبيق • واذا كان اقليدس قد جمع مادة كتابه من كافة المصادر التى كان فى مقدوره الوصول اليها ، فانه صاحب الفضل فى مختاراته وفى ترتيبها وفى صياغة النظريات وفى تنظيم وسائل البرهان تنظيما منطقيا يتسم بطابع عقلى بحت ، فالتفكير الهندسى عنده قوامه العقل لا الخبرات المكتسبة بالحس •

وباستثناء الكتب السـماوية ، لم يتداول الناس أى كتاب آخر جيلا بعد جيل وقرنا بعد قرن مثل هذا الكتاب الذى ترجم الى اللاتينية فى القرن الخامس الميلادى ، والى العربية فى القرن الثامن ، ثم نقل من العربية الى اللغات الأوروبيـة فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، وطبع لأول مرة فى عام ١٤٨٢ ، وظل تلاميذ الهندسة فى مختلف أنحاء العالم يستخدمونه مع تعديلات طفيفة حتى عهد قريب جدا فى العصر الحديث • ويبدو أن

---

(١) Marrou, op. cit., pp. 244 ff. and Bibl., pp. 524-5.

كتاب العناصر كان يحتل فى منهج دراسة الرياضة بالمدارس الثانوية فى العصر الهلينيسى مكانا يماثل أشعار هومروس فى منهج الدراسات الأدبية بتلك المدارس ولاسيما أن الأجزاء السابع والثامن والتاسع والعاشر من هذا الكتاب تتناول نظريات الأعداد أو بعبارة أخرى علم الحساب .

وقد كان الحساب عند الاغريق علما نظريا يزدرى تناول المسائل المادية المستمدة من حياة كل يوم الواقعية كتلك المسائل التى تعطى لتلاميذ المدارس اليوم ـ مسائل الربح والخسارة والبيع والشراء . ويعزو القدماء الى فيثاغورث فضل الارتقاء بالحساب فوق مستوى شئون التجارة (١) . ولما كان علم الحساب عند الاغريق يفتقر الى الرموز العديد الضرورية فانه عجز عن أن يرقى الى المستوى الذى بلغته الهندسة . وقد سبق ان أشرنا الى أن الاغريق كانوا يعبرون عن الأرقام بحروف الهجاء الاغريقية الأربعة والعشرين مع اضافة ثلاثة رموز أخرى ليصبح المجموع سبعة وعشرين رمزا كانوا يقسمونها ثلاث مجموعات احداها للآحاد وأخرى للعشرات وثالثة للمئات . واذا وضعت أسفل أى حرف من الناحية اليسرى شارة مائلة تضاعفت قيمة هذا الحرف ألف مرة (٢) .

واذا كان بفضل هذا النظام يمكن التعبير عن أى عدد صحيح من ١ الى ٩٩٩ر٩٩٩ر٩٩ ، فانه يؤخذ على هذا النظام قصوره عن التعبير سواء عن أى عدد يزيد على ذلك ولو بواحد صحيح (٣) أم عن كسور (٤) أو جذور أى عدد على الاطلاق . ولذلك يعتبر علم الحساب الاغريقى علم الأعداد الصحيحة . ويعطينا كتاب العناصر فكرة واضحة عن هذا العلم ، فهو

---

(١) Stob., I, 19, 2.

(٢) Cf. Tod, Three Greek Numerical Systems, J.H.S., 1913, pp. 27-34.

(٣) اتجه أرخميديس الى ابتكار نظام للتعبير عن الأعداد الكبيرة : المليون ومضاعفاته .

(٤) اتجه كل من ديوفانتوس وأريستارخوس وأرخميديس الى وضع نظام للتعبير عن الكسور .

يتناول خواص الأعداد الصحيحة : أولا خواص الأعداد الفردية والأعداد الزوجية ، ثم خواص أنواع متعددة من الأعداد الزوجية ، مثل العدد ٢ مضروبا في نفسه أو في أي عدد يتكون من معاملات اساسية كلها زوجية ، والعدد ٢ مضروبا في أي عدد فردي ومضاعفات العدد ٢ مضروبة في أي عدد فردي • وفضلا عن ذلك فانه يفرق من ناحية أخرى بين الأعداد الأولية وحاصل الأعداد الأولية وحاصلات الأعداد الأولية ذات المعاملات المشتركة ، كما أنه يفرق بين الأعداد المتساوية والأعداد غير المتساوية وبين المضاعفات والقواسم الصحيحة • ويمضي في تناول خواص الأعداد الصحيحة الى حد تناول خواصها الكيفية والمعنوية ، وهو ما يتضح مثلا من وصف العدد ٢٨ بأنه عدد « كامل » لأنه عبارة عن مجموع العناصر المتداخلة فيه (٢٨ = ١ + ٢ + ٤ + ٧ + ١٤) ، ومن وصف العددين ٢٢٠ ، ٢٨٤ بأنهما عددان صديقان لأن كلا منهما يساوي مجموع نصف العدد الآخر مضافة اليه العناصر المتداخلة فيه (٢٢٠ = ١ + ٢ + ٤ + ٧١ + ١٤٢ على حين ان ٢٨٤ = ١ + ٢ + ٤ + ٥ + ١٠ + ١١ + ٢٠ + ٢٢ + ٥٥ + ١١٠) •

وقد كان الاغريق يعجبون أشد الاعجاب بصفات العدد واحد لأنه لا يتغير اطلاقا مهما يضرب في نفسه أي عدد من المرات ، ويهيمون «بكمال» العدد ٣ لأنه أول عدد له بداية ووسط ونهاية يمثل كلا منها العدد واحد (٣ = ١ + ١ + ١) ، ويشيدون بقوة واتزان العدد ٤ الى حد أن الفيثاغورثيين كانوا يقسمون به ، فهذا العدد حاصل جمع عددين أوليين (١ + ٣) وكذلك حاصل ضرب عدد أولي في نفسه (٢ × ٢) ، ويقدسون العدد سبعة ويعتبرونه صنوا للالهة أثينا التي لم تلد ولم تولد ، لأن العدد ٧ هو العدد الوحيد الذي لا يمكن أن ينتج عن ضرب عدد أولي

فى نفسه أو عن جمع عددين أوليين ، وبالتالى لايمكن اعتبار أى عدد أولى عنصرا من عناصره •

ويعزى الى فيثاغورث (١) فضل كبير على ثالث العلوم الرياضية وهو علم القوانين العددية التى تنظم الموسيقى • وقد وصل الينا الكثير مما كتبه القدماء عن علم الموسيقى الاغريقى مما يساعدنا على تكوين فكرة واضحة عن المستوى الذى بلغه هذا العلم ، وكان يتألف من جزءين رئيسيين هما المقامات والايقاع • وكان الجزء الأول يحلل العلاقة العددية بين مختلف أبعاد السلم الموسيقى ، وتشير القرائن الى أن النظريات الاغريقية الخاصة بذلك بلغت مستوى رفيعا جدا • ولما لم تكن لدى القدماء وسيلة مباشرة لقياس تردد ذبذبات الصوت فانهم توصلوا الى ذلك عن طريق غير مباشر بقياس طول الوتر أو المزمار الذى تصدر عنه ذبذبات الصوت ، وكشفوا أن النسبة عكسية بين طول مصدر الصوت ومقدار تردد ذبذبات هذا الصوت ، ويعتبر هذا الكشف من أجل ابتكارات العلم الاغريقى •

وقد كان الايقاع فى الموسيقى مثل ما هو فى الشعر يعتمد أساسا على الكم والوزن ، ويبرز التقابل بين القوة والضعف • وقد كانت أبحاث الاغريق فى هذا المجال أقل تعقيدا من أبحاثهم فى المقامات وان لم تكن أقل منها دقة أو خصبا • وفى هذا المجال أيضا ، بفضل ما اتسمت به عبقرية الاغريق من النزوع الى الوضوح واستجلاء الغموض ، توصلوا الى نتائج خالدة أصبحت جزءا لا يتجزأ من تراث الموسيقى الغربية •

ولما كان علم الفلك يتصل بالهندسة اتصالا وثيقا ، فان التقدم الرائع الذى أدركته الهندسه فى العصر الهلينيسى صاحبه تقدم علم الفلك أيضا فى هذا العصر • وقد كان هذا العلم أقرب فروع الرياضة الى قلوب الاغريق وأكثرها اثارة لفضولهم • ولم يكن السر فى ذلك مجرد اهتمام

---

(١) Marrou, op. cit., pp. 250-1.

نظرى بهذا العلم بل انه كان وثيق الصلة بالتنجيم الذى ازدادت محبته باطراد فى العصر الاغريقى الرومانى • غير أنه لم توجد أية قرينة على أن التنجيم شق سبيله الى المنهج الدراسى مثل الفلك •

وبطبيعة الحال لم يكن تلاميذ المدارس يدرسون مؤلفات كبار علماء الفلك مثل أريستارخوس وكونون وهيبارخوس وانما كانوا يدرسون كتبا أبسط من ذلك وأقل تعمقا • وقد وصلت الينا عدة كتب من هذا الطراز أشهرها جميعا كتاب « مدخل الى الظواهر الطبيعية » (Eisagogé eis ta Phaenomena) و « الظواهر الطبيعية » (Phaenomena) اللذان ألفهما على التوالى الفيلسوفان الرواقيان جمينوس (Geminus) (القرن الأول قبل الميلاد) وأراتوس (Aratus) (حوالى ٣١٥ ـ ٢٤٠ ق • م) • والكتاب الأول لاحق فى التاريخ للكتاب الثانى وأكثر منه دقة لكنه لم يلق من الرواج مثل ما لقيه هذا الكتاب • وكتاب جمينوس كتاب مبسط يبدأ بسرد البروج والكواكب ، ثم يمضى فيصف الأجرام السماوية ومحور الأرض والقطبين والدوائر القطبية والمدارية والاستوائية والليل والنهار وشهور السنة ووجوه القمر والكواكب السيارة ، وينتهى بتقويم لمواعيد شروق النجوم وغروبها مع اضافة بعض التفاصيل العددية •

أما الكتاب الثانى فهو عبارة عن قصيدة طويلة نظمت شعرا رسالتين نثريتين كتب احداهما العالم الفلكى يودوكسوس (Eudoxus) (حوالى ٤٠٨ ـ ٣٥٥ ق • م) وكتب الأخرى الفيلسوف المشاء ثيوفراسطوس (حوالى ٣٧٠ ـ ٢٨٥ ق • م) صاحب المؤلفات المتعددة فى مختلف فروع العلم والفلسفة • ولم تتضمن القصيدة أية رياضيات ولا أعداد بل اشارة موجزة الى القطبين ووصفا مفصلا تقليديا للكوكبات ، ودوائر الكرة الفلكية ، ومواعيد شروق النجوم وغروبها ، وسمات الطقس •

ولا أدل على ما صادفته هذه القصيدة من ذيوع وانتشار في الدوائر المدرسية من عدد ما وصل الينا من حواشي الشرح ، ومن أن أهل العصر الهلينيسي كانوا يعتبرون أراتوس أعظم الفلكيين مثل ما كانوا يعتبرون هوميروس أعظم الشعراء • وقد احتل أراتوس هذه المكانة برغم انه لم يكن عالما فلكيا ، واستحوذت قصيدته على محبة الناس مع ما فيها من أخطاء وتبذل علمي ، لأن أراتوس عالج موضوعا قريبا الى قلوب الناس بطريقة مبسطة قريبة الى عقولهم • وقد زاد في سوقية طابع القصيدة الطريقة التي كانت تدرس بها في المدارس الهلينيسية ، فقد كان لا يتولى تدريسها عادة مدرسو الرياضة وانما مدرسو الآداب ، ولذلك كان لا يوجه الى الناحية العلمية الا قدر محدود من العناية • وأما الجانب الأكبر من الدراسة فكان قبل كل شيء دراسة أدبية تدور بوجه خاص حول الأساطير التي يشير اليها أراتوس في أوصافه التقليدية للكوكبات ، مثل وصف شكل احدى الكوكبات على هيئة البطل الأسطوري برسيوس وهو يحمل زوجته أندروميدا على كتفيه ويمد يده اليمنى تجاه الفراش الذي ترقد عليه حماته كاسيوبيا ويتقدم نحوه مسرعا فيثير سحابة من التراب ـ اشارة الى جموع النجوم التي في هذا الجزء من السماء •

ويعزى الى اراتوس الفضل في المكان البارز الذي كانت دراسة الفلك تحتله في المنهج الدراسي في مرحلة التعليم الثانوي ، وان كان قد ترتب على الطريقة التي كانت قصيدته تدرس بها أن دراسة الفلك في هذه المرحلة من التعليم أصبحت دراسة ادبية قبل كل شيء ، قوامها تفسير النص تفسيرا أدبيا • وبرغم الجهود التي بذلها مدرسو الرياضة لمقاومة هذا الاتجاه فان الغلبة كانت لمدرسي الآداب • ويبدو أنهم على مر الزمن لم يقفوا عند تدريس الفلك فحسب بل اغتصبوا كذلك فروع الرياضة الأخرى ، فأخذ ينكمش باطراد نصيبها في المنهج الدراسي وكذلك حظ التلاميذ منها •

وقد كانت النتيجة الطبيعية لذلك أن التعليم الكلاسيكي اكتسب في أواخـر العصر الهلينيسي سمه كان مقدرا لها ان تصبح احدى سماته الرئيسية ، وهي اتخاذ الآداب أساسا للثقافة العـامة . وليس معنى ذلك اغفال أهمية الرياضيات أو الانتقاص من قدرها أو اهمال دراستها وانما معناه الادراك أن الرياضيات كانت من شأن الفارهين الذين لديهم المواهب لدراستها والميل الى التخصص فيهـا . وهكذا اذا كانت الرياضيات لم تعد تحتل مكانا بارزا في مرحلة الثقافة العـامة ، فانهـا استمرت في التقدم والازدهار بفضل مواهب المتخصصين فيها ، كما استمرت دراستها وان لم يكن تدريسها في الانتشار بين ذوي المواهب والميول لدراستها . ويمكن تقدير مدى هذا الانتشار في مصر بفضل البرديات الكثيرة التي كشف عنها هناك . وبعض (١) هـذه البرديات يضـم أجزاء من كتـاب العنـاصر لاقليدس ، وبعضها (٢) رسائل في علم الموسيقى ، وبعضـها (٣) رسـائل في الفلك ، وبعضها (٤) مسائل في الهندسة .

---

(١) P. Oxy., 29; P. Fay., 9.

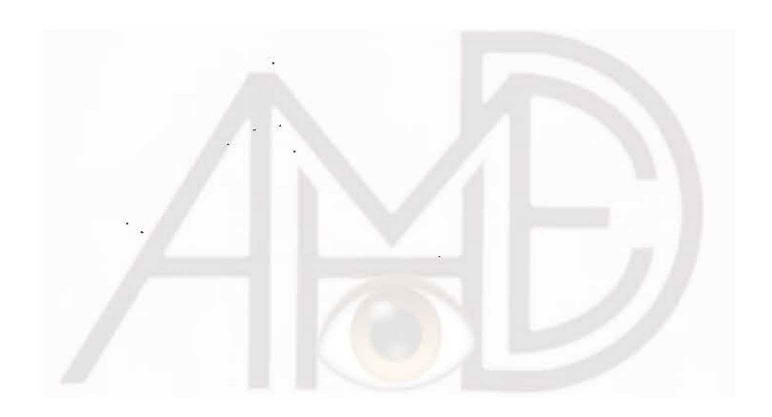
(٢) P. Tebt., 694; P. Reinach, 5; P. Oxy., 9; 667; P Hibeh, I, 13.

(٣) P. Letronne I.

(٤) P.S.I., 186; 763.

الفصل السادس

التعليم العالي



لما كان التعليم الثانوى بمثابة مرحلة الثقافة العامة التى يجب أن تتوافر لدى المتعلمين كافة ، فان تلاميذ هذه المرحلة كانوا يتابعون فى كل مكان تقريبا دراسات متماثلة الى حد كبير . وأما فى التعليم العالى فان الحال كانت مختلفة بسبب اختلاف ميول الدارسين واختلاف فروع التخصص ، التى اشتهرت بها مختلف مراكز الدراسات العالية وكانت تجتذب اليها الدارسين بدرجات متفاوتة ، كما هى الحال اليوم .

وفى العصر الهلينيسى كانت الاسكندرية أهم مراكز التعليم العالى لا فى مصر وحدها بل فى أرجاء العالم الاغريقى كافة . ومرد ذلك الى أن البطالمة أنشأوا فى عاصمتهم عند صدر القرن الثالث قبل الميلاد أعظم دار للكتب « المكتبة الكبرى » وأعظم مركز للبحث العلمى « دار العلم »(١) (Museum) فى العالم القديم . فقد عنى البطالمة بجمع مجموعة هائلة من الكتب النفيسة ، ودعوة نخبة ممتازة من الأدباء والفلاسفة والعلماء الى الاسكندرية ، حيث كانوا يستضيفونهم فى دار العلم ويجرون عليهم الأرزاق لكيلا يشغلهم شاغل عن البحث والتأليف .

وقد كانت دار العلم أساسا معهدا للبحث العلمى وليست مركزا للتعليم ، فلم يكن العلماء والفقهاء والأدباء والفلاسفة الذين كان البطالمة

---

(١) Cf. Pauly-Wissowa-Kroll, Real — encycl., s.v. Mouseion; Tarn, Hell. Soc. and Ec. Hist. Hell World, pp. 1084-5; 1596 No. 39.

يجرون عليهم الأرزاق مطالبين بالقاء أية محاضرات ، ولم تنظم دار العلم أى نوع من الدراسات . ومع ذلك فان هؤلاء الأعلام كانوا يقومون فعلا بالتدريس ، ذلك أن شهرتهم كانت تسترعى انتباه طالبى العلم فيلتف حول كل منهم عدد من الراغبين فى الاستزادة من علمه ، وأن حب الأساتذة للعلم وتبحرهم فيه وميلهم الطبيعى الى افادة غيرهم بعلمهم كانت تحفزهم على تعليم من يتوسمون فيهم الافادة من علمهم . ولذلك فان التعليم العالى الاغريقى الذى عرفته مصر وغيرها من دول العصر الهلينيسى كان بوجه عام ضربا من التعليم الفردى أشبه ما يكون بالدروس الخصوصية التى يعطيها أستاذ لفئة قليلة مختارة من الطلبة . ولم تكن هناك شهادات ولا امتحانات ولا مكافآت ، فقد كانت المكافأة الحقيقية هى الاحساس باجادة العمل ، وأما العقاب فانه كان الشعور بالتقصير فى أداء عمل جديد بتأديته على خير وجه ، فضلا عن الطرد من هذه الجنة العلمية . وكان حسب الطلاب شهادة أنهم درسوا على هذا أو ذاك من أساتذة دار العلم فى الاسكندرية . وقد كان هذا اللون من التعليم العالى مثمرا الى حد أنه قد تمخض عنه عدد من المدارس المتنافسة فى كل فرع من فروع المعرفة ، فنحن نقرأ فى المصادر القديمة مثلا عن مدرسة أريستارخوس ومدرسة أريستوفانس فى فقه اللغة ، وعن مدرسة هيروفيلوس ومدرسة اراسيستراتوس فى الطب (١) . والمقصود طبعا بهذه المدارس اتباع هذا أو ذاك من الأساتذة الذين كانوا ينهجون نهج أولئك الأساتذة .

ومن العسير تقدير عدد الطلاب الذين كانوا يتابعون هذا اللون من التعليم العالى . لكن القرائن توحى بأن عددهم ازداد باطراد ، وبأن الأساتذة أصبحوا لا يجتذبون الطلاب من الاسكندرية وباقى مصر فحسب بل أيضا من مختلف أرجاء العالم الاغريقى . واذا كانت دار العلم قد بدأت معهدا

---

(١) Cf. Suidas s. vv.

للبحث العلمي قبل كل شيء ، فانها غدت في العصر الروماني جامعة بها كراسي للأستاذية وتتمتع بشهرة عالمية وبخاصة في الطب . فقد كان يكفي الطبيب دلالة على كفايته وعلمه انه تخرج من جامعة الاسكندرية . وعلى حين كانت دار العلم مركز البحوث العلمية كانت المكتبة الكبرى مركز الدراسات الانسانية . واذا كنا نعرف الكثير من النتائج الباهرة التى كللت بها جهود رجال هذين المركزين ، وكانت مصادرنا غنية بالمعلومات عن دراسة الطب ، وبوجه خاص عن دراستى الخطابة والفلسفة ، فان مصادرنا لاتسعفنا بتتبع مناهج الدراسات الأخرى من آداب ورياضيات ، وان كانت هذه الدراسات قد بلغت مستوى رفيعا تتجاوب أصداؤه في مؤلفات أعلامها التى سنتناول الكلام عنها في معرض الحديث عن الحركة العلمية في الاسكندرية .

ولم تكن دار العلم والمكتبة الكبرى الا مظهرين من مظاهر النشاط العلمي الدافق في عاصمة البطالمة ، اذ أن انشاء هاتين المؤسستين دفع عجلة الحركة العلمية فوفد على الاسكندرية أساتذة عديدون كانوا يمارسون نشاطهم خارج الدار والمكتبة في مجالات الخطابة والفلسفة ومختلف فروع المعرفة .

واذا كانت الاسكندرية أعظم مراكز التعليم العالى في مصر ابان عصر البطالمة ، فانها لم تكن المركز الوحيد لهذا التعليم . ذلك أنه يتبين من المصادر القديمة أنه كان ينزل في المدينتين الاغريقيتين الأخريين – نقراطيس وبطوليميس – وكذلك في بعض عواصم المديريات التى كانت توجد فيها جاليات اغريقية كبيرة عدد من معلمي الخطابة والفلاسفة والفقهاء والشعراء والمؤرخين الذين لم يسطعوا في سماء العلم مثل شموس الاسكندرية الكبيرة ، الا أنهم كانو نجوما لامعة يستهدى بضيائها الخافت أولئك الذين كانت مواردهم أو ظروفهم لاتسعدهم بأن يستضيئوا بكواكب الاسكندرية

الباهرة (١) • وفضلا عن ذلك فانه كان من أخص سمات الحضارة الهلينيسية أولئك المتجولون من الفنانين والشعراء والفلاسفة ومعلمي الخطابة والمخصصين في علم الصحة ، الذين كانوا يتنقلون من مدينة الى مدينة من أقصى العالم الاغريقي الى أقصاه ويعرضون فنونهم وثمار قرائحهم حيثما وجد اغريق ، ويلقون من الاقبال عليهم ما كان خير حافز على استمرار هذه العادة طويلا (٢) • هذا الى أن القرائن تشير الى انه كانت توجد في الجومنازيا مكتبات زاخرة بالكتب • وهكذا توافرت للراغبين في الاستزادة من العلم الأسباب التي كانت تهيىء لهم ذلك وان كانت محدودة بالقياس الى ما كان يتوافر في الاسكندرية •

ويستوقف النظر أنه حتى في الاسكندرية لم توجد اية دراسات عليا باستثناء دراسة الطب لاعداد أرباب المهن • فنحن نعرف مثلا أنه كان يوجد في مصر البطلمية محامون (٣) وانه كان معترفا بهم قانونا وتجبى منهم ضريبة عن مزاولة مهنتهم ، لكنه لا يوجد أي دليل على انه كان يوجد سواء في دار العلم أم في خارجها فقهاء في القانون ، وتبعا لذلك لم توجد أية دراسات عليا في القانون • ولعل الراغبين في مزاولة مهنة المحاماة كانوا يلتحقون بمكاتب المحامين الى ان يتقنوا أصول المهنة ويتم تدريبهم • ويمكننا أن نتصور أن ذلك كان أيضا الحال في اعداد كل أرباب المهن التقنية (٤) — كالمعماريين والمهندسين المدنيين منهم والعسكريين ومخططي المدن وقباطنة السفن والصيادلة — الذين نتبين من المصادر القديمة انهم كانوا عناصر مألوفة في المجتمع الهلينيسي لكننا لا نعرف شيئا عن تعليمهم •

---

(١) Cf. Collart, Chron. 1935, pp. 490-2.

(٢) Cf. Rostovtzeff, op. cit., pp. 1086-7.

(٣) راجع : ابراهيم نصحي — مصر في عصر البطالمة الجزء الرابع ؛ ١٩٦٦ ؛ ص‌ص ٧٩ ، ١٠٣ وراجع أيضا • Rostovtzeff, op. cit., p. 1095; 1600, No. 49.

(٤) Cf. Rostovtzeff, op. cit., pp. 1082 ff.; Marrou, op. cit., pp. 264 ff.

ولعل انفراد مهنة الطب بهذه العنـاية يرجع من ناحيـة الى المستوى الرفيع الذى بلغه الطب ومن ناحية أخـرى الى الأهمية التى كانت لمهنة الطب فى حياة العالم الهلينيسى • ذلك أنه لم توجد مدينة تحترم نفسها دون ان يوجد فيها على الأقل طبيب واحد حكومى وعدد من الأطباء الخصوصيين، وفى أوقات الضرورة ـ أوقات انتشار الاوبئة واقامة الحفلات العامة عندما كانت تتجمع أعداد كبيرة من الناس فى أحوال غير صحية ـ كانت المدن تستعير من بعضها مشـاهير الأطبـاء وتخلع عليهم ألقاب التشريف لقـاء خدماتهم • وقد كان ملوك العصر الهلينيسى يستخدمون أمهر من يستطيعون الحصول عليه من الأطباء للعناية بصحتهم وصحة أسرهم وأفراد حاشيتهم • وكان هؤلاء الملوك يتنافسون فى اجتذاب أعظم أطباء عصرهم الى عواصمهم وتهيئة الأسباب لهم لمتابعة أبحاثهم وتلقين مهنتهم لأكبر عدد ممكن تتوافر لديهم الرغبة والمواهب لدراسة الطب• ذلك أن هؤلاء الملوك عنوا بتنظيم الخدمات الطبية لعواصمهم والجيش والسكان المدنيين عامة، مما كان يتطلب توافر أطباء كثيرين •

ويبدو ان البطالمة قد استعانوا بالتقاليد المحلية وتقاليد المدن الاغريقية فى انشاء خدمة طبية حكومية كانت الأولى من نوعهـا فى تاريخ البشرية • ويتبين من الوثائق أن مصلحة الصحة البطلمية كانت منظمة تنظيما دقيقا، وأنه كان على رأسها طبيب كبير يقيم فى الاسكندرية ويساعده عدد كبير من الأطباء الحكوميين فى طول البلاد وعرضها، كان بعضهم من الاغريق والبعض الآخـر من المصريين • وقد كانت هذه المصـلحة تعنى بوقاية السـكان وعلاجهـم من الأمراض • وتحدثنا المصادر القديمة بأن الأطباء المحليين كانوا يعالجون دون أجـر الجنود النازلين فى الأقاليم، فقد كانت الحكومة تعطى أولئك الأطبـاء مرتباتهـم • ولعل الانتفاع بهذه الخدمات

Rostovtzeff, op. cit, pp. 1088 ff.; Marrou, op. cit., pp. 264 ff.

الطبية المجانية لم يكن مقصورا على الجنود وحدهم ، اذ ان ضريبة الخدمات الطبية كانت تجبى من كل سكان الأقاليم بما فى ذلك الجنود •

ولاشك فى أنه قد ساعد البطالمة على انشاء هذه الخدمة الطبية الحكومية أنه كان يوجد فى مصر قبل عصر البطالمة نوع من الخدمة الطبية الحكوميه ، وأن مهنة الطب كانت منتشرة فى مصر قبل عصرهم ووصلت الى مستوى عال من التخصص ، وأن الاسكندرية قد غدت فى عصرهم من أشهر مراكز الدراسات الطبية • ويبدو أن أعلام الطب مثل هيروفيلوس واراسيستراتوس وفيلينوس الذين زاولوا مهنتهم وقاموا بأبحاثهم وتتلمذ الكثيرون عليهم فى الاسكندرية كانوا من رجال دار العلم ، ذلك أن بطلميوس الأول هو الذى استقدم أولهم فيمن استقدمهم من العلماء الى الاسكندرية وأن ثانيهم كان من بين تلاميذه الذين نبغوا وذاع صيتهم وكان لكل منهم بدوره تلاميذه •

وقد أفاض القدماء فيما كتبوه فى الطب ووصل الينا قدر كبير من كتاباتهم ، وبفضل ذلك نستطيع أن نكون فكرة عن دراسة الطب فى العصر الهلينيسى • ويتبين من ذلك أن كل أستاذ كان يعلم فئة مختارة من الطلاب، وأن التعليم كان شقين أحدهما نظرى والآخر عملى • وقد كان الشق النظرى يشمل دراسة رسائل ابقراط ـ أو بعبارة أدق الرسائل المنحولة على هذا الطبيب الفذ الذى أرسى فى القرن الخامس قبل الميلاد قواعد علم الطب وآداب المهنة واحتلت « رسائله » عند الأطباء مكانة الكتب السماوية اليوم عند رجال الدين ـ وقواعد البيولوجيا والعلاج الطبى • وكان ينفق وقت طويل فى هذا الاعداد الأولى لأن روح الجدل والنقاش الذى أفضى اليه الصراع العنيف بين الخطابة والفلسفة شق سبيله فى العصر الهلينيسى الى مجال الطب ، حيث كان أتباع المدارس المتنافسة ـ من المذهبيين والتجريبيين والمنهجيين والداعين الى أن الشرايين لا تحمل الا هواء ـ

يتجادلون جدلا عنيفا ويهاجم بعضهم البعض الآخر بدون هوادة • وكان الشق العملي يؤلف الجانب الرئيسي من الدراسة ، فقد كان الأستاذ يصطحب معه طلابه عندما يعود مرضاه ليتعلموا بالمران كيفية معاملة المريض وفحصه وتشخيص الداء ووصف العلاج • وكان دور الطلاب أول الأمر مقصورا بطبيعة الحال على المشاهدة والاصغاء الى شرح الأستاذ ، وبعد ذلك كانوا يشاركون الأستاذ فيما يقوم به ، وفي المرحلة التالية كانوا يباشرون الفحص والتشخيص والوصف تحت اشراف الأستاذ • وبعد قدر كاف من المران كان الأستاذ يترك لكل طالب العناية بأحد المرضى ليرقب حالته وأثر العلاج فيها وينهي ملاحظاته الى الأستاذ • ولاشك في أن هذه الطريقة كانت بطيئة الا أنها كانت مثمرة لأن الطالب كان لا يستوعب العلم فحسب بل كل خبرة أستاذه • وهكذا كان الاتصال المباشر المستمر بين الأستاذ والطالب يعوض خيرا عن الافتقار الى ما نألفه اليوم من النظم الدقيقة المعقدة التي لا تغني ولا تثمر مع كثرة عدد الطلاب وقلة عدد الأساتذة وضيق وقتهم • وتحدثنا المصادرالقديمة عن طلبة استبد بهم حب العلم فكانوا لا يقنعون بالدراسة على أستاذ واحد بل يتابعون دراستهم على أستاذ بعد آخر طمعا في الاستزادة من العلم • وخير شاهد على ذلك الطبيب المشهور جالنوس ، فقد درس الطب في برجام ثم في أزمير وكورنثة والاسكندرية •

وبرغم ما نادى به ابقراط (١) وكذلك جالنوس (٢) من أن دراسة أي علم كالطب مثلا دراسة دقيقة عميقة يمكن اعتبارها دلالة كافية على ادراك مستوى رفيع من الثقافة ، فان ذلك لم يكن الرأي السائد لدى أهل العصر الهلينيسي بوجه عام • ذلك أن معيار الثقافة عندهم لم يكن دراسة الطب أو الرياضيات أو غير ذلك من العلوم — فهذه أمور لم تعن الا فئة قليلة من المتخصصين — وانما دراسة الخطابة أو الفلسفة اللتين ظلتا

(١) Corpus Hippocraticum, IX, 232, 5 (Littré).

(٢) Galen., Med. Phil., Protr. 14.

أخص مظهرين للثقافة والتعليم العالى وأوسع هذه المظاهر انتشارا • وقد كان أبرز الداعين الى هذين اللونين من الثقافة أفلاطون (٤٢٧ ٣٤٧ ق • م) وايسقراط (٤٣٦ - ٣٣٨ ق • م) •

واننا لنخطىء خطأ بينا اذا تصورنا ان الخطابة والفسفة كانتا تتقاسمان ميدان الثقافة الهلينيسية وتعليمها العالى فى يسر وهدوء ، وأن الطلاب كانوا يختارون ببساطة اما دراسة الخطابة واما دراسة الفلسفة على نحو ما يختار الطلاب اليوم مثلا دراسة الآداب أو العلوم • فالواقع أن الأمر كان على النقيض من ذلك ، اذ أن الخطابة والفلسفة كانتا ثقافتين عدوتين متناحرتين تتحدى كل منهما حق الأخرى فى الوجود • وقد ظل الصراع العنيف قائما بينهما منذ بدأه اماماهما : ايسقراط وأفلاطون ، وأقتفى أثرهما فى ذلك أتباع كل منهما • وكان شأن هذا الصراع شأن الحمى الخبيثة التى تهدأ حينا لتعاود سيرتها أشد ما تكون عنفا ونشاطا • وقد استمرت الحال على هذا المنوال طوال العصرين الهلينيسى والرومانى •

وقد كان من أهم نتائج هذا الصراع القيم نزوع الثقافة الهلينيسية نحو الجدل فضلا عن تأثر كل من طرفى الصراع بالآخر على نحو ما يحدث دائما فى أى صراع يدوم طويلا • فقد تسربت الفلسفة الى الخطابة كما تسربت الخطابة الى الفلسفة • والواقع أن تأثير الخطابة كان أوسع مدى من ذلك ، اذ أنها تركت أثرا عميقا فى كل نواحى الحياة العقلية فى العصر الهلينيسى • فلا عجب أنها أحرزت قصب السبق فى حلبة التنافس الشديد بينها وبين الفلسفة • وآية ذلك أن التعليم العالى كان معناه فى نظر الغالبية العظمى من الطلاب دراسة الخطابة • وهكذا فشل أفلاطون فى اقناع معاصريه والأجيال التالية بقبول مثله العليا فى التعليم ، على حين أن دعوة ايسقراط الى دراسة الخطابة صادفت نجاحا مباشرا ولم يؤد مر الزمن

وتعاقب الأيام الا الى توكيد نجاح دعوة ايسقراط وانتشارها باطراد فلم يصبح معلم بلاد الاغريق وحدها بل معلم العالم القديم بأجمعه .

والخطابة فى نظر أيسقراط مدرسة أخلاقية وليست مجرد فن لشق الطريق فى الحياة ، فهى عنده تثقيف العقل وتهذيب الروح بدراسة عيون الأدب القديم ، شعره ونثره ، وهى أيضا أداة السياسة العملية لأنها تستهدف خلق لون سياسى من الثقافة . ولذلك فانه كان يأخذ على الانشائيين والجدليين سطحيتهم بقدر ما كان يأخذ على أفلاطون أفكاره الخيالية التى كان يتعذر تحقيقها فى بلاد الاغريق فى القرن الرابع قبل الميلاد . ويجمل أيسقراط فلسفته حين يقول « ومن الذين اعتبرهم متعلمين ؟ انهم أولئك الذين يحسنون التصرف فى أحوال حياتهم اليومية ، أولئك الذين يزنون الأمور بميزان دقيق ويحكمون عليها حكما صادقا وقلما يتنكبون عن سلوك السبيل الملائم ، أولئك الذين يتسمون بالأدب والاستقامة ، ولا يغضبون على عجل ، ويقسطون فى مباهجهم ، ويواجهون بلاءهم بشجاعة ، ولا تسكرهم نشوة النصر ... ان اولئك الذين يتحلى خلقهم بكل تلك الصفات لا بصفة واحدة منها فقط ، هم الرجال العقلاء الكاملون الذين تتوافر لديهم كل الفضائل » (١) .

ولأول وهلة قد يتملكنا العجب من احتفاظ الخطابة بأهميتها بعد انقضاء الأحوال السياسية والاجتماعية التى تمخضت عنها أصلا . فمن المعلوم أن الأحوال السياسية والاجتماعية فى القرن الخامس قبل الميلاد وبخاصة فى المدن الاغريقية الديمقراطية هى التى أفضت الى ازدهار الفصاحة وتقدم الخطابة ، فقد كان كل مواطن معرضا للكلام فى الناس ، اما فى المحاكم دفاعا عن نفسه فى بلاد كانت التهم تكال فيها جزافا ، واما فى الجمعية الشعبية تأييدا لرأيه أو تفنيدا لآراء غيره . وأما فى العصر الهلينيسى فانه

---

(١) Isocr , Antiodosis, 271; Panath., 30-23.

فى كنف الملكيات المستبدة التى سيطرت على العالم الاغريقى لم تعد المدن الحرة المستقلة الا صورا باهتة لما كانت عليه فى الماضى ، وأصبحت الحياة السياسية تتركز حول ملوك مطلقى السلطة • وكان المتوقع فى مثل هذه الظروف أن تفقد الخطابة أهميتها وألا يعد هناك مجال للخطباء لأنه منذ ذلك الوقت أصبح الذين لهم وزن فى السياسة هم مستشارى الملوك الذين يعرفون كيف يكتسبون ثقتهم ويتمتعون عن طريقهم بالنفوذ والسيطرة •

لكن الاغريق فطروا على حب الكلام والمناقشة واستمسكوا بأسلوب حياتهم ، ولذلك اذا كانت المجالس الدستورية لم تعد أكثر من مجالس محلية ، فانها استمرت تنعقد وظلت مسرحا للخطابة والادلاء بالأصوات • بل ان الاغريق حيثما افتقروا الى هذه المجالس كانوا يؤلفون الأندية والجمعيات لتوفر لهم لونا من الحياة الدستورية كالمناقشات والانتخابات • واذا كانت المحاكم لم تعد حلبة دائبة الحركة للقضايا السياسية المثيرة ، فانها ظلت قائمة تمارس نشاطها الذى كان يغذيه باستمرار حب الاغريق للاختصام •

والواقع أنه منذ عهد السفسطائيين وأيسقراط غدت الخطابة فى نظر الاغريق أهم هدف ثقافى والقمة التى تتوج أى نوع من التعليم جدير بالاسم • ولعل السبب الرئيسى فى نجاح دعوة أيسقراط الى دراسة الخطابة وفى تبوء الخطابة هذه المكانة السامية عند الاغريق أن الخطابة كانت قريبة جدا الى قلوبهم ولا سيما انهم كانوا يؤمنون بانها تنطوى على قيمة انسانية تسمو على أية فائدة عملية يمكن أن تستمد من استخدامها فى شئون الحياة ، فقد كانوا شديدى الاعتزاز بحضارتهم مما حدا بهم الى شدة الحرص على نقل تراثها الى الأجيال التالية ، وكانوا يعتبرون الخطابة أو بعبارة أدق المحاضرة خير أداة للاضطلاع بهذا العبء (١) •

---

(١) Cf .Marrou, op. cit., pp. 269-71.

وبفضل وفرة المصادر القديمة نستطيع أن نكون فكرة واضحة عما كانت تتضمنه دراسة الخطابة • وبيان ذلك انه عندما كان الشاب ينتهي من دراسته الثانوية كان يقصد أحد أساتذة الخطابة الذين اتخذوا لهم مقاما في الاسكندرية أو نقراطيس أو بطوليميس أو احدى عواصم المديريات • وقد كانت القاعدة العامة في كل أنواع الدراسات العليا التي كانت دراسة الخطابة من بينها ، هي التفاف عدد قليل من الطلبة حول أستاذ بعينه حتى يشبعهم مما تخصص فيه ، ولكنه ، كما كانت الحال في دراسة الطب ، كان الراغبون في الاستزادة والتعمق لا يكتفون بالدراسة على أيدي أستاذ واحد بل ينهلون من موارد علم أستاذ بعد آخر •

ولم يختلف موضوع الدراسة كثيرا عما كان عليه أيام أيسقراط (١)، وان كان قد تطور على الأسس نفسها لتحقيق قدر أكبر من الاتقان الفني • ويبدو هذا جليا من الجزء الأول من الأجزاء الثلاثة التي كانت تتألف منها هذه الدراسة وهي : الأسس والنماذج والتطبيقات • وقد كان أيسقراط يتوخى عدم التوسع في الجزء الأول والاكتفاء بأقل قدر ممكن منه ، لكنه لم يؤخذ بتوجيهاته فيما يخص ذلك ! وقد خيل الى أرسطو أنه سيكون من شأن مؤلفه عن الخطابة ارساء قواعد نمطية مبسطة لطريقة تدريسها ، لكنه كان واهما فقد ازدادت تعقيدا على مر الزمن من جراء الجهود التي بذلها معلمو الخطابة ، جيلا بعد جيل ، لتطور تدريسها •

وقد كان أول ما يتعين على الطالب عمله هو أن يحفظ مجموعة جديدة من المفردات الفنية ويلم بكل أصول وفروع الطريقة التحليلية • وكانت الأصول خمسة وهي : الابتكار والترتيب والفصاحة والاستذكار والالقاء • والمقصود بالابتكار هو اتباع عدد من الطرق للوصول الى أفكار جديدة على أساس نظرية التأملات الذاتية والموضوعية وكانت تمضي في التفاصيل

(١) Marrou, op. cit., pp. 272 ff.

الى مدى بعيد • واما المقصود بالترتيب فهو تخطيط الخطبة بحيث تتألف من ستة اجزاء الكل منها قواعد معينة • والمقصود بالفصاحة اختيار الأسلوب المناسب للمقام مع مراعاة قواعد اللغة واستخدام الاستعارات والكنايات فى عبارات مقفاة • وكان الاستظهار يقوم عادة على أساس من ربط صور الموضوع بعضها ببعض • وأخيرا يأتى دور الالقاء وكان يتطلب معرفة كيفية التحكم فى نبرات الصوت واخراج الكلمات بوضوح وتوكيد معانيها بالاشارات المناسبة • وقد كان لكل جانب من هذه الجوانب قواعد دقيقة تستوقف النظر بكثرتها •

وبعد استيعاب ذلك كله كان الطلاب يدرسون نماذج مختارة ليحذوا حذوها وينسجوا على منوالها • وكان كبار الأساتذة يميلون الى اعطاء طلابهم خطبا من ابتكارهم على نحو ماكان يفعل السفسطائيون وأيسقراط ، غير أن التقاليد كانت فى هذا المجال أيضا أقوى من الميول الشخصية • فقد درج معلمو الخطابة على الاعتماد فى ذلك على عدد معين من الخطب التى تمتعت باعجاب الناس فى كل مكان ، ولذلك كان للخطابة مثل ما كان للشعر قائمة ثابتة من المؤلفين الذين يجب دراستهم • وكانت القائمة فى هذه الحالة تتألف من خطباء أتيكا العشرة • والقياس هنا مع الفارق اذ أنه على حين انعقد الاجماع على أن هوميروس كان أعظم الشعراء ويأتى دائما فى المقدمة ، لم يتفق كل الأساتذة على امام الخطابة ، فقد كان البعض يعتبر دموسثنيس المثل الأعلى والبعض الآخر يفضل لوسياس وهكذا •

وأخيرا كانت تأتى مرحلة التطبيقات ، وكانت تنقسم الى عدة أبواب هى : المدح والرثاء والهجاء والمقارنة والوصف والبحث • هذا فضلا عن الخطب التى كانت تلقى فى المحاكم أو المجامع الدستورية أو عند القيام

بسفارة ما ، أو فى مناسبات خاصة مختلفة كالزواج وأعياد الميلاد والوداع • وقد كان لكل باب مجموعة قواعد مفصلة ، فلا عجب أن كانت دراسة الخطابة والوقوف على قواعدها وأصولها وفروعها تتطلب سنين عديدة نسمع أنها كانت تتراوح بين أربع وثمانى سنوات • والواقع أن التمرس بالخطابة كان لا ينتهى ، فقد كان الخطباء لا ينقطعون اطلاقا عن التدريب باستمرار على اعداد الخطب كما لو كانوا طلابا يعدون واجباتهم •

وفى خلال ذلك كله لم يكن لطلاب الخطابة غناء من دراسة عيون الأدب الاغريقى بوصف كونها كنزا لا ينفد من الدراسات العميقة للطبيعة الانسانية ودخائل النفس البشرية التى من شأنها أن ترهف أحاسيسهم وتصقل عقولهم ، وتزودهم بفيض من الأفكار والمشاعر فضلا عما يشتهون من العبارات التى يمكنهم اقتطافها لتوكيد وجهة نظرهم فى أى موضوع يتناولونه •

وقد يبدو للمحدثين أنه كان من شأن كل هذه القواعد والضوابط والتوجيهات أن تؤدى الى الاصطناع والتكلف بل التدهور والقضاء على الأصالة وتقييد المواهب ، لكن الواقع هو أن الخطيب بعد المامه بكل القواعد والاصول والفروع كان يستطيع استخدامها فى الاعراب عن مشاعره وأفكاره بكل اخلاص • ولا جدال فى أن الاخلاص فى القول مسألة خلقية تتوقف على الشخص ذاته سواء أكان عالما أم جاهلا ، ولا فى أن القول المخلص السلس العذب الذى يستوفى كل جوانب الموضوع أوفى بالغرض وأبعد أثرا فى النفس من القول المخلص المتعثر المبتور • ولم تتمخض دراسة الخطابة عند الاغريق عن قطع أدبية رائعة فحسب بل تمخضت كذلك عن ارهاف الحس ورفع مستوى الثقافة العامة ، لكن شأنها شأن كل الدراسات التى ليست لها الا أهداف جمالية اتهمت بأنها دراسة جوفاء عابثة لا طائل

تحتها • وقد كان مصدر اتهام الخطابة بذلك عدوتها ومنافستها القديمة : الفلسفة •

ولم يقبل على دراسة الفلسفة (١) الا قلة من صفوة المتعلمين الذين كان لديهم الميل والاستعداد لدراستها والقدرة على الوفاء بكل متطلباتها • ذلك أن رغبتهم فى أن يصبحوا فلاسفة لم يكن معناها مجرد انصرافهم عن الثقافة التى كان طابعها العام أدبيا وخطابيا ، بل اتخاذهم مثلا أعلى كان يقتضيهم اتباع نهج جديد فى الحياة يستلزم مستوى خلقيا معينا فى سلوكهم وكذلك قدرا معينا من التقشف فى ملبسهم ومأكلهم •

وكان يتولى تدريس الفلسفة ثلاث فئات من الفلاسفة كانت أهمها فئة المدارس الفلسفية المختلفة التى أسس كلا منها أصلا أحد أعلام الفلسفة وكون من أتباعه طائفة أصبحت مدرسته ، وهى التى كان يتولى التدريس فيها حتى يعجز عن الاستمرار لسبب أو آخر فيختار أحد أتباعه خلفا له وهكذا جيلا بعد جيل • وكانت الفئة الثانية تتألف من فلاسفة استقر كل منهم على حدة حيثما توسم أن يلقى نفرا من الطلبة يقبلون عليه للاستزادة من علمه • وكانت الفئة الثالثة عبارة عن الفلاسفة المتجولين الذين كانوا ينتقلون من مدينة الى أخرى وينتهزون فرصة أى حشد من الناس سواء على قارعة الطريق أم فى السوق العامة ليفضوا اليهم بتعاليمهم •

وقد كان مفروضا الا يبدأ الطلاب دراسة الفلسفة الا بعد اتمام دراستهم الثانوية ، لكن المدارس الفلسفية المختلفة لم تتفق جميعا فى الاصرار على توافر هذا المطلب ، فقد كان الأبيقوريون والشكيون يزعمون انهم لا يعلقون على ذلك أية أهمية ، على حين أن الفلاسفة الذين كانوا يعتبرون الرياضة أساسا لا غنى عنه لدراسة الفلسفة كانوا يتولون تدريس الرياضة لطلابهم اذا لمسوا فى اعدادهم نقصا أو قصورا •

---

(١) Marrou, op. cit., pp. 283 ff.

أما دراسة الفلسفة ذاتها فانها كانت تبدأ على نمط واحد فى كل المدارس باعطاء الطلاب فكرة عامة عن تاريخ الفسلفة . وكانت تعقب ذلك دراسة عامة لا لمذاهب كل مدرسة فقط بل لكل المذاهب الرئيسة الأربعة فى الفلسفة الهلينسية . وبعد ذلك كانت تبدأ المرحلة التى تدرس فيها كل مدرسة فلسفتها . وكانت الدراسة فى هذه المرحلة من شقين : يتألف أحدهما من شرح وتحليل مؤلفات مجموعة من أعلام الفلاسفة على نحو ما كان يحدث فى دراسة الشعر والخطابة . ويتألف الشق الآخر من محاضرات ومناقشات يعبر فيها الأستاذ عن آرائه الشخصية ويعالج مشكلة فلسفية أو أخرى ، ويتخذ من أحد أحداث الحياة اليومية مادة لدراسته ، أو يناقش مع طلابه ما استغلق عليهم فهمه . وهنا تتكشف ثانية تلك العلاقة الوثيقة بين الأستاذ وطلبته ، وهى التى كانت من أخص سمات التعليم العالى فى العصور القديمة . ومن الناحية النظرية على الأقل كانت دراسة الفلسفة تشمل المنطق والأخلاق والبحث فى الكون ، وهى الفروع الثلاثة التى يبدو ان أتباع أفلاطون الباكرين قسموا الفلسفة اليها وقبلتها كل المدارس الفلسفية ، وان لم تول الفروع جميعا القدر نفسه من العناية . بيد أنه بمضى الزمن احتل علم الأخلاق مكان الصدارة وان كان ذلك لم يستتبع اغفال دراسة الفرعين الآخرين .

ومن أبرز مظاهر الفلسفة فى العصر الهلينيسى ما كان بين المدارس الفلسفية المختلفة من تنافس بل عداء شديد رجعت أصداءه الرسائل الفلسفية ، وكان له أثر كبير فى الانتقاص من قدر الفلسفة ومباحثها فى أعين الكثيرين من الناس . ومن سوء حظ الفلسفة أن رجالها كانوا يحاربون فى جبهتين ، جبهة داخلية فيما بين أنفسهم وجبهة خارجية مع منافسيهم من معلمى الخطابة وأتباعهم الكثيرين ، على نحو ما مر بنا .



الفصل السابع

الحركة الفكرية في الإسكندرية



١ ـ « دار العلم » والمكتبة الكبرى :

لما كان المجال لا يتسع هنا سواء للافاضة أم لتناول كل نواحى النشاط العقلى ، فاننا سنقصر الكلام فى ايجاز عن تلك النواحى التى احتلت فيها الاسكندرية مكان الصدارة •

تختلف المصادر القديمة (١) فيما بينها على مؤسس « دار العلم » و « المكتبة الكبرى » فى الاسكندرية ، فمنها من يعتبر ذلك المؤسس بطلميوس الأول ومنها من يعتبره بطلميوس الثانى • غير أن صلة ديمتريوس الفليرى بمنشأ هاتين المؤسستين ترجح الرأى الأول لأن ديمتريوس فقد مكانته فى القصر البطلمى منذ أوائل عهد بطلميوس الثانى • ولا يبعد ان يكون بطلميوس الأول هو الذى خطا حوالى عام ٢٩٠ ق • م الخطوة الأولى فى سبيل انشاء دار العلم والمكتبة الكبرى • فقد فطن هذا العاهل الأريب الى أنه اذا كانت القوة ضرورية للذود عن حياض مملكته وبسط رقعتها ، فان رعاية العلم والأدب والفن كانت أنجع وسيلة تكسبه وسلالته المجد والخلود • ومن ثم فانه أخذ يدعو الى الاسكندرية الكثيرين من شعراء الاغريق وأدبائهم وفلاسفتهم وعلمائهم وفنانيهم • وقد كان فى طليعة ضيوفه الفيلسوفان ديمتريوس الفليرى ـ الذى أوحى بانشاء دار العلم والمكتبة ـ واستراتون الذى شارك فى انشائهما •

(١) Cf. Pauly-Wissowa-Kroll, Real encycl., s.v. Mouseion; Tarn, Hell. Cic., 1030, p. 236; C.A.H., 11, p. 21.

وقد أنشئت دار العلم على نمط مدارس أثينا الفلسفية وبخاصة أكاديمية أفلاطون وليكيوم أرسطو ، لكن معهد الاسكندرية فاق سائر معاهد العلم القديمة الى حد أن ذكره دون تخصيص عند الكلام عن الحركة العلمية قديما لا يمكن أن يثير في الذهن ذكرى أي معهد آخر سواه . ومع ذلك فان معلوماتنا عن نظمه ومبانيه طفيفة . وكل ما يمكن أن يستمد عن ذلك من المصادر القديمة هو أن دار العلم كانت أساسا معهد أبحاث وليست معهد تعليم وتؤلف جزءا من الحي الملكي وتتألف من متنزه فسيح ومجموعة من المباني تضم قاعات للأبحاث العلمية فضلا عن قاعة للأكل وأماكن لاقامة العلماء الذين كان يتألف منهم أعضاء الدار ، وأن الملوك كانوا يدفعون لعلماء الدار مرتبات سخية ويوفرون لهم كل حاجاتهم المادية ويعفونهم من دفع الضرائب وأداء أي عمل يصرفهم عن بحوثهم (١) . وازاء سخاء البطالمة والمكانة السامية التي تمتعت بها دار العلم والنتائج الباهرة التي أحرزها رجالها ، لابد من أن يكون البطالمة قد وفروا كل الأسباب التي كانت تهيء للعلماء القيام ببحوثهم ، فكان في متناول أيديهم محتويات المكتبة الكبرى التي كانت أعظم المكتبات القديمة ، وخصصت لكل فرع من فروع العلم — مثل الفلك والتشريح والطبيعة والميكانيكا — قاعة أو أكثر زودت بما يلزم من الأدوات والآلات والأجهزة . وأما علماء النبات والحيوان فكانت لديهم حدائق فسيحة تضم مختلف أنواع النبات والحيوان ، ولاسيما النادر منها .

واذا كنا لا نعلم عن يقين فروع المعرفة التي كان يمثلها أعضاء الدار ، فاننا نستخلص من الدور الذي قامت به الاسكندرية في الحركة العلمية أن كل فروع العلم كانت ممثلة في هذا المعهد الجليل الذي استمر يباشر خدمة العلم الى عهد متأخر في العصر الروماني باستثناء الفترة القصيرة التي اضطهد فيها بطلميوس الثامن يورجتيس الثاني علماء الاسكندرية وفنانيها ،

---

(١) Strab., XVII, 793-4.

لأن الكثيرين منهم كانوا يعطفون على أخيه وأخته فى أثناء النضال على العرش فاعتبرهم أعداءه وصب عليهم جام غضبه • ويحدثنا أحد المصادر القديمة بأنه نتيجة لذلك تشرد فى أنحاء العالم الاغريقى الكثيرون من علماء الاسكندرية وفنانيها فبعثوا نهضة علمية وفنية فى كل الأماكن التى فروا اليها (١) ، مما حدا بكثيرين من المحدثين الى تشبيه هذه النهضة بحركة احياء العلوم والآداب التى قامت فى أوروبا عقب سقوط القسطنطينية فى يد الاتراك وتشرد علمائها فى أرجاء أوروبا • واذا كان هذا الملك قد قسا على علماء الاسكندرية فى شبابه فانه عطف عليهم فى كهولته وأجرى عليهم مرتبات باهظة (٢) ، وتحمل نفقات بعثة خرجت لاستكشاف الهند تحت اشراف الجغرافى يودوكسوس (٣) • وكان من جراء هذا العطف أن عاودت دار العلم سيرتها الأولى وتابعت نشاطها العلمى أمدا طويلا بعد ذلك •

ولا يمكن المبالغة فى أثر معهد الاسكندرية فى تقدم العلوم ، اذ أنه بفضل انشائه وما تمتع به من سخاء البطالمة ورعايتهم المستنيرة أمكن تنظيم البحث العلمى الجماعى لأول مرة فى التاريخ وتوفير مطلق الحرية للعلماء فى متابعة بحوثهم دون أى توجيه أو ضغط سياسى أو دينى أو قومى ، ودون توخى أى هدف سوى البحث عن الحقيقة • وفى كنف هذه الظروف انطلق العلماء فى بحوثهم وأفادوا من كل ثمار البحوث السابقة سواء أكانت اغريقية أم مصرية أم بابلية فأحدثوا نهضة علمية باهرة لم يشهد العالم لها مثيلا من قبل (٤) •

لكنه قبل أن نتتبع هذه النهضة يجب أن نقف هنيهة لنلقى نظرة عاجلة على المكتبة الكبرى التى كان لها نصيب كبير فى هذه النهضة ، فمن

---

(١) Athen., IV, 148 b; Cf. Suidas s.v. Aristarchos.

(٢) Athen., XII, 552 C.

(٣) Strab., II, 98-102.

(٤) Sarton, Hell. Science and Culture in the last Three Cent. B.C., p. 34.

المعلوم أن المكتبة جزء أساسى من كل معهد علمى ولا غنى عنها سواء للفلكى والطبيب أم للمؤرخ والأديب • غير أنه على حين كانت دار العلم مركز البحوث العلمية ، كانت المكتبة الكبرى مركز الدراسات الانسانية • وقد كانت المكتبة الكبرى مثل دار العلم تقع فى الحى الملكى وتتمتع بسخاء البطالمة ورعايتهم ، فقد حرصوا على أن يزودوها بأنفس المؤلفات وأن يسندوا الاشراف عليها الى علماء مبرزين •

واذا كان بطلميوس الأول هو الذى وضع نواة المكتبة الكبرى بما جمعه من كتب ، فان بطلميوس الثانى كلأها برعايته فنمت سريعا الى حد أنه عند منتصف القرن الثالث قبل الميلاد أى قبل نهاية حكمه ، ضاق المبنى الأصلى للمكتبة بما فيه من كتب مما استوجب انشاء مكتبة ثانية فى معبد السرابيوم تعرف باسم المكتبة الصغرى وأودع فيها ٤٢٫٨٠٠ مجلد لعلها كانت نسخا مكررة رؤى نقلها من المكتبة الكبرى ، وذلك من ناحية لايجاد مكان فيها لكتب أخرى أجدر بالاقتناء ، ومن ناحية أخرى لتوفير مكتبة ثانية يستطيع القارىء التردد عليها •

وقد اقتفى بطلميوس الثالث خطوات أبيه وجده فى جمع الكتب واستخدم فى ذلك وسائل لايمكن ان يقره عليها أحد اليوم ، فقد أصدر أمرا يحتم على كل القادمين من الخارج ان يسلموا عند وصولهم الى الاسكندرية كل ما معهم من كتب لايداعها فى المكتبة اذا لم تكن من بين مقتنياتها ، على ان تنسخ صورة من كل منها تعطى لأربابها بدلا من النسخ الأصلية • ويروى أيضا أنه استعار من أثينا النسخ الأصلية لمؤلفات « ايسخولوس » و « سوفوكليس » و « يوريبيديس » من أجل نسخها وقدم ضمانا ماليا يقدر بحوالى ٦٠٫٠٠٠ جم لكنه آثر على ذلك المبلغ استبقاء النسخ الأصلية ورد نسخ جديدة بدلا منها (١) •

---

(١) Sarton, op. cit., pp. 143-4; Bell, Egypt, P. 54.

وتتفاوت تقديرات المصادر القديمة لعدد الكتب التى كانت تحويها كل من المكتبتين الكبرى والصغرى (١) • ومن العسير الوقوف على الحقيقة ، لأنه قلما يعرف الفترة التى تشير اليها هذه المصادر ، ولا اذا كانت هذه التقديرات تتضمن محتويات المكتبتين أم المكتبة الكبرى فقط • ولعل أقرب هذه التقديرات الى الحقيقة تقدير العالم البيزنطى تزتزس الذى يذكر انه كان يوجد فى المكتبة الصغرى ٤٢٫٨٠٠ مجلد وفى المكتبة الكبرى ٤٠٠٫٠٠٠ مجلد مختلطة و ٩٠٫٠٠٠ مجلد غير مختلطة ، ثم يضيف الى ذلك ان كاليما خوس هو الذى وضع فيما بعد فهارس الكتب • ويستخلص من العبارة الأخيرة أن رواية هذا العالم البيزنطى تنصب على فترة باكرة فى تاريخ مكتبتى الاسكندرية • ويبدو أنه كان يقصد بعبارة « مجلدات غير مختلطة » لفافات من الأوراق البردية تحتوى كل منها كتابا واحدا صغير الحجم أو جزءا من كتاب كبير ، وبعبارة « مجلدات مختلطة » لفافات بردية ضخمة تحتوى كل منها كتابين أو أكثر أو عدة أجزاء من كتاب كبير • وبمضى الزمن نقص عدد المجلدات المختلطة تدريجا نتيجة لنسخها فى لفافات بردية أصغر حجما نظرا لأنها أيسر فى الاستخدام وفى الصيانة مما أدى الى شيوع هذا النظام • ولذلك فانه عندما أهدى انطونيوس الى كليوباترة مكتبة برجام ليعوضها عن الكتب التى احترقت فى عهد قيصر ، تحدثنا المصادر القديمة بأن الهدية كانت تتألف من ٢٠٠٫٠٠٠ مجلد غير مختلطة (٢) •

وتحدثنا المصادر القديمة بأنه عندما أحرق قيصر الأسطول المصرى فى خلال حرب الاسكندرية ارتفع اللهب بشدة حتى امتد الى رصيف الميناء وأحرق المبانى المجاورة له (٣) • ويروى بلوتارخ أن المكتبة الكبرى

(١) Cf. Sarton, op. cit., p. 149.

(٢) C.A.H., VII, pp. 252-3.

(٣) Florus, II, 13, 39.

كانت من بين هذه المبانى (١) • ويؤيد ذلك أديب معروف بسعة اطلاعه وهو أولوس جلوس (٢) • ويؤكد سنكا ، وهو الذى استمد معلوماته من لفيوس ، ان عدد الكتب التى التهمتها النيران كان يبلغ ٤٠٫٠٠٠ أو على الأرجح ٤٠٠٫٠٠٠ مجلد (٣) • ويبدو أن الرقم الأخير هو الأرجح لأن أوروسيوس الذى اعتمد أيضا على لفيوس يخبرنا بأن عدد الكتب التى احترقت كان ٤٠٠٫٠٠٠ مجلد (٤) •

ان كثيرين من المحدثين يضربون بأقوال بلوتارخ وجلوس وسنكا وأوروسيوس عرض الحائط ولايعتقدون أن المكتبة الكبرى هى التى ذهبت عندئذ طعما للنيران ، بل يعتقدون ان النيران لم تلتهم الا كتبا كانت مخزونة مؤقتا بالقرب من الميناء لنقلها الى روما ، أو على الأكثر مخازن المكتبة الكبرى (٥) • وأهم ما يستند اليه هذا الرأى هو أنه لم يرد ذكر لحادث هام مثل حرق المكتبة الكبرى فيما كتبه قيصر ولا مؤلف تاريخ حرب الاسكندرية ولا استرابون ولا شيشرون ولا لوكينوس • لكن رأيا يستند الى صمت بعض المصادر عن أى حادث لايمكن أن يرجح رأيا يستند الى رواية بعض المصادر المحترمة ، ولاسيما اذا كان يمكن تفسير صمت المصادر التى أغفلت ذكر ذلك الحادث تفسيرا معقولا • ولاشك فى أن قيصر قد أغفل ذكر هذا الحريق لأنه كان حادثا مؤسفا تسبب هو فيه ، وان كان ذلك عن غير قصد منه • ويضاف الى ذلك أن ما كتبه قيصر لم يكن تاريخا بل مذكرات لم يرد بها سرد جميع الوقائع بقدر ما أريد بها تبرير تصرفات قيصر • وقد كان طبيعيا أن يغفل مؤلف

---

(١) Plut., Caes., 49.

(٢) Gell., VII, 17, 3.

(٣) Seneca, Tranq. An., IX, 5 (ed. Hermes).

(٤) Oros., VI, 15, 31.

(٥) راجع ابراهيم نصحى ، مصر فى عصر البطالمة ، ١٩٦٦ ، الجزء الرابع ، ص ٢١٣ حاشية رقم (١)

تاريخ حرب الاسكندرية هذا الحريق لأنه وقع قبل الفترة التى تبدأ فيها حوادث كتابه . واذا سلمنا جدلا بأن كل مراسلات شيشرون قد وصلت الينا ، فاننا نعتقد أنه كان طبيعيا أن يتناسى شيشرون حادثا لابد من ان قيصر كان يرجو أن يتناساه جميع الناس ، وذلك لأن شيشرون كان يحاول كسب ود قيصر بعد النصر الذى أحرزه فى موقعة فارسالوس . ويبدو ان استرابون لم يذكر هذا الحريق فى كتابه الذى وصل الينا ، لأنه كتاب جغرافى ، ولعله قد ذكر هذا الحادث فى كتابه التاريخى الذى لم يصل الينا . أما صمت لوكيانوس عن هذه المسألة فانه اذا كان لا يرجع الى رغبته فى اغفال ذكر حادث كان لا يشرف مواطنيه ، فلابد من انه يرجع الى انه توفى قبل اتمام ونشر كتابه العاشر .

ومن الحجج التى يتذرع بها أصحاب الرأى المناقض لرواية بلوتارخ ومن نحا نحوه من الكتاب القدماء أنه من المستبعد أن المكتبة الكبرى كانت قريبة من الميناء الى هذا الحد . ولكن وصف استرابون يقضى على هذا الزعم ، فهو يحدثنا بأن ذلك الجزء من القصور الملكية ، الذى لم يقع على رأس لوخياس ، كان ملاصقا للميناء ، وأن دار العلم ــ وتبعا لذلك المكتبة الكبرى اذ لابد من انها كانت قريبة من الدار ان لم تكن متصلة بها ــ كانت تكون جزءا من القصور الملكية (١) . ولما كان عدد الكتب التى التهمتها النيران فى هذا الحريق كبيرا ، فانه لايمكن قبول الرأى القائل بأنها كانت مخازن المكتبة الكبرى ، اذ يصعب ان نعتقد ان هذه المخازن كانت تضم ٤٠٠٫٠٠٠ أو حتى ٤٠٫٠٠٠ مجلد .

ولم يبق اذن الا الرأى القائل بأن الكتب التى احترقت كانت كتبا مخزونة مؤقتا فى الميناء استعدادا لنقلها الى روما . وهذا الرأى مردود لأنه لا يمكن أن نتصور ان قيصر وهو فى ذلك المركز الحرج ، بسبب قلة

---

(١) Strab., XVII, 793.

رجاله وتفوق عدوه عليه مما دفعه الى احراق الأسطول المصرى ، كان يسمح لنفسه حتى بالتفكير فى مثل هذا العمل • وازاء ذلك نميل الى الاعتقاد بأن الحريق قد امتد الى المكتبة الكبرى وقضى عليها ، ولهذا السبب عوض أنطونيوس كليوباترة عن تلك الخسارة الفادحة بأن أهدى اليها ٢٠٠،٠٠٠ مجلد من مكتبة برجام (١) ، وبذلك أصبحت المكتبة الكبرى ثانية كعبة الباحثين والمطلعين حتى راحت ضحية أعمال التخريب التى قام بها جنود زنوبيا عندما دخلوا الاسكندرية ، كما راحت مكتبة السرابيوم ضحية للصراع بين المسيحية والوثنية عندما أصبحت المسيحية الدين الرسمى للدولة ، وأمر الامبراطور ثيودوسيوس (٣٧٩ - ٣٩٥ ق م) بتدميرها بوصفها معقلا للآراء الهدامة • ويحدثنا أوروسيوس بأنه لم يعد لهذه المكتبة وجود فى عام ٤١٦ ، أى قبل الفتح الاسلامى بأكثر من قرنين • ومن ثم فان اتهام المسلمين باحراق مكتبة الاسكندرية لايستحق الوقوف عنده لتفنيده • وحسبنا ما يقوله جورج سارتون فى هذا الصدد « وفضلا عن ذلك فان الكتب الوثنية كانت أشد خطرا على المسيحيين الذين كانوا يستطيعون قراءتها منها على المسلمين الذين كان يتعذر عليهم قراءتها على الاطلاق » (٢) (لعدم المام المسلمين اذ ذاك باللغة الاغريقية) •

وقد أسدى العلماء الذين عينهم البطالمة فى المكتبة الكبرى خدمات جليلة للعلم ، اذ أنهم لم يقصروا عنايتهم على وضع فهارس للكتب بل وضعوا أسس علوم التصنيف وتحقيق النصوص والنقد الأدبى ، وابتكروا العلامات الصوتية ، وكذلك علامات الاستفهام وما اليها من فواصل الكلام • وقد عكف زنودوتوس (Zenodotos) أول أمين للمكتبة الكبرى ومساعداه الاسكندر الايتولى وليكوفرون الآيوبى ، على جمع وتصنيف وتحقيق ونقد الشعر الاغريقى ، فأخذ زنودوتوس لنفسه نصيب الأسد : هومروس،

(١) Cf., Graindor, La Guerre d'Alex., pp. 53-7.

(٢) Sarton, op. cit., p. 156.

وهسيودوس وبعض أشعار بينداروس واناكريون ، بينما عهد الى الاسكندر بالتراجيديا والى ليكوفرون بالكوميديا • وكان علماء الاسكندرية عند دراسة أى مؤلف يهتمون أولا بتحقيق النص ثم بشرح لغته وبعد ذلك بتفسير الموضوعات التى يتناولها • وترينا مقارنة نصوص الأشعار الهومرية التى نشرها على التوالى أعظم نقاد الأدب فى عصر البطالمة ، وهم زنودوتوس وريانوس واريستوفانيس البيزنطى وأريستارخوس الطريقة التى كان يتبعها أولئك العلماء ، كما ترينا ان فن النقد القديم قد تقدم بمضى الزمن ، اذ أن آخرهم يعتبر أعظم ناقد للأدب فى العصور القديمة • وقد استخدم اريستوفانيس وخلفاؤه هذه المهارة فى دراسة فنون الشعر الأخرى ، وكذلك فى النثر لكنهم لم يصيبوا فى هذا المضمار الأخير ما أصابوه من التوفيق فى الشعر • ويرتكز النقد الاسكندرى بمعنى الكلمة على قواعد ثابتة أكيدة تخالف تماما قواعد نقد الرواقيين ، ذلك النقد التخيلى الذى ظهر فيما بعد فى برجام (١) • ويعزى الى علماء الاسكندرية فضل تحقيق الأشعار الهومرية والأشعار الغنائية والمسرحيات واخراجها فى صورة لا تختلف كثيرا عن التى بين أيدينا اليوم •

وقد عثر على جانب من تعليقات ديديموس الاسكندرى على مؤلفات دموستنيس وهى تعليقات قيمة تدل على سعة اطلاع هذا العالم الذى كتب عن أغلب المؤلفين الاغريق حتى يقال انه أنتج من الكتب أكثر مما أنتجه أى مؤلف قبله أو بعده ، اذ يقدر عدد مؤلفاته بثلاثة آلاف وخمسمائة مؤلف • وقد عنى بعض علماء الاسكندرية بدراسة قواعد اللغة لذاتها ، وقد كان أول كتاب عن قواعد اللغة الاغريقية من وضع ديونوسيوس التراقى تلميذ اريستارخوس (٢) •

---

(١) Jouguet, Nat. Eg., III, p. 107.

(٢) C.A.H. VII, pp. 253-4; Tarn, op. cit., pp 237-8.

وقد قام كاليماخوس بتصنيف الكتب الى ثمانية أصناف ووضع فهارس لها رتبها فى بعض الأصناف ترتيبا زمنيـا وفى البعض الآخر ترتيبا ابجديا اما للموضوعات واما للمؤلفين • وكانت الفهارس تتضمن فضـلا عن أسماء المؤلفين وأسـماء الكتب الجملة الأولى فى كل كتاب وعدد سطوره وترجمة أدبية موجزة (١) • ويرى بعض الباحثين أن كاليماخوس تولى منصب أمين المكتبة ، لكن هذا الرأى لا يستقيم مع ما تحدثنـا به احدى البرديات (٢) من ان الذين عينـوا امنـاء للمكتبـه بعد زنودوتوس كانوا : أبولونيوس الرودسى واراتوستنيس وأريستوفانيس البيزنطى ـ وهو الذى علق على فهارس كاليماخوس ويعزى اليه فضـل تنسيق مؤلفـات أفلاطـون ـ ثم أبولونيوس مؤرخ الأدب الاغريقى (eidographos) وأريستارخوس الساموتراقى وكيداس • وازاء ذلك يرجح ان كاليماخوس كان يشغل فى المكتبة منصب مساعد أبولونيوس الرودسى الذى كان يوما تلميذه •

٢ ـ الشعر :

ولم يقتصر نشاط الاسكندرية فى مجال الشعر على القيام بدور رئيسى فى دراسة الشعر الاغريقى القديم بل شمل كذلك احياء فنون الشعر التى أهملها شعراء العصر الكلاسيكى (٣) • ولا أدل على التوفيق الذى صادفه الشعر الاسـكندرى من أثره الملموس فى كافة أنـواع الشعر الهلينيسى ، فيما عدا الكوميديا ، طوال القرن الثالث قبل الميلاد على الأقل • ومما يجدر بالملاحظة أنه على حين أن نثر العصر الهلينيسى كان نتيجة طبيعية لتطورات القرن الرابع قبل الميلاد ، نفتقد فى شعر هذا العصر مثل هذا الاستمرار • وسبب ذلك أن أعظم شـعراء العصر الكلاسـيكى وقفـوا جهـودهم على

---

(١) C.A.H., VII, p. 253; Sarton, op. cit., p. 151.

(٢) P. Oxy., 1241.

(٣) راجع ابراهيم نصحى المرجع السابق ذكره ص ٢١٦ وما بعدها •

المسرحيات وذلك على حساب فنون الشعر الأخرى ، وبلغوا بشعرهم مستوى رفيعا كان يتعذر بلوغه على من أتوا بعدهم ، ولذلك صرف أعظم شعراء العصر الهلينيسى جهودهم فى احياء الشعر غير المسرحى وذلك بروح جديدة كل الجدة •

وكانت أحب ألوان الشعر الى قلوب الاسكندريين هى الشعر الحماسى والمرثيات والشعر الغنائى والشعر السباعى والمقطوعات القصيرة • ويمتاز الشعر الحماسى الاسكندرى بالميل الى الايجاز ، وبأنه لم يعد كما كان فى الماضى مقصورا على الرواية ، فقد كان الشعراء الاسكندريون يميلون الى تخطى الحدود التى كانت فى الماضى تفرق بين ألوان الشعر المختلفة • ولذلك فان القصائد الحماسية اقتبست بعض التفاصيل من المرثيات والشعر الغنائى ، وأصبحت المرثيات تستخدم فى الرواية ، بل ان كاليماخوس استخدمها فى مختلف الأغراض ، وكذلك ظهر فى الشعر الغنائى تنوع عجيب • وقد اصطنع شعراء الاسكندرية بعض مظاهر الشعر القديم ، فان أسكليبياديس وثيوكريتوس بثا روح الحياة فى أوزان الشعر القديمة التى كان يستخدمها الشعراء فى أواخر القرن السابع وبداية السادس • واذا كان كاليماخوس قد استحدث بعض أوزان جديدة ، فانه ذهب فى أناشيده الى حد محاكاة أناشيد هومروس • ومع ذلك كله فان شعراء الاسكندرية لم يستمدوا فى العادة وحيهم من مصادر الشعر التقليدية ، ذلك أنه ليس فى شعرهم مكان للعواطف الدينية أو القومية على نحو ما عرفته العصور القديمة •

ومن العجيب أن شعراء الاسكندرية لم يعنوا بالاشادة بمجهود زملائهم علماء دار العلم ، غير أن بعض هؤلاء العلماء ألفوا القصائد عن أعمالهم مثل اراتوسثنيس الذى وضع قصيدة عن النجوم • بيد أنه كان للحركة العلمية فى الاسكندرية أثرها فى الشعر ، ذلك أن شعراء الاسكندرية

اظهروا اهتماما شديدا بتناول ما خلفته العصور القديمة من الروايات حول فجر تاريخ الاغريق ، وبخاصة تلك التى عرفت باسم القصص المحلية وأهملت الآداب القديمة شأنها ، فلم ينتشر ذكرها بين الناس لكن مقادير وفيرة منها تكدست فى المكتبة الكبرى • ولو أن أولئك الشعراء اعتمدوا على خيالهم أكثر مما اعتمدوا على مراجعهم لأصابت منتجاتهم قدرا أكبر من التوفيق • ويبدو أنه قد ساعد على هذا الاتجاه غنى مكتبة الاسكندرية واسناد مناصب فيها الى شعراء مثل كاليماخوس وأبولونيوس وليكوفرون وأريستارخوس ، اذ أنه بمضى الزمن أثر علم هؤلاء الشعراء فى شعرهم فلم يكن هناك مفر من أن تظهر ثمار قراءاتهم فى شعرهم على نحو ما يبدو فى شعر كاليماخوس وأريستارخوس بوجه خاص ، لكن هؤلاء الشعراء العلماء تخطوا أحيانا نطاق الذوق السليم فى هذه الناحية •

ومما يستوقف النظر أن فن الشعر الهلينيسى الذى نشأ فى مصر كان اغريقيا بحتا ولا يمت بصلة الى مصر أو شعبها الى حد أن تيوكريتوس عندما كان يتغنى بوصف الطبيعة ، كان لا يصف جمال الطبيعة فى مصر وانما فى جزيرة كوس أو فى مدينة سراقوسة • وقد كان الشعراء لايعرفون عن مصر ، حتى بعد ما عاشوا فيها ، الا ما قرأوه فى القصص والخرافات الاغريقية أو ما كتبه هرودوتوس وأفلاطون ، وكانوا لا يوجهون عنايتهم الى شيء من المميزات المحلية الا ما يستطيعون استخدامه فى اطراء الملك الذى يرعاهم • ومن العسير ان نجد فى أشعارهم انطباعا شخصيا ولو طفيفا عن رحلة نيلية مثلا •

وقلما نجد أثرا للحب فى أشعار الاسكندريين الغنائية أو فى مقطوعاتهم القصيرة أو فى أشعارهم التى تصور الطبيعة • ويبدى الاسكندريون اهتماما كبيرا يفوق اهتمام أسلافهم بتصوير حياة الريف ومناظره • ويصعب أن نعتبر تفسيرا شافيا لهذا الاتجاه الشعرى ما يزعمه

البعض من انه كان رد فعل طبيعي لظروف الحياة الصاخبة فى مدينة كبيرة مثل الاسكندرية ، ذلك ان كوس لم تكن عاصمة كبيرة مثل الاسكندرية ، ومع ذلك كان شعراؤها يميلون أيضا الى تصوير الطبيعة • وفضلا عن ذلك فان حياة الحضر لم تكن أمرا مستحدثا على الشعراء ، فقد عاشوا من قبل فى مدن كبيرة مثل أثينا وسراقوسة • ولعله يمكن تفسير اهتمام الشعر الهلينيسى بالطبيعة بأن الشعراء وقد أخذوا يبحثون عن مصادر جديدة لوحيهم ، دفعهم ميلهم للتجديد الى الاهتمام بناحية أخرى كان أسلافهم قد أهملوها •

وقد كان فى طليعة الشعراء الذين وفدوا على الاسكندرية فيلتاس من كوس وكان أستاذ بطلميوس الثانى وزنودوتوس ـ وهو لم يكن شاعراً فحسب بل فقيها كذلك ويمكن وصفه بأنه مؤسس مدرسة الشعر الاسكندرى •

ويعتبر كاليماخوس أبرز شعراء الاسكندرية فى عصره • وقد ولد فى قورينى حوالى عام ٣١٠ ق • م ثم هاجر بعد ذلك الى الاسكندرية حيث نلقاه لأول مرة يقوم بالتدريس فى ضاحيتها المشهورة اليوسيس • ولعل مقطوعاته القصيرة التى ألف أغلبها فى ذلك الوقت هى التى لفتت نظر القصر البطلمى اليه • وعلى كل حال فانه عهد اليه بمنصب كبير فى المكتبة الكبرى حيث قضى الشطر الأوسط من حياته فى وضع الفهارس التى سلفت الاشارة اليها • ولم يشغله ذلك عن صناعة الشعر ، فقد استمر ينظم الشعر حتى أواخر حياته ، واشتبك مع أبولونيوس الرودسى فى نزاع أدبى مرير يعتبر أعظم نزاع من نوعه فى العصر الهلينيسى ، ومع ذلك لا نعرف سببه عن يقين •

ويستخلص البعض من قول كاليماخوس « الكتاب الكبير شر كبير » أنه كان لا يحب الاطالة فى القصائد ، لكنه لا يبعد أنه لم يقل ذلك بوصفه

شاعرا وانما بوصفه مصنفا للفهارس ، فان قصيدته « الأسباب » ، وكانت تتألف مما يزيد على ٣٠٠٠ بيت من الشعر ، كانت « كتابا كبيرا » • ولعل ما كان يزعج كاليماخوس هو الاطالة فى موضوع واحد ، ولذلك فانه كان ينصح اما باختيار موضوع واحد محدد واما بالانتقال سريعا من موضوع الى موضوع • وقد نحا هذا النحو فى قصيدة « الأسباب » التى تعتبر أهم قصائده ، وهى مزيج من المعلومات التاريخيـة والجغرافيـة والميثولوجية ، لكنها تفتقر الى الحبكة التى تكسبها طابع الوحـدة • وتعتبر قصيدة هيكلى (Hecale) مثل كاليماخوس الأعلى للشعر الحماسى •

ويحدثنا القدماء بأنه ألف ٨٠٠ كتـاب ، لكنه لم يصل الينا من نثره الا قطع متفرقة ، ولا من شـعره سوى المقطوعات القصـيرة والأناشيد • ويلاحظ أنه اقتفى فى خمسة من أناشيده أثر الأناشيد الهومرية مع ادخال بعض التعديلات التى تجعلها متمشية مع روح العصر ، وأنه فى اثنين منها على الأقل أعطى للنشـيد طابعا سياسيا ، فقد وصف نشيده لزيوس بأنه بيان عن حق الملوك الالهى ، ونشيده لأبولو بأنه محاولة لاقناع قورينايئة بقبول سيادة بطلميوس الثالث • ويلاحظ أن أناشيده تخلو من العواطف الدينية الحقيقية ، لكنها تفيض بالأوصاف البـارعة والتصويرات الرائعة • وتريا بقايا أشعار كاليماخوس الغنائية تنوعا عجيبا فى الأوزان والموضوعات، وأهمها نشيد أرسينوى • وقد ألف كاليماخوس كذلك الكثير من المرثيات أفضل المعروف منها قصيدة « جدائل شعر برنيقى » •

ولم يولد فى مصر شـاعر هلينيسى من الطراز الأول الا أبولوينوس الذى أطلق عليه لقب الرودسى لأنه استقر فى رودس وأصبح أحد مواطنيها بعد أن طرده بطلميوس الثالث من منصب أمين المكتبة الكبرى ، لكنه كان فى الأصل من أبناء نقراطيس أو الاسكندرية • وقد اتبع أبولونيوس أساليب عصره فى عدة قصائد الفها عن تاسيس المدن ، لكنه تحدى هذه الأساليب

فى أعظم قصائده وتعرف باسم أرجوناوتيكا (Argonautica) وهى تتألف من ٥٨٣٥ بيتا من الشعر ، ويعيبها ضعف تصوير الشخصيات وافتقارها الى الوحدة ، غير أن بها نواحى ممتازة كثيرة أهمها قوة التحليل النفسانى وروعة وصف الطبيعة •

ومن أشهر شعراء القرن الثالث ثيوكريتوس الذى أخذ جانب كاليماخوس فى النزاع الذى نشب بينه وبين أبولونيوس • ونلمس فى أشعاره أثر نصائح كاليماخوس الذى كان يوصى بتنوع الموضوعات ونظم القصائد القصيرة • وقد ولد ثيوكريتوس فى سراقوسة ، وذهب فى شبابه الى كوس حيث كان أحد أفراد جماعة فيلتاس ، لكننا نلقاه ثانية فى سراقوسة عقب عام ٢٧٥ ق • م حيث حاول كسب رعاية ملكها هيرو (Idyll XVI) وعندما أخفق فى ذلك رحل الى الاسكندرية حيث ألف أرجوزة تدعى « نساء سراقوسة » (Idyll XV) وأرجوزة أخرى فى مدح بطلميوس الثانى (Idyll XVII) ، لكنه لم يكن لهذا الشاعر ولع شديد بحياة القصور والمكتبات ، اذ أنه سرعان ما برح الاسكندرية لينعم بحياة الريف بقية حياته فى كوس أو بجوارها حيث استمر فى صناعة الشعر • واذا كان هذا الشاعر قد أغرم بشعر الريف وصادف فيه نجاحا كبيرا الى حد أنه اطلق عليه لقب « أبو شعر الريف » فان شعره ونجاحه لم يقتصرا على هذا اللون • فقد أصاب ثيوكريتوس نجاحا كبيرا كذلك فى أراجيزه الفكاهية عن حياة الحضر ، حتى ان احداها (Idyll II) تعتبر أعظم ما أنتجه هذا الشاعر •

ومن أشهر شعراء الاسكندرية الذين ألفوا الأراجيز الفكاهية شاعر يدعى هرونداس ، وكان فيما يبدو من أبناء أيونيا لكنه عاش فى كوس وكذلك فى الاسكندرية وكان من معاصرى كاليماخوس لكنه لم يحشر فى زمرته المختارة • وهذه الأراجيز الفكاهية تصور عادة أحداث الحياة اليومية •

ويتصل بهذا اللون من الشعر قصائد الهجاء وهى تفيض بفحش القول ، مثل القصيدة التى نظمها سوتاديس بمناسبة زواج بطلميوس الثانى من أخته أرسينوى وكوفىء عليها هذا الشاعر باغراقه فى البحر ، أو بالقائه فى غياهب السجن .

واذا كان العصر الذهبى للشعر الاسكندرى لم يعمر الا نحوا من نصف قرن يمتد من حوالى عام ٢٩٠ ق . م . فان الشعر الذى يصور حياة الريف بقى منتعشا حتى القرن الأول قبل الميلاد . فقد حمل رسالة ثيوكريتوس الشاعر موسخوس تلميذ أريستارخوس ، والشاعر الأزميرى بيون الذى ولد قبيل بداية القرن الأول قبل الميلاد ، لكنهما لم يبلغا ما بلغه ذلك الشاعر العظيم . ولم يكن خليفة ثيوكريتوس الحقيقى شاعرا اغريقيا وانما الشاعر الرومانى فرجيليوس .

٣ - النثـــر :

ويبدو كأن الشعر استنفد طاقة أدباء الاسكندرية فلم يزدهر فيها من ألوان النثر الا النثر العلمى كالتاريخ والجغرافيا والطب والتاريخ الطبيعى والعلوم الرياضية . وقد كان التاريخ يحتل مكان الصدارة فى النثر الاسكندرى . واذا تركنا الأسلوب جانبا ، فاننا نلاحظ أن المؤرخين قد تأثروا بعاملين كان لهما أسوأ الأثر فى افســاد مؤلفاتهــم . أما العامل الأول فهو أثر المشائين (١) اذ أن غرامهم بجمع المعلومات كما هى أفضى الى الخلط بين الحقائق والقصص دون أى تمييز . وقد كان أهم ما اختص به المشاءون كتابة تاريخ حياة الأفراد البارزين لكنه كان يشوه هذه التواريخ عادة المزج بين الحق والباطل . وأشهر مؤرخى حياة الأفراد فى الاسكندرية فى خلال القرن الثالث اثنان كان أحدهما يدعى ساتوروس (٢) والآخر هرميبوس . وقد

(١) C.A.H., VII, p. 255.

(٢) عثر فى البهنسة على جزء يسير مما كتبه هذا المؤرخ عن حياة الشاعر الأثينى يوريبيديس انظر P. Oxy., IX, 1176.

اقتفى أثر هذين المؤرخين كثيرون من المؤرخين الاسكندريين الذين كدسوا عن حياة الأفراد معلومات وفيرة لكنها خليطة حتى أنه عندما استخدمها بلوتارخ فى كتابة تواريخه « مشاهير الرجال » امتزج فيها الحق بالباطل الى حد تعذر معه التمييز بينهما (١) • اما العامل الثانى فهو أثر أيسقراط وتلاميذه ، وقد كانوا يختلقون الوقائع لكى يكون أثر الأحداث فى النفس عميقا ، أو يحورون الحقائق ليكون لها مغزى ظاهر •

ويعتبر كلايتارخوس أبرز مثل لمؤرخى الاسكندرية الذين تأثروا بمدرسة أيسقراط ، فانه كان كاتبا قديرا يقدس البطولة وعلى شىء من الخيال • وقد كتب فى بداية القرن الثالث تاريخ الاسكندر الأكبر ، واعتمد فيه الى حد على أفضل الروايات المتواترة والى حد أكبر على كالسثنيس وعدد من المؤرخين المتواضعين والكثير من القصص الشائعة • وقد شغف الناس بقراءة هذا التاريخ كما يشغفون بقراءة الروايات ولعله كان يشبهها ، فلا عجب أنه احتل مكانة رفيعة مدة أربعة قرون ونصف قرن الى أن وضع أريانوس كتابه عن الاسكندر واعتمد فيه على مصادر أكثر روية وتدقيقا • ولانعرف كتاب كلايتارخوس الا عن طريق ما كتبه ديودوروس وكورتيوس اللذين اعتمدا عليه فيما كتباه عن الاسكندر الأكبر (٢) •

ومن حسن الحظ أنه فى الوقت الذى خضع فيه التاريخ لتلك المؤثرات التى أفسدته وجد أشخاصا يميلون الى الحقيقة ، مثل بطلميوس الأول الذى استمد معلوماته فيما كتبه عن الاسكندر من الوثائق الرسمية ومن مذكراته ومشاهداته الخاصة ، فكان كتابه تاريخا فريدا فى بابه اذ ذاك ، لكنه مع الأسف لم يصل الينا الا بعضه عن طريق أريانوس الذى اعتمد عليه • وفى عهد بطلميوس الأول كتب هكاتايوس من تيوس عن تاريخ مصر من وجهة

---

(١) Tarn, op. cit., pp. 255-6.

(٢) J.H.S., 1923, p. 95; Tarn, p. 249; C.A.H, VII, p. 258.

نظر الاغريق (١) • وحوالى عام ٣٠٠ ق • م • وضع بالاغريقية تقويم السنة والأعياد المصرية ، يعرف باسم « تقويم سايس » (٢) •

أما التاريخ المصرى الوحيد الذى يمكن ان يوثق به ويرجع الى ذلك العصر فهو ما كتبه مانثون كبير كهنة هليوبوليس ، واعتمد فيه على الوثائق المصرية واهداه الى بطلميوس الثانى (٣) •

وقد كان للجغرافيا مكان بارز فى النثر الاسكندرى الى حد أن ما كتبه فيها العالم الجغرافى أراتوسثنيس (٤) يعتبر أعظم مثل للنثر الاسكندرى • وقد خلف هذا العالم أبولونيوس الرودسى فى منصب أمين المكتبة الكبرى ، وكانت سعة اطلاعه فى مختلف الفنون والعلوم مضرب الأمثال ، فانه كتب فى الشعر والفلسفة وفقه اللغة والتاريخ والجغرافيا ، لكن مؤلفاته فى العلمين الأخيرين فاقت سائر ما كتبه • وأهم مؤلفاته فى التأريخ كتاب كبير يدعى « علم التأريخ » (Chronographiae) كان له أثر طويل الأمد فيمن اشتغلوا بهذا العلم بعده • ويعزى ما أصابه اراتوسثنيس من النجاح الكبير فى علم الجغرافيا الى مقدرته فى الرياضة ، وأهم مؤلفاته فى الجغرافيا كتابان كان أحدهما بحثا فى قياس أبعاد الكرة الأرضية ، والآخر كتابا فى ثلاثة أجزاء يدعى « علم الجغرافيا » • وقد قدر فى الكتاب الأول محيط الكرة الأرضية تقديرا يثير الاعجاب لشدة قربه من التقدير الصحيح الذى توصل اليه العلماء فى العصر الحديث (٥) • وتتبع فى الجزء الأول من كتاب علم الجغرافيا تاريخ جغرافية بلاد الاغريق منذ هومروس حتى عصر الاسكندر ، وفسر الأشعار الهومرية تفسيرا يخالف التفسير التخيلى الذى نشره الرواقيون بين الناس • وقد أثبت فى الجزء الثانى آراءه عن شكل

---

(١) Tarn, p. 254.

(٢) P. Hibeh, I, 27.

(٣) C.A.H., VII, p. 260; Tarn, p. 254.

(٤) Pauly-Wissowa-Kroll, Real — encycl., S.V. Eratosthenes.

(٥) Sarton, p. 105.

الأرض وحجمها وطبيعة المحيط ومداه • واما الجزء الثالث فهو جغرافية وصفية للعالم وفق الخريطة التى وضعها له ، وفيها قسم العالم المأهول بالناس ـ بخط يمتد من قادس حتى أواسط آسيا ـ الى نصف شمالى ونصف جنوبى يتألف كل منهما من عدة مناطق • وتمثل بعض النتائج التى توصل اليها حلا وسطا بين الماضى والحاضر ، مما أثار عليه نقد العالم المدقق هيبارخوس الذى عاش فى القرن الثانى قبل الميلاد • وقد أصبحت الجغرافيا على يدى هذا العالم واتباعه علما لا يتناوله الا المتخصصون (١) • ويتصل باحدى نواحى الجغرافيا الكتاب الذى وضعه « عن الموانى » تيموسثنيس قائد اسطول بطلميوس الثانى • وقد أدى هذا الكتاب خدمة جليلة للملاحة فى العصر الهلينيسى (٢) •

والى جانب الكتب العلمية ظهرت كتب شعبية طريفة أو على الأصح روايات مسلية تمت بصلة الى التاريخ أو الجغرافيا • ونجد من النوع الأول مقادير وفيرة تتناول الأساطير والقصص مثل اسطورة اينياس وقصة تأسيس روما • ومن أروع القصص الجغرافية قصص الأسفار ، كالقصة التى وضعها أنتيفانيس عن اقليم بارد الى حد انه فى الخريف كان الكلام يتجمد فى الهواء فلا يصل الى السمع الا عندما يذوب فى الربيع • وقد كانت كذلك من أحب الكتب فى هذا العصر المؤلفات التى تتناول العجائب أو الغرائب فى الطبيعة كالحيوانات أو النباتات أو الأنهار الغريبة (٣) •

٤ ـ الطب والجراحة (٤) :

وقد بلغت العلوم الاغريقية شأوا بعيدا فى العصر الهلينيسى بعد

---

(١) C.A.H., VII, pp. 262-4.

(٢) Tarn, pp. 257-8.

(٣) C.A.H., VII, p. 264.

(٤) راجع ابراهيم نصحى ، مصر فى عصر البطالمة ١٩٦٦ الجزء الرابع ، ص ٢٢٦ وما بعدها •

الخطوات الموافقة التى خطتها قبل ذلك العصر ، اذ أن أبقراط وضع فى القرن الخامس قواعد علم الطب ، والفيثاغورثيين وأفلاطون ومدرسته ارتقوا بالهندسة الى مستوى عال • وفضلا عن ذلك فان أرسطو وضع قواعد البحث العلمى وقطع شوطا بعيدا فى فصل العلم عن الفلسفة • وملوك العصر الهلينيسى كلأوا العلماء برعايتهم فقامت حركة علمية نشيطة أفضت الى تقدم العلوم فى هذا العصر تقدما لم يشهد العالم له مثيلا الا فى العصر الحديث • فلا عجب اذن انه حين حقق علماء الأدب والتاريخ والجغرافيا نتائج جليلة أحرز علماء الطب والرياضة والفلك انتصارات باهرة أدت الى تقدم العلوم تقدما محسوسا • ولم تكن الاسكندرية عاصمة الأدب فحسب فى العالم الهلينيسى بل كانت كذلك عاصمته العلمية •

وقد تقدم علم التشريح بوجه خاص تقدما كبيرا ، وما أوسع الشقة بين ما قام به علماء الاسكندرية فى هذه الناحية وبين مدرسة أبقراط • وكان أبرز علماء الطب فى الاسكندرية هيروفيلوس العالم فى التشريح واراسيستراتوس العالم فى الفسيولوجيا • وهيروفيلوس هو صاحب الفكرة القائلة بأن الشرايين تحمل دما لا هواء كما كان يظن ، وانها لا تنبض من تلقاء نفسها وانما من القلب وبذلك كشف فعلا الدورة الدموية ، لكن هذا الكشف الجليل أهمل من بعده وأسدل عليه ستار النسيان الى أن بعثه هارفى الى عالم الوجود • وقد وجه هيروفيلوس عناية كبيرة الى ضربات النبض • وكان يستخدم أداة بديعة لتقدير سرعة النبض ، ولعل هذه كانت أولى المحاولات للحصول على تقديرات دقيقة • وكان هيروفيلوس يستخدم العقاقير على نطاق أوسع من أبقراط ومدرسته • وكان طبه طب الأمزجة ، وهى الدم والبلغم والصفراء والسوداء ، وكان يرى أن تغيرها يسبب كل الأمراض • وقد كانت أبحاثه التشريحية تدور حول المخ والأعصاب والكبد والرئتين وأعضاء التناسل • ويبدو من النتائج التى توصل اليها انه لم يقم بتشريح الحيوان فحسب بل الانسان أيضا • وتؤكد الروايات

القديمة انه كان يقوم بفحص جثث الموتى ، بل اتهم هو واراسيستراتوس باجراء التجارب على الأحياء ، اذ يقال ان البطالمة كانوا يسمحون بتشريح المجرمين • غير أن الباحثين المحدثين فى تاريخ الجراحة القديمة لا يعتقدون ان جراحى الاسكندرية كانوا يجرون تجاربهم على الأحياء ، ويعتبرون هذا الاتهام اكذوبة اخترعها المعارضون لأى نوع من التشريح • وعلى كل حال فانه يبدو جليا ان الجراحين الذين وجهت اليهم هذه التهمة كانوا يعلقون أهمية كبيرة على الفحص النظرى للاعضاء الداخلية ، ومن ثم فانه يجب اعتبارهم آباء التشريح الحديث •

وكان هيروفيلوس أول من كون فكرة واضحة عن الجهاز العصبى ، وفرق بين الأعصاب الحساسة (sensory) والأعصاب المحركة (motor) وبين المخ (cerebrum) والمخيخ (Cerebellum) ، وأسهم كثيرا فى معرفة بطين المخ ، ووجه عناية كبيرة الى التجويف الذى يوجد فى البطين الرابع • ولا يزال رجال الطب يستخدمون حتى اليوم بعض الأسماء التى أطلقها على أجزاء الجسم ، مثل « الاثنى عشر » (duodenum) وهى ذلك الجزء من الأمعاء الدقيقة الذى يلى المعدة • وقد كان لهيروفيلوس اتباع كثيرون كان من بينهم اندرياس الذى كان من أعلام الطب والطبيب الخاص لبطلميوس الرابع •

وقد عاد اراسيستراتوس ثانية الى الفكرة القائلة بأن الشرايين لاتحمل الا هواء ، لأن الهواء عامل حيوى فى أداء أعضاء الجسم ووظيفتها • وعلى الرغم مما فى هذا الاتجاه من الخطأ فانه أفضى آخر الأمر الى الكشف عن الأوكسيجين والدور الذى يلعبه فى حياة الانسان • وقد فاق هيروفيلوس فى بحوثه عن القلب والمخ وذهب الى مدى أبعد منه فى التفرقة بين الأعصاب الحساسة والأعصاب المحركة • وكان يرفض فصد الدم مفضلا عليه تناول الطعام الخفيف ، وكان لا يستخدم الا أبسط الأدوية على غرار ما كان

يفعل أتبـــاع مدرســـة أبقراط • ويضع جالنوس العالمين هيروفيلوس واراسيستراتوس بين الذين يطلق عليهم اطبـاء المدرســة الاستدلالية • وأساس الاستدلال هنا الاعتماد على علمى التشريح والفسيولوجيا فى دراسة أسباب المرض •

وحوالى عام ٢٨٠ ق • م أسس فيلينوس (١) (Philinus) مدرسة طب جديدة فى الاسكندرية تدعى المدرسة التجريبية • وقد كان فيلينوس أحد تلاميذ هيروفيلوس ، لكن مدرسـته تغاضت عن التشريح والفسيولوجيـا لأنها كانت ترى أن الطب ليس مختصا الا بعلاج الأمراض دون استقصاء أســبابها ، ولذلك فان واجب الطبيب هو أن يعطى العـلاج الذى يشفى أعراض الداء التى يراها على أن يستهدى فى ذلك بملاحظاته الشخصـية وعلمه والحالات المشـابهة • ولا يبعد أن تكون المدرسة التجريبية قد أدت للطب خدمة كبيرة بمناهضـة الميول النظـرية التى كانت على الدوام أحد مواطن الضعف فى الطب الاغريقى ، وببحث فوائد الكثير من أنواع العلاج والعقاقير • ومن أبرز أتباع المدرسة التجريبية هيراقليديس (Heraclides) وكان جراحا بارعا ووضـع كتـابا ممتازا عن العقاقير الطبية مؤكدا انه لم يذكر فيه شيئا لم يجربه بنفسه ، ومبينا فائدة الأفيون فى اللبخ والأدوية • وقد مهد الطريق للكشف عن الأدوية المخدرة بلفت النظـر الى اسـتخدام المسكنات استخداما صحيحا (٢) •

ومما يجـدر بالملاحظة أنه قد نشطت كذلك فى القرن الثالث قبـل الميلاد دراسة تاريخ الطب وبخاصة مؤلفات مدرسة أبقراط • وهذا يدل على أن شئون البحث الحديث لم تعم الباحثين عن أهمية الوقوف على نتائج البحث القديم • وقد كان من بين الذين كتبوا عن الابحاث القديمة هيروفيلوس

(١) P.W.K., Realencycl., s.v. Philinus; Galen, On Medical Experience, ed. and Transl. by R. Walzer, 1944.

(٢) P.W.K., Realencycl., s.v. Heraclides.

وتلميذاه باكخيوس وفيلينوس وكذلك جلاوكياس • ومن بين ما ظهر عن مؤلفات أبقراط رسالتان قصيرتان تتناولان بوجه خاص قواعد اللياقة فى مهنة الطب •وقد عنى فلاسفة القرن الثالث بالناحية الخلقية فى عمل الطبيب وأسهم ذلك فى تكوين آداب طبية سليمة تهدف الى رفع المستوى الخلقى للأطباء •

ويجب ان نشير أخيرا الى تقدم الطب البيطرى فى عهد البطالمة • ويعزى ذلك الى مؤسسات البطالمة أكثر منه الى مصر القديمة ، فقد كان يتعين على فرسان الجيش والمنتشرين فى المستعمرات الزراعية أن يعنوا بخيولهم تحت اشراف السلطة العسكرية وأطبائها •

٥ ـ العلوم الرياضية (١) :

وقد كانت الهندسة فى العصر الهلينيسى تحتل مكان الصدارة بين العلوم الرياضية فقد كانت تعتبر أساسها جميعا ، لأن الأرقام لم تكن قد ابتكرت بعد ، ولأن الهندسة كانت تشمل الكثير مما يعتبر اليوم علم الجبر • واذا كان للعصر الهلينيسى فضل كبير فى تقدم الهندسة فيجب ألا ننسى أن الفيثاغورثيين وأفلاطون وأتباعه وصلوا بها من قبل الى مستوى عال • واذا كان لايمكن المبالغة فى تقدير الخدمات التى أداها اقليدس للهندسة ، فانه لا يجوز اغفال مجهودات عالمين كانا يعاصرانه تقريبا وهما أوتولوقوس (Autolycus) وأريستايوس (Aristaeus) بسبب ما كان لهما من الأثر فى بحوثه • فقد كتب أوتولوكوس رسالة « عن الكون المتحرك » تناول فيها هندسة الكون مع اشارة خاصة الى الكون السماوى وما فيه من الدوائر التى تستخدم فى علم الفلك ، ولذلك فهى

(١) راجع ابراهيم نصحى ، مصر فى عصر البطالمة ١٩٦٦ حـ ٤ ص ٢٣٢ وما بعدها •

من النوع نفســه مثل رسالة اقليدس عن الظواهر الطبيعية الا أنها ليست دراســة فلكية بحتــة وان كانت أسبق منها ، لأن اقليدس افاد مما فيها من النظريات • ويدل التشابه بين نظريات أوتولوكوس والنظريات التى خلدتها بحوث اقليدس على أن هذه النظريات لم تكن من ابتكار هذا العالم الأخير • اما أريستايوس فانه وضــع كتابا من خمسة أجزاء عن القطاعات المخروطية يبين أن اقليدس استخدمه فى وضع رسالته عن المخروطات ، لكننا لا نستطيع ان نتبين الى أى مدى اعتمدت رسالة اقليدس على كتــاب ارســتايوس لأن هذين المؤلفين لم يصلا الينا •

وقد اقترن اسـم اقليدس بأشـهر مؤلفاته فى الهندسة وهو كتاب « العناصر » الذى سـبق الكلام عنه فى معرض الكلام عن دراسة الرياضة فى المدارس الثانوية بسبب الدور الذى كان هذا الكتــاب يقوم به فى تلك الدراسة • وقد وضع اقليدس كتبا أخرى لم تكن مقصورة على الهندسة ، بل شملت فروع الرياضـيات كما كانت معـروفة عندئذ • وقد بقيت من هذه الكتب أربعــة مؤلفات ، كان أحدها يتضمن نظريات من النوع نفسه الذى كان يتضمنه كتــاب العناصر • وكان الكتــاب الثــانى رســالة عن « المنظور » ، والثالث يشــمل نظريات عن الفلك ، والرابع رســالة عن عناصر الموسيقى • ولم تصل الينا مؤلفات اقليدس الأخرى ، وكان أحدها عن مبادىء الهندســة وآخــر عن المخروطات وثالث عن المسطحات ورابع عن المنشورات •

وفى عهد بطلميوس الثالث تألق نجم أبولونيوس من برجا (Perga) وهو الذى درس مدة طويلة فى الاسكندرية على خلفاء اقليدس ، ووضع كتابا من ثمانيــة أجزاء عن « المخروطات » أكســبه لقب « عالم الهندسة الأكبر » لأنه ارتقى بالهندسة البحث الى أرفع مستوى يمكن أن تصل اليه بمفردها • ذلك أنها بقيت حيث تركها أبولونيوس عدة قرون ، ولم تتقدم

عن ذلك الا في العصور الحديثة ، عندما استعان علماء الهندسة برموز الجبر وطرقه وعلم التفاضل • وليس موضع العجب أن الهندسة الاغريقية لم تصل الى أرقى ما وصلت اليه بل انها بلغت ذلك المستوى ، اذ أن العلماء الاغريق بوجه عام وأبولونيوس بوجه خاص مهدوا السبيل الى هندسة الاحداثيات • وقد كان أبولونيوس الى جانب ذلك عالما فلكيا ممتازا فقد كان أستاذا في نظريات الدوائر المتحدة المركز والدوائر المختلفة المركز باعتبارها وسيلة لتفسير حركات الكواكب •

والواقع أن علم الفلك يتصل بالهندسة اتصالا وثيقا ، وأن علماء الفلك الاغريق يدينون بشيء من الفضل غير قليل لعلماء بابل الذين جمعوا منذ عهد بعيد ملاحظات تجريبية عن الأجرام السماوية ، وأن الخريطة الاغريقية للسماء مثل الخريطة الحديثة بابلية الأصل • وقد كانت الفكرة السائدة عن الكون بين الاغريق منذ عهد يودوكسوس (حوالى ٤٠٨ - ٣٥٥ ق • م •) هي أن الشمس والقمر والكواكب تدور حول الأرض في أفلاك دائرية مركزها الأرض ، لكن هيراقليديس (حوالى ٣٩٠ - ٣١٠ ق • م •) كشف أن الأرض تدور حول محورها وأن عطارد والزهرة يدوران حول الشمس • وبعد ذلك خطا علم الفلك خطوات واسعة على يدى أريستارخوس الذى كان يعيش في القرن الثالث قبل الميلاد ويلقب بالرياضي ، للتفرقة بينه وبين الكثيرين ممن يحملون الاسم نفسه ، ويوصف اليوم بأنه كوبرنيق العصور القديمة • وقد كتب مثل أستاذه استراتون عن الرؤية والضوء والألوان ، لكن شهرته ذاعت بوصفه عالما رياضيا وفلكيا ، ووضع عدة كتب كان أشهرها عن حجم وأبعاد الشمس والقمر • وقد اقتفى أثر هيراقليديس في القول بأن الأرض تدور حول محورها لكنه ذهب الى مدى أبعد منه بقوله ان الأرض أيضا والكواكب تدور حول الشمس • وقد قام أريستارخوس ببحوث مثيرة للكشف عن

أقصى وأدنى المقاييس : (١) لقطر القمر وذلك بالنسبة الى بعده عن مركز الأرض (٢) لبعد الشمس عن الأرض وذلك بالنسبة الى بعد القمر عن الأرض (٣) لقطرى الشمس والقمر وذلك بالنسبة الى قطر الأرض • حقا ان نتائجه كانت خاطئة لكنه كان أول من اجترأ على القيام بهذه الدراسات النسبية • ولا جدال فى أن قيامه بهذه الدراسات فى عصره يثير الاعجاب ، فضلا عن أنه مهد السبيل الى معرفة الحجم الحقيقى لكل من الشمس والقمر والبعد الصحيح لكل منهما عن الأرض •

ويأتى بعد ذلك من علماء الفلك فى الاسكندرية كونون من ساموس وهو الذى أطلق على مجموعة من النجوم اسم « جدائل شعر برنيقى » تخليدا لذكرى جدائل شعر زوج بطلميوس الثالث ، ذلك أن هذه الملكة نذرت أن تضحى بجدائل شعرها اذا عاد زوجها سالما من فتوحاته فى الشرق • وفعلا عندما عاد بطلميوس الثالث جزت الملكة جدائل شعرها وقدمتها قربانا فى معبد أرسينوى أفروديتى لكنها اختفت من المعبد فرثاها كاليماخوس فى قصيدته « جدائل شعر برنيقى » ، وأذاع كونون فى الناس أن الجدائل ارتفعت الى السماء وتكونت منها مجموعة نجوم فى المثلث المكون من الأسد والعذراء والدب الأكبر • وقد كان العالم الرياضى الأشهر أرخميدس يجل كونون بوصفه عالما رياضيا ممتازا الى حد أنه كان يطلعه على ما يصل اليه من الكشوف قبل نشرها • ويقال ان كونون وضع سبعة كتب عن علم الفلك أهداها جميعا الى بطلميوس الثالث ، وانه وضع كذلك قائمة بكل كسوف للشمس شوهد فى سماء مصر •

وأما أعظم علماء الفلك فى الاسكندرية وفى العالم القديم قاطبة فقد كان يعيش فى القرن الثانى قبل الميلاد ويدعى هيبارخوس من نيقيا • ومع أنه رفض فكرة أريستارخوس القائلة بأن الأرض والكواكب تدور حول الشمس الا أنه أدى خدمات جليلة لعلم الفلك بفضل استخدام حساب

المثلثات لأول مرة استخداما منظما دقيقا • وقد كانت أعظم كشوفه تحديد الاعتدالين الربيعي والخريفي ، وتقدير طول الشهر القمرى فى المتوسط بفترة من الزمن طولها ٢٩ يوما ، ١٢ ساعة ، ٤٤ دقيقة ، ٢ ثانية ، وهو تقدير مدهش لأنه لا يقل الا بمقدار ثانية واحدة عن التقدير المقبول اليوم • ووضع هيبارخوس فهرسا بالنجوم الثابتة أثبت فيه ٨٥٠ نجما أو ما يزيد على ذلك ، وفرق بين مقدار لمعانها ، وأوضح مواقعها ، وأنشأ كرة بين عليها مواقع النجوم على نحو ما حددها ، وأدخل تحسينات كبيرة على آلات الملاحظة • وأخيرا وضع كتابا فى الجغرافيا كان أساسه نقد جغرافية اراتوستنيس ، ونادى فى هذا الكتاب بضرورة تطبيق الفلك على الجغرافيا • ولا أدل على ما يدين به العلم الى هيبارخوس من أن كشوفه بقيت مقبولة ويفيد منها العلماء حتى عهد كوبرنيق وجاليليو وكبلر • وعندما كشف نجما جديدا ظهر لأول مرة فى عهده ، أخذ يفكر فيما اذا كانت هذه الظاهرة لا يمكن أن تتكرر فى أى وقت آخر ، وهل النجوم التى تعتبر ثابتة لاتتحرك على الاطلاق • ولعله قد قصد بفهرس النجوم الذى وضعه أن يترك للأجيال المقبلة تراثا يساعدها على أن تتبين اذا كانت ثمة نجوم جديدة غيرها تظهر ، واذا كانت مواضع النجوم تتغير بالنسبة لبعضها بعضا أم لا •

وأرخميديس السراقوسى أعظم عبقرية مبتكرة بين علماء الرياضة الاغريق • وتروى عن أرخميديس نوادر كثيرة ، منها كيف أنه كشف الكثافة النوعية ذات يوم وهو فى حمام عام ، فهرع عاريا الى بيته وهو ينادى زوجه بأعلى صوته « لقد وجدتها » ، وكيف أن الوسائل الميكانيكية التى اخترعها منعت الرومان مدة طويلة من الاستيلاء على سراقوسة • ولاشك فى أنه قد اخترع لولبه لرفع الماء عندما كان مقيما فى مصر ، لكنه لم يعلق أهمية كبيرة على مثل هذه الأشياء فقد كان يعتبرها مجرد تسلية ، اذ أنه كان يتفق مع أفلاطون فى ان التطبيق العملى للنظريات أمر غير خليق بالعلماء • ولذلك فانه انصرف كلية الى البحث الرياضى

البحث ، وأمر بأن ينقش على قبره شكل يمثل أسطوانة تغلف كرة على أن تكون النسبة بينهما في الحجم والمسطح الكلى تعادل نسبة ٣ : ٢ مما يدل على أنه كان يعتبر ذلك أعظم كشوفه • ويحدثنا شيشرون بأنه رأى بنفسه كرة فلكية اخترعها أرخميديس لتقليد حركات الشمس والقمر والكواكب، وبأن هذا الجهاز كان دقيقا الى حد أنه كان يستطيع اظهار كسوف الشمس وخسوف القمر والكواكب •

ولم يصل الينا من مؤلفاته الا كتاب « عن التوازن على السطوح المستوية » وكتاب « عن الكرة والأسطوانة » وثالث « عن الحلزونات » ورابع « عن الأشكال المخروطية والكروية » وخامس « عن الأجسام الطافية » وسادس عن « قياس الدائرة » • بيد أن اهتمام العالم الاغريقى تركز بمضى الزمن على كتابين فقط من هذه الكتب وهما الكتابان الثانى والسادس ، ولذلك فان هذين الكتابين نقلا من اللهجة الدورية التى كتبا بها أصلا الى اللهجة الشائعة بين الاغريق مع ادخال بعض التعديلات عليهما ليسهل على المتدئين استيعابهما •

ويعتبر كتابه « عن التوازن على السطوح المستوية » أول رسالة علمية عن المبادىء الأولية فى الميكانيكا • وقد أثبت فيه قانون الرافعة ثم توصل الى مراكز الثقل فى الشكل المتوازى الأضلاع وفى المثلث وفى الشكل شبه المنحرف وفى قطعة من القطع المكافىء أو أى قطعة تنحصر بين المحور الأصلى وأى خط مستقيم يوازيه • وقد كشف أن مساحة قطعة من القطع المكافىء تساوى ٣/٤ من مساحة المثلث الذى يتفق معها فى القاعدة والارتفاع وبذلك وضع أساس علم التفاضل والتكامل فى اللانهاية • وقد ابتكر ارخميديس علم « استاتيكا الموائع » (Hydrostatics) ، ذلك أنه أثبت فى كتابه « عن الأجسام الطافية » أن سطح كل سائل ساكن جزء من سطح كرة تتفق فى المركز مع الأرض ، وأنه اذا طفا جسم فى سائل فان وزن

الجسم يعادل وزن السائل الذى ازاغه الجسم ، وأنه اذا وزن جسم فى سائل وكان الثقل النوعى للسائل أخف من الثقل النوعى للجسم فان وزن الجسم يكون أخف من وزنه الحقيقى بمقدار وزن السائل الذى ازاغه الجسم • وبعد ذلك بحث مراكز طفو قطعة من كرة تطفو فى سائل عندما تكون كل قاعدة القطعة فوق أو تحت مستوى سطح السائل • ثم مضى بعد ذلك فبحث كل مراكز طفو قطعة قائمة من مجسم القطع المكافىء وهى تطفو فى أوضاع مختلفة ، وذلك تبعا أولا للنسبة بين طول محور المجسم ونصف قطر القطعة ، وثانيا للثقل النوعى فى المجسم بالنسبة للسائل •

وقد سبق ان تحدثنا عن اراتوسثنيس بوصفه عالما جغرافيا والآن بقى أن نذكر عنه شيئا بوصفه عالما رياضيا ، اذ أنه ابتكر آلة ميكانيكية لايجاد الوسط العددى بين طول مستقيمين أو جملة مستقيمات • وقد وضع اراتوسثنيس نموذجا برونزيا لهذه الآلة على العمود الذى أقامه اعترافا بما يدين به من الفضل الى بطلميوس الثالث ، ونقش على هذا العمود رسم وبرهان لتأييد ما توصل اليه اراتوسثنيس • وقد وضع هذا العالم الفذ كتابا فى الرياضة اسمه « الأفلاطونى » يبدو أنه كان يتضمن بحوثا عن التناسب والتعاريف الأساسية للهندسة وقواعد الموسيقى ، وقد استخدمه ثيون الأزميرى فى كتابه عن الرياضة التى يتعين على أتباع مدرسة أفلاطون أن يتعلموها •

وقد نشطت كذلك فى عهد البطالمة الأوائل الدراسات الميكانيكية ، وكان أبرز علمائها اكتسيبيوس (Ctesibius) الأكبر ، ويحتمل أنه كان يعيش فى عصر بطلميوس الثالث • وقد وضع كتابا وصف فيه تجاربه واختراعاته لكنه لم يصل الينا ، ولذلك فاننا نستمد كل معلوماتنا عنه مما كتبه المؤلفون القدماء ، فهم يحدثوننا بأنه اخترع مضخة دفق جبرى (Force pump) وأرغن مائى وساعات مائية • وقد اتى بعد هذا العالم

بحوالى ربع قرن فيلون البيزنطى الذى عاش مدة طويلة فى الاسكندرية وكان مهندسا عسكريا ، فلا عجب انه وجه عناية كبيرة الى معدات القتال ووسائل التحصينات ، ووضع عن ذلك كتابا كبيرا يتألف من ثمانية أو تسعة أجزاء لم يصل الينا الا ثلثها مترجما الى العربية • وقد قام فيلون أيضا بدراسات هامة فى علم الهوائيات المضغوطة (Pneumatics) ووضع عنها كتابا يتألف من خمسة وستين فصلا ترجمت الى العربية • وقد كانت لهذا الكتاب آثار بعيدة المدى لكنه لما كان اكتسيبيوس قد سبقه فى هذا المجال وكان كتابه قد ضاع ، فانه يتعذر معرفة مقدار ما أسهم به كل منهما •

٦ ـ حضارة اغريق مصر :

لا شك فى أن أهم دعامة للحضارة الاغريقية كانت المدارس والمعاهد الاغريقية لأنها هى التى كانت تفتح لأبنائها آفاق الفكر الاغريقى • ولاشك أيضا فى أن دار العلم والمكتبة الكبرى بالاسكندرية كانت أهم مراكز الحركة الفكرية فى مصر وبفضلهما بقيت الحضارة الاغريقية منتعشة فى مصر حتى فى العصر الرومانى • واذا كانت دار العلم والمكتبة الكبرى ورعاية البطالمة قد اجتذبت الى الاسكندرية أرستقراطية الآداب والعلوم والفنون ، فان النقوش والأوراق البردية ترينا أنه الى جانب هذه الأرستقراطية كانت توجد خارج الاسكندرية طبقة وسطى من أدباء الاغريق وعلمائهم وفنانيهم كانت حقا أقل ضياء وشهرة الا أنها كانت أكثر عددا ونشاطا • فقد وجد فى بطوليميس ـ تلك المدينة الاغريقية القابعة فى قلب الصعيد ـ نقش (١) من نهاية عهد بطلميوس الثانى أو بداية عهد بطلميوس الثالث ، وهو يحوى قرارا اتخذته جمعية فنانى ديونوسوس والالهين الأخوين لتكريم أحد أعضائها جزاء ما قدمه للجمعية من الخدمات • وأهم ما يعنينا من أمر هذا

(١) O.G.I.S., 51.

النقش فى هذا المقام هو قائمة أسماء أعضاء هذه الجمعية التى تلى القـرار ، فهى تضم اثنين من شعراء التراجيديا واثنين من شعراء الكوميديا وثلاثة من مؤلفى الشعر الحماسى ، وذلك عدا الموسيقيين والراقصين والممثلين •

واذا كانت صدف التنقيب جادت علينا بالتعرف على سبعة من الشعراء فى مدينـة واحدة فى قلب الصعيد فما أكثر الذين لا نعرفهم من الشعراء الاغريق الذين كانوا يعيشون فى كل أنحاء مصر ، وبخاصة فى نقراطيس (كوم جعيف بمحافظة البحيرة) مسقط رأس الفقيه المشهور أثينايوس ، ولوكوليس (أسيوط) التى ولد فيها الفيلسوف فلوطين ، والفيوم والبهنسة ومنف وغيرها حيث كانت تعيش جاليـات اغريقية كثيرة العدد • ولا سيما أن المنقبين عن الآثار يكشفون على الدوام منذ أمد طويل عن بقايا قطع عديدة من مختلف ألوان الشعر تتميز بكثرتهـا وان لم تتميز فى أغلب الأحيـان بقيمتها الفنية • وتشـير القرائن الى أن البـلاد كانت زاخرة بفئـات من المؤرخين والخطباء والفلاسفة الذين لم يكونوا كذلك شموسا كبيرة وانما نجوم لامعة صغيرة كان نورها الخافت يسطع فى السماوات المحلية • ومهما تكن مواهب هذه الطبقة الوسـطى من الأدباء والعلماء متواضعة ، فانها على كل حال تمثل نخبـة المثقفين الاغريق فى الريف وتدل على مدى انتشـار الحضارة الاغريقية وتغلغلها فى مختلف أنحاء البلاد (١) •

والى جانب هذه الطبقة كان يوجد الكثيرون ممن لايصطنعون الأدب الاغريقى وان كانوا يدرسـون مقادير متفاوتة منه تبعا لحظ كل منهم من التعليم • ومهما يقال عن طريقة التدريس أو برامج الدراسة ، فلا جدال فى أن المدارس الاغريقية على اختلاف أنواعها قد أسهمت فى بقاء جذوة الحضـارة الاغريقية مشتعلة فى كل أنحـاء مصر ، فكانت ثقافة اغريقها ، سواء أكانوا يعيشون فى المدن الاغريقيـة أم فى المدن والقـرى المصرية ،

(١) Collart, Chron., 1935, pp. 491-2.

ثقافة اغريقية • وازاء ما نعرفه من أن الاغريق أحضروا معهم من بلادهم دياناتهم وعاداتهم وتقاليدهم ، وان البطالمة لم يكتفوا بان اتخذوا منهم شركاء لهم في حكم البلاد واستغلالها واختصوهم باسمى المناصب وأوسع الضياع وأخصبها ، بل وفروا لهم أسباب الحياة التى توائمهم ، فكانوا يخضعون لقوانين اغريقية تتمشى مع عاداتهم وتقاليدهم ، ويحاكمون أمام محاكم اغريقية ، ويعيشون عادة فى أوساط اغريقية اما فى المدن الاغريقية واما فى جمعياتهم القومية فى طول البلاد وعرضها ، وأن أفواج الاغريق كانت تفد على مصر باستمرار حتى أواخر القرن الثالث قبل الميلاد فتنعش فيهم ما ذوى وتجدد بينهم ما بلى ، وأنه لا توجد أية قرينة على تزاوجهم مع المصريين حتى نهاية ذلك القرن ، وأنهم كانوا شديدى الاعتزاز بحضارتهم الاغريقية ولاسيما أنها كانت مصدر ما يتمتعون به من الخير العميم فى مصر ـ ازاء ذلك كله ووسط هذه الظروف لايخامرنا الشك فى أن اغريق مصر قد حافظوا على ثقافتهم وتقاليدهم فبقوا اغريقا خالصين •

ولا جدال فى أن اغريق مصر بوجه عام كانوا يعيشون فى أوساط اغريقية ، لكنه يجب ألا ننسى ان هذه الأوساط كانت ، حتى فى المدن الاغريقية ، تقوم فى بيئة غريبة عن الحياة الاغريقية الى أقصى حد ، ولذلك فان المحافظة على قوة الروح الاغريقى بين اغريق مصر كانت لا تتوقف على استمساكهم بثقافتهم وعاداتهم وتقاليدهم فحسب ، بل كذلك على تطعيم هؤلاء الاغريق باستمرار بدماء اغريقية جديدة من بلاد الاغريق تكون بعيدة عن كافة المؤثرات الغريبة عن الروح الاغريقى • ولكنه منذ أواخر القرن الثالث قبل الميلاد انقطع وفود أفواج جديدة من الاغريق ، بسبب نقص عدد الاغريق فى بلادهم ذاتها •

وازاء انقطاع وفود أفواج جديدة من الاغريق ، كان طبيعيا أن يضعف الروح الاغريقى تدريجيا بين اغريق مصر • ومع ذلك فان المخلفات

الأثرية تدل على أنه مهما يكن ضعف هذا الروح فان اغريق مدن مصر الاغريقية بقوا اغريقا خالصين ، وذلك نتيجة لعدم الاعتراف بالزواج بينهم وبين المصريين فى هذه المدن ، وكذلك نتيجة لاستمرار المدارس والمعاهد الاغريقية فى متابعة نشاطها ، ولاسيما أن الاسكندرية كانت لاتزال منارة الحضارة الاغريقية وتتمتع بشهرتها العظيمة فى الآداب والعلوم . واذا كان بطلميوس الثامن يورجتيس الثانى قد اضطهد علماء الاسكندرية وأدباءها وفنانيها فى مطلع عهده عند منتصف القرن الثانى قبل الميلاد ، لا بدافع مجافاة الثقافة الاغريقية نفسها التى كان يزهى بحظه منها وانما بدافع الانتقام من العلماء والفنانين أنفسهم بسبب مناصرتهم لاخيه وأخته فى أثناء النضال على العرش ، فان هذا الملك كفر فى شيخوخته عن سابق سوء مسلكه وأسبغ عطفه وكرمه على العلماء والأدباء والفنانين ، فلم تلبث الاسكندرية أن استعادت شهرتها واحتفظت بها حتى فترة متأخرة فى العصر الرومانى .

ان العامل الذى أدى الى ضعف الروح الاغريقى فى مدن مصر الاغريقية كان له أثر أقوى بطبيعة الحال خارج هذه المدن ، ولاسيما أنه منذ أواخر القرن الثالث قبل الميلاد أصبحت اقطاعات الاغريق وراثية وبذلك أصبح لأرباب هذه الاقطاعات صوالح دائمة فى البلاد . وقد كانت رعاية هذه الصوالح تتطلب منهم أن يداروا أهل البلاد والا يشمخوا عليهم بأنوفهم . وفى الوقت نفسه أخذ البطالمة يتبعون سياسة جديدة فى معاملة المصريين ، فانهم بدأوا منذ عهد بطلميوس الرابع يفسحون المجال أمام المصريين ، ويمنحونهم من الامتيازات ما رفع من شأنهم وضيق شقة الفارق بينهم وبين الاغريق . وفضلا عن ذلك فان بعض الاغريق تأقلموا وبعض المصريين تأغرقوا . وقد ساعد ذلك كله على التقارب بين العنصرين مما أدى الى تكوين عدد من الأسر المختلطة المصرية ـ الاغريقية . بيد أنه يجب الا نبالغ فى هذا التقارب بين العنصرين ، فقد وقعت فى النصف الثانى من

حكم البطالمة ثورات مصرية عنيفة ، ولم تكن هذه الثورات موجهة ضد البطالمة وحدهم بل ضد الاغريق كذلك • وآية ذلك ما تحدثنا به الوثائق عن أشخاص أسيئت معاملتهم لأنهم اغريق (١) • ذلك أن البطالمة لم يعرضوا اطلاقا عن الاغريق أو حتى يساووا المصريين بهم ، فما زال أغلب رجال الجيش وقوادهم وكبار الحكام من الاغريق ، وما زالت أكبر الضياع تمنح للاغريق ، وما زالت التفرقة القديمة بين الطبقة العليا الممتازة — التى كانت تتألف من الاغريق وتضم عندئذ قلة قليلة من المصريين المتأغرقين — وبين الطبقة الدنيا التى كانت تتألف من سائر المصريين •

ولا جدال فى أنه قد تضافرت عوامل مختلفة على اضعاف الروح الاغريقى بين اغريق الأقاليم ، ولا فى أن بعض الاغريق قد عبدوا آلهة مصرية وتعلموا اللغة المصرية وتزوجوا مصريات واتخذوا أسماء مصرية وعادات مصرية ، غير أن القرائن تشير الى أن أغلب اغريق الأقاليم قد بقوا اغريقا خالصين برغم كل ما أصاب روحهم الاغريقى من وهن وضعف • ويرجع فضل احتفاظ أغلب اغريق الأقاليم باغريقيتهم الى أثر مدن مصر الاغريقية والى أثر معاهد الاغريق ومدارسهم — فقد عرفنا أنها كانت توجد حيثما وجد عدد كاف من الاغريق ولو كان ذلك فى أقصى مصر العليا — وكذلك الى ما كانت الصبغة الاغريقية تكسب صاحبها من مكانة ممتازة فى البلاد •

(١) راجع مثلا قصة بطلميوس المتصوف فى سرابيوم منف • انظر ابراهيم نصحى ح ٤ ص ١٨٦ — ١٨٧ وكذلك : U.P.Z., I, pp. 104 ff.

الفصل الثامن

التعليم الإغريقي في العصر الهيلينيسي فلسفته وأهدافه



مر بنا أن مصر البطلمية كانت تعتبر جزءا من العالم الاغريقى ، وأن عصر البطالمة هو فى الواقع الاسم المحلى للعصر الهلينيسى ، وأن تعليم اغريق مصر فى هذا العصر كان يماثل تعليم أترابهم فى باقى الدول الهلينيسية . ولم يكن التعليم الاغريقى فى العصر الهلينيسى مجرد مرحلة من مراحل تطور مستمر ، بل كان الذروة التى بلغتها عدة قرون من الجهود البناءة فى مجال التعليم ، أو بعبارة أخرى المظهـر الناضج الذى تمخضت عنه كافة الجهود التعليمية فى العصور السابقة . ولا أدل على نضوج هذا المظهر من رسـوخ قدمه واستمراره جيـلا بعد جيل وانتشاره فى مكان بعد آخـر ، فما يسمى بالتعليم الرومانى ليس بوجه عام الا امتدادا للتعليم الهلينيسى فى البلاد اللاتينية أو التى كانت تستخدم اللغة اللاتينية فى الغرب (١) . بل يمكن الذهاب الى مدى أبعد من ذلك والقول بأن أثر التعليم الهلينيسى يمتد الى ما بعد العصور القديمة . ذلك أن الحضارة الغربية أفادت فائدة كبرى من تراث الحضارة الاغريقية وهو الذى اتخذ شكله الكلاسيكى التقليدى فى العصر الهلينيسى وتمثل فى تعليم هذا العصر ، مما يضفى أهمية كبرى على هذا التعليم ويحدو بنا الى التساؤل عن فلسفته وأهدافه .

واذا كان قد تمخض عن فتوحات الاسـكندر الأكبر اتسـاع نطاق

---

(١) Cf. Diogenes Sinop. apud Diogen. Laert., XI, 2, 63; Zeno, Republic, Arnim, Stoic. vet. fragm., 259-271; Kaerst, Die Antike Idee der Ojkumene, 1903; Mewaldt, Das Weltburgertum in der Antike, Die Antike, II, 1926, pp. 177-190.

المنطقة التى انتشرت الحضارة الاغريقية فى ربوعها ، فان نظام المدينه آخره قد انهار فى هذا الاطار الشاسع • حقا انه كانت لاتزال توجد مدن من طراز المدينة الحرة الاغريقية ، وأن هذه المدن كانت لاتزال تمارس قدرا من النشط السياسى ، لكن هذه المدن بوجه عام لم تكن الا صورا باهتة لمدن العصور السابقة • ولم يكن لنشاطها السياسى الا أهمية محلية بعد أن فقدت أبرز سماتها وأصبحت خاضعة للملك مطلق السلطان • واذ تبدلت حال المدينة ، تحرر المواطن من التزاماته نحوها — وكانت تقتضى منه الاهتمام بشئونها والمشاركة فيها باستمرار — ولم تعد فى نظره معيار قيمه ومحور حياته ومركز أفكاره ومستودع ثقافته ، ولم يكن فى وسعه اعتبار الدوله الجديدة ، الدولة الملكية المستبدة ، بديلا عن المدينة • فلا عجب أن كان حكماء العصر الهلينيسى لا يعتبرون أنفسهم رعايا البطالمة أو السلوقيين أو الأنتيجونيين أو الأتاليين بقدر ما كانوا يعتبرون أنفسهم مواطنى العالم الأكبر الذى تسوده الحضارة الاغريقية • ولذلك فانه فى نظر مفكرى الاغريق لم تكن الدولة الملكية هى التى خلفت المدينة وانما الانسان ذاته • فمنذ العصر الهلينيسى أصبح أولئك المفكرون يجدون المعيار الأسمى للحياة ومبررها الجوهرى فى الانسان بوصف كونه شخصية مستقلة قادرة على تحقيق ذاتيتها • ومن ثم فقد كان الأساس الرئيسى للتفكير الهلينيسى يتلخص فى أن الهدف الوحيد لوجود الانسان هو بلوغه أسمى مراتب الكمال • وازاء ذلك كان واجب كل فرد — الواجب الخليق بأن يكرس له حياته كلها — هو أن يخلق من مادته الأصلية الغريزية ، من ذلك الكائن الذى خلق أصلا مشوبا بالعجز والقصور وكان من اليسير أن يبقى كذلك : انسانا كاملا ، على نحو ما يخلق المثال مبتكراته الرائعة مما لديه من مواد غفل •

ولقد كان هذا هو الأساس الذى قام عليه التعليم بمعناه الواسع فى العصر الهلينيسى ، فلم يعد المقصود بكلمة التعليم مجرد تلقين الصبى فى خلال فترة محددة من حياته المبادىء الأولية للآداب والعلوم بل كافة الجهود التى تبذل طوال حياته سعيا وراء بلوغ الكمال مستهديا بالمثل الأعلى للانسان • وهكذا أصبحت كلمة التعليم (Paideia) تعنى الثقافة ولكن ليس بمعنى العقل المتخم بالمعلومات ، وانما بمعنى العقل الذى نما نموا كاملا ، عقل الرجل الذى أصبح انسانا بكل ما تنطوى عليه هذه الكلمة من معان (١) •

وقد احتل التعليم مكان الصدارة بين كل ما يعنى اغريق العصر الهلينيسى ، وبخاصة اغريق المهجر ، فقد كانوا يعيشون منعزلين فى بلاد غريبة عنهم ، وكان همهم الأول أن يمكنوا أبناءهم من الحفاظ على السمات المميزة للطابع الاغريقى • وقد كان التعليم الكلاسيكى أساسا وسيلة للاطلاع على أسرار أسلوب الحياة الاغريقية ، ولتشكيل الطفل والصبى وفقا للتقاليد القومية ، ولصقل عقلهما بتراث الحضارة الاغريقية ـ أسمى الحضارات طرا • ومن أجل ذلك حيثما نزل الاغريق ـ سواء فى المدن الاغريقية أم خارجها ، سواء فى مصر أم فى بلاد ما بين النهرين أم فى غيرها ـ كان أول همهم هو أن يقيموا منشآتهم التعليمية : المدارس الابتدائية والجومنازيا •

وقد بلغ من أهمية التعليم فى العصر الهلينيسى أن الباحثين يعتبرونه أبرز صفات الحضارة فى هذا لعصر • ولا أدل على هذه الأهمية مما استرعته شئون التعليم من اهتمام المفكرين عندئذ اهتماما ازداد باطراد • فقبل هذا العصر كان أفلاطون وكذلك أرسطو يعتبران التعليم جزءا ثانويا من مشكلة السياسة ، أما الفلاسفة الهلينيسيون فانهم كانوا يعتبرونه أمرا

---

(١) Marrou, op. cit., pp. 143-4.

جديرا بأن يعالج مستقلا عن غيره • وقد اقتفى أثر أريستيبوس (١) فى ذلك ثيوفراسطوس (٢) وأريستوكسينوس (٣) وكلياتس (٤) وزينون (٥) وخروسيبوس (٦) • وفى رأى مفكرى هذا العصر ان الثقافة الفردية عن طريق التعليم الكلاسيكى كانت أعظم هبة يمنحها انسان • وتروى فى هذا الصدد قصة بالغة فى دلالتها عن الفيلسوف استيلبو (Stilpo) ، ذلك أنه عندما استولى ديمتريوس « محاصر المدن » ابن أنتيجونوس « الأعور » على مجارا ونهبها جنوده ، طلب الى الفيلسوف تقدير الخسائر التى لحقت بممتلكاته من جراء ذلك ، أجاب الفيلسوف بقوله انه لم يفقد شيئا مهما يمتلكه لأن أحدا لم يسلبه ثقافته (Paedia) ، ذلك أنه ما زالت لديه « فصاحته وعلمه » (٧) •

وهذا يفسر كثرة الاشارة فى النقوش الجنازية الى المواهب العقلية التى كان المتوفى يتمتع بها ، اذ أن الموتى يوصفون فى النقوش بأنهم أدباء أو خطباء أو فلاسفة أو فنانون • ولم يكن هؤلاء الموتى فى كل حالة رجالا ممن كانوا يتخذون الأدب أو الخطابة أو الفلسفة أو الفن مهنة لهم بل انهم كانوا فى أكثر الحالات أشخاصا احترفوا مهنا أخرى مختلفة عن ذلك كل الاختلاف ، غير أنهم كانوا جميعا ـ مهما تكن الحرفة التى مارسها فعلا كل منهم ـ حريصين على أن تسجل على قبورهم أنهم كانوا يمتلكون أثمن كنز على الاطلاق ـ عقلا مثقفا (٨) •

---

(١) Apud Diog. Luert., II, 85.
(٢) Ibid., V, 42.
(٣) Ibid., VIII, 15.
(٤) Ibid., VII, 175.
(٥) Ibid., VII, 4.
(٦) Quint., I, II, 17.
(٧) Diog. Laert., 115; Cf. Plut., Lib. educ., 5F — 6A.
(٨) Marrou, op. cit., p. 146 et Bibl., No. 7, p. 495.

ان المعلومات المستمدة من هذه النقوش الجنازية تلقى ضوءا ساطعا على عدد من المعتقدات الغريبة التى كانت شائعة بين الناس فى ذلك العصر ، وكل هذه المعتقدات تنم عن ذات الاعتزاز الغيبى بالقيم الثقافية ، مما لايمكن تفسيره الا باعتقاد الناس بأن هذه القيم كانت تكسب ارواح المثقفين الخلود وتوفر لها نعيما مقيما ، وهو ما يتضح من تصوير الحياة السرمدية التى تستمتع بها هذه الأرواح الخالدة على هيئة ربيع دائم تقضيه الأرواح فى الاستمتاع بأبهج المسرات الفنية والعقلية وسط بيئة طبيعية خلابة .

وهكذا أصبحت الحياة الثقافية تبدو كأنها مقدمة أو انعكاس فى هذا العالم للحياة السعيدة التى تستمتع بها الأرواح الخالدة فى العالم الآخر ، بل الوسيلة التى يمكن عن طريقها اكتساب خلود الروح واستمتاعها بتلك الحياة السعيدة ، بمعنى أن دراسة العلوم والآداب والفنون كانت أضمن وسيلة لتطهير الروح من الأهواء الدنيوية وتحريرها من ربقة المادية وفوزها بالخلود . ولذلك فانه كان فى وسع الانسان ـ بعد أن يقف حياته على خدمة ربات العلوم والآداب والفنون ـ أن ينتظر فى اطمئنان رعاية هذه الربات عندما يموت ، ذلك أنها ستدعوه الى حضرتها وترفعه الى السماك الأعلى مع أولئك الأبرار الآخرين الذين أعدوا أنفسهم مثله لهذا الشرف الكبير ، شرف الخلود أو التأليه .

ان هذا المذهب الغريب مذهب الخلود أو التأليه الذى يكتسب عن طريق الثقافة مذهب أقدم عهدا من العصر الهلينيسى ، غير أن التأليه المكتسب عن طريق الثقافة كان مقصورا قبل هذا العصر على المبرزين من رجالات الفكر مثل فيثاغورث وأفلاطون . وأما فى العصر الهلينيسى فقد ساد الاعتقاد بأن مثل هذا التأليه كان نصيب كافة المثقفين وأصبح يتطلع اليه كل شاعر وكل مفكر وكل أديب وكل فنان . ذلك أن كلا منهم كان يرى أن من حقه اعتباره خادم ربات العلوم والآداب والفنون أو بعبارة أخرى اعتباره رجلا طهرته هذه الربات من أدران الدنيا فأصبح أهلا للتأليه .

وبطبيعة الحال لم يعتنق المثقفون جميعا هذا المذهب بذات العمق وذات الايمان ، الا أنه على كل حال أثر فيهم جميعا فكانوا يعتبرون الثقافة شيئا ساميا رفيعا يتسم ببهاء قدسى أكسبه جلالا خاصا له طابع دينى حقيقى • ووسط الحيرة الشديدة التى استبدت بالناس من جراء الانهيار الفجائى الذى أصاب المعتقدات الدينية القديمة ، كان هذا المذهب هو الاعتقاد الوحيد الوطيد الذى كان فى وسع العقل البشرى أن يستمسك به • وهكذا فان الثقافة بعد ما اكتسبته من مكانة رفيعة فى العصر الهلينيسى أصبحت فى نظر الكثيرين بمثابة عقيدة دينية •

وقد كانت هذه الثقافة ثمرة التعليم الهلينيسى الذى كان هدفه الرئيسى تكوين الكبار وليس تنشئة الصغار • وهذا يفسر ما سبقت الاشارة اليه من اغفال أمر مشاكل الأطفال النفسانية ، وعدم وجود مدارس من قبيل ما تألفه اليوم من رياض الأطفال ، وكذلك ما اتسمت به التدريبات من طابع تحليلى ، فضلا عن وسائل التأديب العنيفة •

وقد عزا كثيرون من المحدثين هذه الظواهر الى الجهل ، ولكنه ازاء المستوى الرفيع الذى بلغته الحضارة الاغريقية وما توافر لدى الاغريق من عبقريات خلاقة فى مختلف مجالات النشاط العقلى يميل آخرون الى اعتبار هذا الجهل الواضح جهلا مقصودا مرده الى عدم الاعتقاد فيما جهل أمره أو أغفل شأنه • ذلك أن الاغريق كانوا يعتقدون أن الطفولة ليست غاية وانما مرحلة أولية ، وأنه فى هذه المرحلة الأولية يجب أن ينطلق الطفل على سجيته ، وأن الغرض الحقيقى من التعليم هو تكوين الرجل المتكامل جسما وروحا ، حسا وفهما ، خلقا وعقلا ، وأنه لايمكن البدء فى ذلك التعليم قبل اجتياز مرحلة الطفولة •

اما عن تكوين الجسم فقد سبق أن أسلفنا أن الألعاب الرياضية ظلت فى العصر الهلينيسى من أهم الخصائص المميزة للتعليم الاغريقى وأسلوب

الحياة الاغريقية ، وأن التربية الرياضية كانت تقترن بالتربيـة العقلية منـذ مرحلة الدراسه الابتدائية • ولاجدال فى ان الاغريق كانوا يدركون منذ القرن السادس قبل الميلاد ، أن مطالب الجسم تتناقض مع مطالب العقل ، وأن تحقيق التوازن بين مطالب كل منهما ليس أمرا يسيرا ، ولا فى أنهم ظلوا على الدوام يستمسكون بمثلهم الأعلى القديم القائل بأن الرجل المتكامل هو الذى يوجـه القدر نفســه من العناية الى تربيـة قواه الجسمانية وقواه العقلية ، وان كان تحقيق هذا المثل الأعلى عمليا قد أضحى متعذرا باطراد ، فطغى تدريجيا الاهتمام بالتربية العقلية على الاهتمام بالتربية البدنية • ومع ذلك فان الاغريق استمروا دائما يرددون أن العقل السـليم فى الجســم السليم • وعلى كل حال يجب الا يفوتنـا أن هناك دائما فارقا بين ما يمكن تحقيقه فعلا وبين مايظل مثلا أعلى منشودا •

واذا كان قد وجه أحيانا نقد شديد الى فرط العناية بالألعاب الرياضية على نحو ما كان يحدث فى حالة الاعداد لاحتراف الرياضة ، فان هذا النقد لم يكن مبعثه الانتقاض على المثل الأعلى القديم والميل الى التربيــة العقلية البحت ، بقدر ما كان مبعثه الاستمســاك بهذا المثل الأعلى الذى كان يدعو الى تربيـة القوى البدنيـة والقوى العقلية على حـد سواء ، ولذلك فان الافراط فى أية ناحية على حساب الأخرى كان يجافى هذا المثل الأعلى •

وهذا الطموح الى تكوين الرجل المتكامل يظهر بجلاء ووضوح فى المناهج الدراســية • ذلك أنه من الناحية النظرية أو المثالية على الأقل كان المنهج الدراسى لمرحلة التعليم الثانوى أو الثقافة العامة فى العصر الهلينيسى يحاول أن يجمع بين دراسة الرياضيات ودراســة الآداب على أساس أنه لا غنى عن هاتين الدراستين معا فى تكوين أى رجل متعلم تعليما صحيحا • ومن أجـل استكمال تكوين مثل هذا الرجل لم يغفل التعليم الهلينيسى — على الأقل من الناحية النظرية أو المثالية — أمر الفن ، الموسيقى والرسم ،

بسبب ما كان الاغريق يعلقونه من الأهميـة على الأثر الجمالى والأخلاقى للتربية الفنية •

وهذه الرغبة الملحة في تكامل الانسان تظهر بأجلى صورها فى ذلك الصراع العنيف الذى مر بنا أنه احتدم بين قطبى الثقافة القديمة : الخطابة والفلسفة • فمن ناحيـة كان الانسـان فى لهفته على تحقيق تكامله يتردد طويلا قبـل أن يختـار احدى هاتين الدراستين ، ومن ناحية أخرى كانت كل من هاتين الدراسـتين في حرصـها على التفوق على غريمتها تضـمن مناهجها جانبـا من مناهج الأخـرى وتدعى لنفسها قدرا من مميزات الثانية ومكانتهـا • ذلك أنه منذ أفلاطون حتى ثمِستيوس (Themistius) كان الفلاسفة يسلمون بأن البحث عن الحقيقة لا غناء له عن دراسة الأدب • وكذلك كان الخطباء سواء المتقدمون منهم أم المتأخرون يرون أن الفلسفة قوام الخطابة ، وأن الخطيب المثالى ليس الا فيلسوفا • ولم يكن باعث الجانبين على ذلك مجرد رغبة فى الملاقاة أو مجرد الأنانية لاكتساب الأتباع ، بقدر ما كان تعذر اسـتغناء أحد هذين القطبين عن الآخر أو إغفال هدفه • ومرد ذلك الى أن الاغريقى كان يطمح الى أن يكون أديبـا يلم بكل التراث القديم ويستطيع أن يصوغ عباراته فى أسلوب رشيق ، وفي الوقت نفسه مفكرا عميقا يلم بأسرار الكون والانسان وفى وسعه أن يحددها بدقة ويستخلص منها منهاجا للحيـاة ، وتبعـا لذلك كان تكوين المثقف يتطلب الجمع بين الأدب والفلسفة •

لكنه أكان ميسورا تحقيق هذا المطمح عمليا ؟ اذا كان ذلك قد تيسر الى حـد ما لبعض العباقرة مثـل أراتوسثنيس ـ الذى تبحر فى مختلف العلوم والفنون وكتب فى الشعر والفلسفة وفقه اللغة والتاريخ والجغرافيا والرياضة ـ فان ما أحرزه العصر الهلينيسى من التقدم فى كل فرع من فروع المعرفة جعل تحقيق هذا المطمح على نطاق واسع ضربا من المحال • وازاء

ذلك وجد أبناء العصر أنفسهم نهبا للحيرة فى الاخيار بين المطمح المتعذر تحقيقه : مطمع التعليم الشامل الموسوعي ، وبين ضرورة الحفاظ على الثقافة بوصفها تراثا انسانيا • واذا كان قد تعذر على أبناء ذلك العصر أن يحققوا مطمحهم فانهم لم ينسوا قط أنه كان مثلهم الأعلى ، ولم يتخلوا عنه اطلاقا بمحض رغبتهم •

وقد اختص الاغريق الجانب الأخلاقى بالمكان الأول فى اعتبارهم ، ذلك أنه كان لا يكفيهم أن تكون ثمرة التعليم مجرد فنان أو أديب أو عالم نمت مواهبه العقلية وقواه البدنية ، وانما قبل كل شيء انسان أو بعبارة أخرى رجل يتحلى بصفات خلقية رفيعة • وقد سبق أن أشرنا الى رأى أفلاطون وارسطو فى ضرورة الاهتمام بالتربية الخلقية منذ الطفولة الباكرة ، والى أن الاغريق دأبوا على تلقين الأطفال أصول الآداب وقواعد السلوك منذ نعومة أظفارهم قبل أن يلقنوا أصول الكتابة والقراءة ، والى أنهم كانو لايعتبرون المدرسة العامل الحاسم فى التربية ، وانما الأسرة بخدمها وأصدقائها ، ولذلك فانهم عند ذهاب الصبية الى المدرسة كانوا أقل تعويلا فى رعاية سلوكهم وتكوين أخلاقهم على المدرس منه على البيداجوج ، عبد الأسرة ، الذى نشأ فى كنفها ، وكان ملما بعاداتها وآدابها وأساليبها ووجهات نظرها ، ويرافق الصبية طوال اليوم فى البيت وفى الطريق وفى المدرسة ، ويعلمهم آداب السلوك وقواعد الأخلاق • وهكذا كان البيداجوج يعتبر أكثر أهمية وأخطر شأنا من المدرس فى مسألة التربية ، بالرغم من أن كلا من المدرس والأستاذ كان معنيا أشد العناية بالجانب الأخلاقى • ذلك أنه كلا من المدرس فى أثناء شرح عيون الأدب لتلاميذه ، وأستاذ الخطابة فى أثناء تعليم فن الكلام لطلابه ، كان لايدخر وسعا فى استنباط المواعظ الخلقية من النصوص التى يدرسها ، وان اقتضى ذلك تحميلها معانى أكثر مما تحتمل ، كما كان لايمل من توكيد القيمة المعنوية لأداء الدارس وجباته الدراسية • ومنذ أيسقراط كان

أساتذة الخطابة يعتبرونها مدرسة أخلاقية وليست مجرد فن لشق الطريق في الحياة . وكان أساتذة الفلسفة أقل اهتماما بدراسة دخائل طبيعة الكون والمجتمع منهم بغرس مثل أعلى أخلاقي في نفوس طلابهم . وهذه العناية نفسها بالجانب الخلقي نلمسها كذلك في دراسة الطب ، فقد كانت دراسة آداب المهنة جزءا أساسيا منها منذ أبقراط . وازاء الصلة المباشرة المستمرة بين الأستاذ والطالب المترتبة على الطابع الذي اتخذه التعليم العالي ، فانه توافرت للأساتذة أوسع الفرص لتهذيب طلابهم وصقل أخلاقهم .

وقد كان التعليم الكلاسيكي في العصر الهلينيسي أكثر عناية بتكوين الرجل المتكامل ذاته بوصف كونه انسانا أكثر منه باعداد التقنيين المتخصصين في مهن بذاتها . ذلك أن الهدف الأساسي كان تكوين انسان مرهف الحس ناضج العقل يزن الأمور بميزان صحيح ، وأنه كان في وسع أي انسان توافرت له هذه الصفات أن يتعلم في أسرع وقت ممكن أية مهنة يريدها . وأما قصر النشاط العقلي على الدراسة الخاصة بمهنة بعينها ، فانه كان من شأنه أن يحد من هذا النشاط ويحول دون تكوين الانسان المتكامل . وقد سبق ان ذكرنا انه حتى في الاسكندرية لم توجد أية دراسات عليا ، باستثناء دراسة الطب لاعداد أرباب المهن ، وان انفراد مهنة الطب بهذه العناية يرجع من ناحية الى المستوى الرفيع الذي بلغه الطب ومن ناحية أخرى الى الأهمية التي كانت لمهنة الطب في حياة العالم الهلينيسي ، مما يسر اعتبار الطب أحد فروع المعرفة . ومع ذلك يبدو أن الأطباء كانوا يعانون باستمرار من مركب النقص ، ذلك أنهم منذ أبقراط (القرن الخامس قبل الميلاد) حتى جالنوس (القرن الثاني للميلاد) كانوا لا يفتأون يرددون أن « الطبيب طبيب وفيلسوف » . وان دل هذا على شيء فهو يدل على أنه كانت تتملكهم رغبة قوية في الا تظل ثقافتهم محصورة في نطاق دراستهم المهنية ، والا يتخلفوا عن ركب الآخرين في الانتهال من مورد الثقافة العامة القائمة على أسس انسانية صحيحة . ولذلك فانهم كانوا لايكتفون باعدادهم

المهنى بل كانوا يحاولون أن يثقفوا أنفسهم على غرار معاصريهم لكى يلموا بعيون الأدب القديم ويكون فى وسعهم أن « يتكلموا كالخطباء ويجادلوا كالفلاسفة » •

ونحن نميل الى الأخذ بما يذهب اليه أكثر الباحثين من أن انصراف التعليم الكلاسيكى عن اعداد التقنيين المتخصصين فى مهن بذاتها يرجع الى ما كان لهذا التعليم من جذور وأصول أرستقراطيــة • ذلك أن قيام الحياة الاقتصادية عند الاغريق على العبيد أتاح لهم ممارسة حياة الفراغ الأرستقراطيــة ، فقد أعفاهم كدح العبيد من مزاولة الأعمال البدوية ووفر لهم كافة الفرص للاستمتاع بالحياة اللينة والحرية الروحية وممارسة حقوق المواطنة وواجباتها سواء بتولى المناصب العامة أم بالمشاركة فى الفصل فى القضايا وفى مناقشة شئون المدينة • فلا عجب أن كانت الصناعة والتجارة لاتدخلان فى نطاق التعليم ، وان كان الاغريق ـ كما لاحظ هرودوتوس ـ يعتبرون من يتقن أية صناعة أدنى شأنا من المواطنين الآخرين ، وأنهم كانوا لا يعتبرون التجارة وسيلة ممكنة للحياة القويمة •

حقا ان الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية قد تغيرت فى العصر الهلينيسى عما كانت عليه فى العصور السابقة ، غير أن التعليم الهلينيسى ظل وفيا للتقاليد القديمة كما أن هومروس ظل « معلم الاغريق » ويحتل ـ دون منازع ـ مكان الصدارة فى قلوب الناس وفى مناهج الدراسة فى مختلف مراحلها طوال العصر الهلينيسى ، بل طالما ظلت جذوة الحضارة الاغريقية مشتعلة ، فالاغريق كانوا يعتبرون أشعار هومروس أقدم وأنبل صورة لذلك اللون من الفن الأدبى الذى هو أكثر من تاريخ وأكثر من فلسفة وأكثر من مجرد أدب جميل ، فهو على الأصح مزيج من القيم الجمالية والقيم الأخلاقيــة • وقد كان يبدو للاغريق وهم يقرأون هذه الأشعار كأنهم يتطلعون الى مرآة تعكس صورهم ـ صور ماضيهم وحاضرهم

ومستقبلهم • فلا عجب أن يكون هومروس قد ترك أثرا لا يمحي في تفكير الاغريق وطابع حياتهم •

وقد كان ابطال هومروس يتسمون بصفة (aretê) يتعذر التعبير عنها بكلمة واحدة فى أية لغة غير الاغريقية ، وان كانت كثيرا ما تترجم بكلمة « فضيلة » الا أن هذه الترجمة لاتفى فى كل المواضع للتعبير عن المقصود بهذه الصفة (areté) • ذلك أن هذه الصفة قد لايكون المقصود بها فى بعض المواضع ما تنطوى عليه كلمة فضيلة فى تقديرنا من سمو الأخلاق • وقد تنطوى فى بعض المواضع الأخرى على مدلول أوسع لأنها قد تعنى التفوق فى نواح متعددة لايمكن أن تعبر عنها كلمة فضيلة • فعند الاغريق كانت هذه الصفة (areté) نوعا خاصا من التفوق يجعل اقليما أو عملا من أعمال الفن أو جوادا أو جنديا أو بطلا أفضل مثل من نوعه • وكانت صفة أبطال هومروس هى النبل الذى كان لا يشمل الشجاعة فحسب ، بل أيضا البراعة فى استخدام المواهب العقلية والبدنية • ذلك أننا نقرأ فى أشعار هومروس أن أخيليس (Achilles) ، وهو الذى اعتبره الاغريق بطلا نموذجيا ، قد عاش مع مربيه لتتوافر لديه ذلاقة اللسان والقدرة على أداء جلائل الأعمال • وهنا نرى مثلا مبكرا لاعتقاد الاغريق فى أن البراعة فى الكلام تنم عن رجاحة العقل التى كانت مظهرا آخر من مظاهر ال (areté) التى اتسع مدلولها باطراد ليشمل مظاهر أخرى من صفات الانسان • فعندما رفض هكتور (Hector) الاستماع الى توسلات زوجه اندروماخى (Andromache) وابنه الصغير وخرج ليلقى موتا محققا ، وبعد ذلك بعدة قرون ، عندما فضل سقراط الموت على عدم قول الصدق ، كان كل من هكتور وسقراط وفيا لما يتصف به من ال (areté)

ولما كان التعليم الكلاسيكى قد بقى وفيا للتقاليد القديمة ، فانه كان

يستهدف تكوين الرجل المتكامل ، أو بعبارة أخرى تنمية كل قدرات الرجل ، ليكون في وسعه الاستجابة الى كل مطالب العقل أو الظروف بحيث يستطيع الاضطلاع على أفضل وجه ممكن بأى عمل يريد القيام به أو يتطلبه منه المجتمع أو تفرضه عليه ظروف الحياة • ومن ثم فانه كان يتنافى مع تحقيق هذا الهدف أى نوع من أنواع التخصص فى التعليم لينحصر فى نطاق معين وينأى عن مجرى الحياة اليومية • ومن أجل ذلك رفض الاغريق الأخذ برأى أفلاطون القائل بضرورة جعل الرياضة أساس التعليم فى كل مرحلة من مراحله (١) •

واذا كان الاتجاه العام للتعليم الكلاسيكى فى العصر الهلينيسى اتجاها أدبيا ، فان مرد ذلك كان الى عاملين رئيسيين : أحدهما هو تأثير التقاليد القديمة ، والآخر هو أن هذا التعليم لم يكن لنخبة قليلة من الصفوة وانما لكل القادرين فى المجتمع بأسره • ومن المعروف أن الرياضة ، بعد مرحلة الأصول الأولية ، يدق فهمها وتصعب متابعتها على أكثر الناس ، على حين أن الآداب أيسر فهما وأكثر طلاوة وأقرب الى القلوب • واذا كان التعليم الكلاسيكى فى العصر الهلينيسى قد ركز الاهتمام تبعا لذلك على دراسة الآداب ، فانه لم يغفل أمر الرياضة كلية ، لكن حظ أكثر الناس منها لم يتعد مستوى الدراسة الثانوية التى كان منهجها يتضمن قدرا محدودا من العلوم الرياضية الأربعة : الهندسة والحساب والفلك والموسيقى • أما التبحر فى الرياضة فكان وقفا على قلة من الفارهين الذين كانت لديهم المواهب لدراستها والميل الى التخصص فيها ، ولكنهم على قلتهم بلغوا بالرياضة مستوى رفيعا لم تبلغه اطلاقا قبل العصر الهلينيسى •

---

(١) Plat., Rep., VII, 721 c ff.; Leg., V, 747 b; VII, 809 c.

وقد كانت النتيجة الطبيعية للاتجاه العام الذى اتخذه التعليم الكلاسيكى أن الطابع العام للثقافة التى تمخض عنها هذا التعليم كان طابعا أدبيا ، وأن هومروس ظل « معلم الاغريق » برغم كل ما بذله الفلاسـفة من جهود ليستبدلوا به اقليدس • فقد كان الاغريق يعتقدون أن الشعراء هم المعلمون الأوائل لبنى الانسـان ، وأن هومروس هو أعظم أولئك المعلمين ، وأن الشعر أجل قدرا وأعظم شأنا من النظريات الهندسية البحت وبراهينها العلمية الدقيقة ، لأن الشعر يسـمو بالانسـان الى أرفـع مدارك الفكر والحس ويزوده بقدر لاحصر له من التجـارب الانسانية المتباينة ، فهو ثمرة عقل مرهف الحس ، وهو ما كان فى نظـر الاغريق أكثر أهميـة من العقل الهندسى • ولذلك فان الاغريق كانوا لا يعتبرون الانسان متعلما الا اذا كان قد درس الآداب القديمة ، وطالع فيها صورا متعددة للطبيعة الانسانية ودخائل النفس البشرية بمختلف نزواتها ومشاعرها وانفعالاتها ، واكتسب على هذا النحو من التجـارب النفسية والقيم المعنوية ما هذب نفسـه وأرهف حسه وصقل عقله وأحاطه علما بماهية الانسان وحياته •

وهكذا كان الانسان هو محور الفكر الهلينيسى ، وكان بلوغ الانسان أسمى مراتب الكمال هو الهدف الذى ينشده هذا الفكر • وقد نجح الفكر الهلينيسى فى انجاب طراز من الرجال أرقى من أى طراز عرف من قبل ، رجال سليمى الذوق مرهفى الحس ناضجى العقل ، أدباء وفنانين وغيرهم • واذ افتقد هؤلاء المثقفون القيم القديمة ــ فقد تزعزع ايمانهم بآلهتهم القديمة وتحرروا من التزاماتهم نحو المدينة بعد تبدل أحوالها ولم يكن فى وسعهم اعتبار الدولة الملكية بديلا عن المدينـة ــ أصبحوا يجدون المعيـار الأسمى

للحياة ومبررها الجوهرى ونبراسها الهادى فى الانسان ذاته ، ومن ثم فانهم انطووا على أنفسهم سعيا وراء الكمال الذاتى . واذا كنا اليوم نأخذ على الثقافة الهلينيسية هذا اللون من الأنانية ، فاننا لا نستطيع انكار أنها أسدت خدمة جليلة الى الانسانية ، لأنها بذلت جهودا مشكورة فى تحقيق التراث القديم والحفاظ عليه للأجيال التالية ، وذلك فضلا عن أنها وضعت نفسها فى العصر الرومانى أولا فى خدمة الدولة وبعد ذلك فى خدمة المسيحية (١) .



(١) Marrou, op. cit., Conclusion, L'Humanisme Classique, pp. 297-309.



الفصل التاسع

التربية والتعليم عند المصريين في عصر البطالمة



ازاء افتقارنا حتى الآن الى مصادر تيسر لنا اعطاء صورة متكاملة عن التربية والتعليم عند المصريين فى عصر البطالمة ، لا يسعنا الا أن نعرض فى ايجاز شديد ما استخلصه الباحثون من مصادر العصور الفرعونية عن التربية والتعليم في تلك العصور ، ثم نبدى الرأى فيما يحتمل أن يكون قد طرأ من تطورات فى عصر البطالمة على ماكان المصريون يألفونه فى هذا الصدد منذ عهد بعيد •

توصل الباحثون من دراسة المصادر المصرية القديمة الى عدد من النتائج فى مجال التربية والتعليم (١) ، لعل أهم ما يعنينا منها هنا هو ما يأتى :

أولا : أن المصريين كانوا شديدى الحرص على رعاية صحة أولادهم وتربيتهم منذ حداثة سنهم على أفضل قواعد الأخلاق وآداب السلوك والمعاملة ، مثل ما كانوا شديدى العطف عليهم فلا يوفرون لهم حاجاتهم من مأكل ومشرب وملبس فحسب بل أيضا أدوات اللعب ويتيحون لهم الفرص لممارسة مختلف الألعاب الفردية والجماعية ، وذلك ادراكا منهم لمكانة اللعب عند الأطفال والصبية وأثر ذلك فى تنمية مداركهم •

---

(١) راجع الجزء الأول من هذه السلسلة وكتاب الدكتور عبد العزيز صالح «تاريخ التربية والتعليم في مصر القديمة» ؛ القاهرة ؛ ١٩٦٦ •

ثانيا : أن المصريين درجوا عادة على أن يرث الابن عن أبيه مهنته أو حرفته ٠

ثالثا : أنه حتى في أزهى عصور مصر الفرعونية كانت الأمية فاشية بين المصريين (١) ٠

رابعا : أنه كانت توجد ثلاث مراحل تعليمية : مرحلة أولية ، ومرحلة متوسطة ، مرحلة متقدمة ٠

ويبدو أنه منذ الدولة الوسطى على الأقل كان التلاميذ يتابعون مرحلة التعليم الأولى فى مدارس متواضعة من الجائز أن بعضها كانت ملحقة بالمعابد ، على حين أنه لا يوجد ما يستدل منه على ان البعض الآخر من هذه المدارس كانت تمت الى المعابد بصلة (٢) ٠ والمصادر التى تتناول مدارس هذه المرحلة في عهد الدولة الحديثة ، ولاسيما المدارس الملحقة بالمعابد ، وفيرة (٣) ٠ وكان الصبية يتعلمون فى هذه المدارس القراءة والكتابة وبعض قواعد اللغة المصرية والحساب وأصول الدين ٠ وأغلب الظن أن أكثر هؤلاء الصبية كانوا يكتفون بهذه المرحلة من التعليم وينصرفون بعد ذلك لتكسب قوتهم بمزاولة احدى الحرف أو المهن الحرة ، أو بالالتحاق باحدى الادارات الحكومية على نحو ما سيأتى ذكره ٠

وأما الفتيان الذين كانت ظروفهم تسمح لهم بالاستمرار فى الدراسة ، فانهم كانوا يتابعونها فى مدارس المرحلة المتوسطة ، وكانت على الأقل منذ الأسرة الثانية عشرة اما مدارس تتصل بالمعابد ، واما مدارس يبدو أنها

---

(١) Cf. Erman-Ranke, Aegypten, p. 192.

(٢) عبد العزيز صالح المرجع السابق ذكره ص ١٥١ ٠

(٣) Erman, Literatur, pp. 238 ff.

كانت مستقلة عن المعابد (١) • ويبدو أن التعليم فى مدارس المعابد لم يقتصر على الدين بل كان متنوعا ويشمل الحساب والمساحة والفلك والآداب (٢) • ولاشك فى ان مدارس المعابد كانت أعرق المدارس المصرية وأرقاها جميعا ، لأن المنشآت الدينية أقدم عهدا من سائر المنشآت المصرية ، ولأن الكهنة كانوا أكثر المصريين علما •

وتوجد منذ عصر الرعامسة قرائن واضحة على اشتراك ادارات الحكومة فى مرحلة التعليم المتوسطة (٣) • ذلك أنه فى مختلف الدواوين الحكومية كان الموظفون المجربون يتولون تعليم وتدريب أولئك الشبان الذين أتموا دراستهم الاولية ورغبوا فى الانخراط فى سلك الوظائف الحكومية • ويتبين من نصوص ذلك العصر أن الموظف المعلم كان عادة لا يعلم أكثر من شخص واحد فى وقت واحد للنهوض بأعباء وظيفة بعينها • ومعنى ذلك أنه لم توجد فى ادارات الحكومة مدارس على النحو المفهوم • ومما يجدر بالملاحظة أن التعليم فى دور الحكومة لم يكن مقصورا على التدريب وتلقين أصول العمل ، فقد كان يشمل كذلك بعض الدراسات الأدبية بوصف كونها جزءا مكملا للاعداد المطلوب • ويبدو أن الادارات التى كانت تباشر هذه المرحلة المتوسطة من التعليم فى عصر الرعامسة كانت ادارات بيت المال ، وادارات الجيش • ويبدو أن التعليم فى ادارات الجيش لم يكن يستهدف اعداد كتبة فى هذه الادارات وانما اعداد ضباط للجيش ، وأنه كان يتولى أمر ذلك شخصيات تجمع بين الثقافتين الأدبية والعسكرية • ويبدو أن الادارات المتصلة بالمعابد أيضا كانت تقوم بنوع من التعليم يماثل ما كانت تقوم به ادارات بيت المال •

---

(١) عبد العزيز صالح ص ١٧٠ وما بعدها •

(٢) Diod., I, 81; Dawson, The Age of the Gods, pp. 66-7, 112-3, 123, 132.

(٣) عبد العزيز صالح ١٧٤ وما بعدها •

واذا كان طبيعيا أن مدارس المرحلتين الأولى والمتوسطة كانت توجد في مختلف أرجاء البلاد ، فان مدارس المرحلة المتقدمة أو « دور الحياة » على حد تعبير المصريين القدماء لم توجد الا في العواصم الكبرى حيث اقيمت معابد عظيمة كانت تزخر بكهنة ضربوا بسهم وافر في دراسة الدين والفلسفة والقانون والفلك والطب والعمارة • ولعل أشهر هذه « الدور » كانت توجد في أون (هليوبوليس = عين شمس) وسايس (صا الحجر) ومنف (البدرشين) شمونين (هرموبوليس = الأشمونين بجوار ملوى) وأبيدوس (العرابة المدفونة بجوار البلينا) وطيبة (الأقصر) وأدفو • وتوحي القرائن باتصال مراكز الثقافة المصرية العالية بالمعابد اتصالا وثيقا ، ويبدو أن مقار تلك المراكز كانت في المعابد ذاتها أو في مدارس ملحقة بها (١) •

وخير شاهد على رقى الحياة الفكرية في مصر القديمة اشادة كتاب الاغريق بحكمة المصريين القدماء ، ووفود الكثيرين من أبرز الشخصيات الاغريقية على مصر لينهلوا من مواردها العذبة (٢) • وكانت معابد مصر تضم مكتبات عامرة ، ومثل ذلك مكتبة معبد الرمسيوم التي ترجع الى أيام الدولة الحديثة ويرد ذكرها عند ديودوروس الصقلي (٣) • ومعابد عصر البطالمة أيضا لم تخل من المكتبات ، وأحق مكتبات معابد العصور المتأخرة بالذكر مكتبة معبد ادفو (٤) •

***

والآن ماذا كان من أمر التربية والتعليم بين ظهراني المصريين في عصر البطالمة ؟ لسوء الحظ أنه من بين المصادر الوفيرة التي وصلت إلينا من

---

(١) Kees, Religiongesch. Lesebuch, no. 21, 70; Gardiner, The House of Life, J.E.A., 24, pp. 157 ff.

(٢) Homer., Od. IV, ll. 231-2; Diod., I, 69.

(٣) Diod., I, 49, 3.

(٤) Chassinat, Le Temple d'Edfou, III, pp. 339 ff.

عصر البطالمة وبداية العصر الرومانى لا يعنينا منها فى هذا المقام الا نقوش مقبرة بتوسيريس (١) ، وبردية انسينجر (Insinger) (٢) ، وتاريخ العالم (Bibliotheke) الذى كتبه ديودوروس الصقلى (٣) ، وكتاب الجغرافيا (Geographia) أو بعبارة أدق الجغرافيا التاريخية الذى صنفه استرابون (٤) ، ونصبان من أنصاب الموتى من عصر البطالمة (٥) ، ونقوش المعابد المصرية التى اقيمت فى هذا العصر .

وقد كان بتوسيريس كبير كهنة تحوت فى شمونين (هرموبوليس) حين كان بطلميوس الأول لا يزال يحكم مصر بوصف كونه واليا من قبل فيليب أرهيدايوس والاسكندر الرابع اللذين أقيما على عرش الامبراطورية المقدونية بعد وفاة الاسكندر الأكبر . وأما بردية « انسينجر » فانها نسخت فى القرن الأول للميلاد أو قبيل ذلك . ومعنى ذلك أن أول هذين المصدرين ينتمى الى بداية عصر البطالمة ، وثانيهما يرجع اما الى ما بعد انتهاء هذا العصر بفترة قصيرة واما الى أواخر هذا العصر . وأكثر ما نستمده من هذين المصدرين نصائح تربوية تبدو كأنها رجع الصدى لهذا اللون من النصائح التى تزخر بها المصادر الفرعونية ، وتنم عما سلفت الاشارة اليه من شدة حرص الآباء المصريين على بث أفضل قواعد الأخلاق وآداب السلوك والمعاملة فى أبنائهم . وفضلا عن ذلك فان بردية « انسينجر » تشير الى وجود مدرسة يبدو أنها كانت احدى مدارس المعابد .

وأما ديودوروس فانه وان كان قد وضع كتابه عند منتصف القرن الأول قبل الميلاد عقب زيارته لمصر ، أى قبل زوال دولة البطالمة بحوالى

---

(١) Lefebvre, Le Tombeau de Petosiris.

(٢) Roeder, Altaegyptische Erzaehlung und Maerchen, pp. 159-164; Nilsson, Die Hellenistische Schule, pp. 85 ff.

(٣) Diod., I, 80-81.

(٤) Strab., XVII, 2, 5 (823).

(٥) عبد العزيز صالح ص ٢٢٥ .

ربع قرن ، الا أنه يتناول الأوضاع فى مصر الفرعونية ، ويعتمد كثيرا على تاريخ مصر الفرعونية (Aegyptiaka) الذى وضعه هكاتيوس من تيوس (Teos) حوالى عام ٣٠٠ ق ٠ م ٠ بيد أننا نتبين من دراسة ما كتبه ديودوروس عن مصر انه حيثما تكشف له وجود فوارق واضحة بين الاوضاع فى عصر البطالمة وفى العصور السابقة أشار الى هذه الفوارق ، ومثل ذلك أنه عندما أورد عدد المدن والقرى والسكان فى أيام الفراعنة ، أردف ذلك بذكر الأعداد فى عهد بطلميوس الأول (١) ٠ ويحدثنا ديودوروس بأن الآباء كانوا ملزمين بتربية أولادهم جميعا ، وبأنهم كانوا يربونهم بيسر واقتصاد فوق الادراك ٠

وقد زار استرابون مصر فى عام ٢٥ ق ٠ م أى بعد استيلاء الرومان عليها بخمسة أعوام ، وظل فيها نحوا من ست سنوات ٠ ويحدثنا استرابون بأن احدى العادات التى كان المصريون شديدى الحرص على مراعاتها هى تربية كل من يولد لهم من الأطفال ٠ وسنعرض فيما بعد لما جاء عند استرابون فى موضع آخر من مؤلفه وكذلك لما جاء فى النصين اللذين سبقت الاشارة اليهما ولمحتويات نقوش المعابد البطلمية بسبب اتصال ذلك كله بالدراسة العالية ٠

وهكذا يبدو أنه لم يكن من شأن كل الخطوب التى نزلت بالمصريين منذ أيام عزهم فى عهد فراعنتهم الوطنيين صرفهم عن تقاليدهم الموروثة فى مجال التربية ٠ وهذا يتفق وما سلفت الاشارة اليه فى المقدمة التاريخية من أن الشواهد تدل على أن المصريين احتفظوا فى عصر البطالمة بعاداتهم وتقاليدهم ٠

ومن المرجح أنه فى عصر البطالمة ظل المصريون على ما ألفوه فى عصر الفراعنة من أن الولد كان يرث عن أبيه حرفته أو مهنته ، فهذا أمر طبيعى

(١) Diod., I, 31.

ظل شائعا امدا طويلا بين ظهرانينا وفى مجتمعات اخرى بل لايزال متبعا حتى اليوم بين الكثيرين عندنا وعند غيرنا .

ويتبين من المصادر القديمة أن كثيرين من الاغريق النابهين زاروا مصر ونهلوا من موارد ثقافتها العالية . وقد كان أبرز هؤلاء الاغريق طالس ودموقريتوس وافلاطون والمشرع العظيم صولون . ومما له دلالته أنه اذا كان طالس وصولون قد زارا مصر فى صدر القرن السادس قبل الميلاد ، أى فى عهد الأسرة السادسة والعشرين حين نعمت مصر بالسلام والرخاء وشهدت نهضة رائعة فى العلوم والفنون ، فان دموكريتوس زار مصر فى أواخر القرن الخامس قبل الميلاد ، أى ابان السيطرة الفارسية البغيضة وبعد قيام المصريين بثورتين عارمتين ضد الفرس ؟ وزار أفلاطون مصر فى صدر القرن الرابع قبل الميلاد ، أى بعد الثورة المصرية الثالثة ضد الفرس وتخلص المصريين من ربقتهم مؤقتا . ومعنى ذلك أنه لم يكن من جراء الغزو الفارسى وحكمهم الشديد الوطأة وانتقاض المصريين عليهم فى ثلاث ثورات عارمة القضاء على مراكز الثقافة العالية فى مصر . وفى متن من العصر الفارسى يحدثنا وزا (وجا) حور (حر) رسنت - وكان كبير الأطباء ومقربا الى كل من قمبيز ودارا - بأنه « زود دور الحياة بكل دارسيها من علية القوم دون أن يكون من بينهم ابن وضيع » وبأنه « جعلهم تحت اشراف كل ذى معرفة حتى (يتعلموا) منهم فنونهم جميعها ، ثم زودهم بكل نافع لهم وبكل مهماتهم التى كانت مدونة (لهم) ، وذلك وفق ما كانوا عليه من قبل » . ويبدو أن أغلب اهتمام هذا الطبيب الكبير انصب على سايس ، وكانت عاصمة البلاد حينذاك فضلا عن كونها مسقط رأسه . ويظن الباحثون ان هذا الطبيب الكبير كان من خريجى مدرسة طب سايس ، وهى التى يبدو أن شهرتها ذاعت منذ عهد الدولة الوسطى على الأقل (١) . ولا أدل على مكانة هذه المدرسة من أن

---

(١) عبد العزيز صالح ص.ص ٢٢٣ ٢٢٤ .

مؤلف أو ناسخ كل من بردیتی أبرس (Ebers) وهرست (Hearst)
يفخر بأنه تخرج من أون (عين شمس) ثم من ساو (سايس) (١) •

ولاجدال في أنه كان يتعذر على هذه المراكز العلمية العالية الاستمرار في متابعة نشاطها لو لم تكن هناك مدارس أدنى منها تغذيها على الدوام جيلا بعد جيل بدماء جديدة من الطلاب النابهين الذين لم يلبثوا ان تقدموا لحمل مشاعل العلم الى أن سلموها لمن جاءوا بعدهم • ومعنى ذلك أن بقاء مراكز الثقافة العالية حية منتعشة الى ما قبل الفتح المقدونى كان يستتبع وجود مدارس أدنى منها مرتبة ، أى مدارس المرحلتين الأولية والمتوسطة •

وماذا كان من أمر التعليم بمراحله المختلفة فى عصر البطالمة ؟

اذا كنا قد عرفنا أنه حتى فى أزهى عصور الفراعنة كانت الأمية فاشية بين المصريين ، فانه لايمكن أن نتصور أن البطالمة عملوا على محو الأمية بين المصريين مع أنهم لم يحاولوا ذلك بين الاغريق أنفسهم • واذا كانت الغالبية العظمى من المصريين لم تقبل على التعليم فى أزهى عصور حكامها الوطنيين ، عندما لم تكن مرهقة بمثل ما أرهقت به فى عصر البطالمة من التكاليف والالتزامات ، فانه من المستبعد أنها وجهت أية عناية تذكر الى التعليم عندما كانت فريسة للفاقة والبؤس على عهد طغاتها الأجانب •

وقد عرفنا أنه كانت عند المصريين فى عهد الفراعنة ثلاث مراحل تعليمية ، وأن بعض مدارس المرحلتين الأولى والثانية كان ملحقا بالمعابد والبعض الآخر لايمت الى المعابد بصلة ، وأن مدارس المرحلة الثالثة كانت وثيقة الاتصال بمعابد العواصم الكبرى ، وأنه لم تنج من بطش البطالمة طبقة واحدة من طبقات المصريين بما فى ذلك رجال الدين • وقد بقى أن نضيف هنا أن البطالمة اتخذوا من السلاح المادى بصفة خاصة

---

(١) المرجع السابق ص ١٧٠ •

وسيلة لكسر شوكة رجال الدين وتقليم أظافرهم (١) ، وذلك من ناحية بأن عينوا مراقبا لكل معبد ، وفرضوا على رجال الدين سلسلة من الضرائب ، وحرموا المعابد احتكار صناعتى الزيت والمنسوجات ، وأسندوا الى الحكومة ادارة أراضى المعابد وجباية ضريبة الأبومويرا ، وكانت تفرض على الكروم والبقول وحتى عصر بطلميوس الثانى كانت هذه الضريبة من نصيب المعابد • ومن ناحية أخرى درج البطالمة على ان الملك هو الذى يعطى رجال الدين مرتباتهم والمعابد المنح اللازمة لاقامة شعائر العبادة • وهكذا أصبح فى وسع الملك أن يبسط يده أو يقبضها تبعا لموقف رجال الدين حياله ، وأن يظهر فى ثوب ولى النعم للمعابد ورجال الدين ، وأن يسيطر عن طريق مراقبى المعابد على مختلف وجوه النشاط فيها • ذلك أن مراقبى المعابد كانوا مسئولين شخصيا أمام الملك عن ادارة موارد المعابد القائمة داخل أسيجتها ، وعن التزامات المعابد المالية نحو التاج ، وعن حسن التصرف فى هبات الملك للمعابد ، وعن الاشراف على اختيار الكهنة ومراقبة سلوكهم •

ويجمع الباحثون على أن الظروف التى اكتنفت رجال الدين المصريين فى عصر البطالمة كسرت شوكتهم وقلمت أظافرهم • واذا كان من اليسير أن نتصور أنه كانت لتلك الظروف الخانقة آثار نفسية عميقة فى رجال الدين المصريين ، فانه من الاسراف فى الرأى أن نتصور أنه كان من شأن ذلك القضاء على دور المعابد فى مجال التعليم • ذلك أنه من ناحية كانت هناك حاجة مستمرة الى عناصر جديدة من الكهنة ومن محررى العقود ومن محترفى الاشتغال برسم أو بحفر المناظر والنقوش الدينية سواء على جدران المعابد والمقابر أم على التوابيت • ومن ناحية أخرى كان البطالمة أنفسهم يدركون ضرورة وجود عدد كاف من رجال الدين

---

(١) راجع ابراهيم نصحى الجزء الثانى ص ٤٤ وما بعدها •

لاقامة الشعائر الدينية فى وطن شديد الاعتزاز بدياناته ويزخر بالآلهة والمعابد فى كل ارجائه ، كما انهم كانوا يستشعرون الحاجة الى توافر المشتغلين بتحرير العقود تيسيرا للمعاملات بين الأهالى ، وكذلك الى توافر المشتغلين بحفر النقوش والمناظر الدينية على جدران المعابد على الأقل ، ذلك أنه فى الوقت الذى ضيق فيه البطالمة الخناق على رجال الدين حرصوا على استمرار اقامة شعائر الديانة المصرية وعلى تشييد المعابد الجديدة لآلهة هذه الديانة وعلى ترميم القديم منها أو الاضافة اليه ، جريا على نهج الفراعنة فى ذلك الصدد . ذلك أن البطالمة ، ليفيدوا من مركز فرعون عند المصريين فى استغلال ثروة البلاد وتسخير الأهالى فى خدمتهم ، اتخذوا صفات الفراعنة وحرصوا على أداء واجباتهم التقليدية نحو آلهة البلاد (١) .

ومما يجدر بالملاحظة أنه فى ١٧ من طوبه (٦ من مارس) عام ٢٣٧ ق . م . (العام التاسع من عهد بطلميوس الثالث) تقرر أن تنشأ منذ ذلك الوقت فى كل معبد فئة خامسة أو بلغة الاغريق قبيلة خامسة من الكهنة الى جانب القبائل الأربع التقليدية التى كان كهنة كل معبد يتألفون منها حتى ذلك الوقت وتسمى هذه القبيلة قبيلة الالهين الخيرين (بطلميوس الثالث وزوجه) ، وأن تتألف هذه القبيلة الجديدة من كل الذين انخرطوا فى سلك الكهنة منذ العام الأول (من عهد بطلميوس الثالث وهو الذى صدر هذا القرار بمناسبة عيد ميلاده وعيد ارتقائه العرش) ، ومن الذين ينخرطون فى هذا السلك حتى شهر مسرى من ذلك العام (أى فى خلال ستة شهور من صدور القرار) ومن سلالة هؤلاء جميعا باستمرار ، وأن الذين أصبحوا كهنة قبل العام الأول (من عهد بطلميوس الثالث) يظلون فى قبائلهم ، وأن

---

(١) راجع ابراهيم نصحى المرجع السابق ص ١٤ وما بعدها .

الأبناء يندمجون فى قبائل آبائهم (١) • وتشير القرائن الى أنه منذ ذلك الوقت أصبح كهنة المعابد المصرية يتألفون من خمس قبائل ، والى أن اقامة شعائر عبادة البطالمة فى المعابد المصرية كانت من اختصاص القبيلة الخامسة وهى التى يبدو ان بطلميوس الثالث أنشأها لهذا الغرض (٢) •

واذا كان القرار السالف الذكر لا يستتبع حتما زيادة عدد الكهنة المصريين فى عصر البطالمة ، فانه لا يمكن أن يوحى بالعكس • وما جاء فى هذا القرار خاصا بادماج أبناء الكهنة فى قبائل آبائهم يؤيد ما سبق ترجيحه من حفاظ المصريين فى عصر البطالمة على عادتهم المألوفة بأن يرث الابن حرفة أو مهنة أبيه •

ولا جدال فى أن مدارس المعابد فى مرحلتيها الأولى والوسطى كانت خير مكان لاعداد ذلك الجيش الجرار ممن سبق القول بأنه كانت هناك حاجة ملحة الى اعدادهم باستمرار • ومع ذلك اذا كان من الجائز أن يكون قد صحب نقص موارد المعابد وسوء حالة رجال الدين ماديا ومعنويا نقص عدد مدارس المعابد وهبوط مستواها ، فانه فى ضوء معلوماتنا الراهنة يصعب تقدير مدى ذلك ، مثل ما يصعب تقدير مدى تأثير سياسة البطالمة المجحفة بالمصريين على مدارس المرحلتين الأولى والوسطى التى لم تكن ملحقة بالمعابد ، وان كنا لا نعدو الحقيقة اذا تصورنا ان ذلك التأثير كان قويا بحيث أن عدد هذه المدارس نقص نقصا محسوسا وأن مستواها العلمى هبط هبوطا ملحوظا •

ونكاد نجزم بأن مدارس المعابد فى مختلف مراحل التعليم أوصدت أبوابها دون لغة الاغريق وثقافتهم ، وذلك أن هذه المدارس

(١) ورد هذا القرار فى لوحة كانوب المشهورة ، انظر الترجمة الانجليزية فى Bevan, History of Egypt under the Ptolemaic Dynasty, pp. 208- 214. (وبخاصة ص ٢١٠)

(٢) راجع ابراهيم نصحى ص ٢٦ ــ ٢٧ •

كانت المعاقل الحصينة للثقافة المصرية ، واشتهرت باستمساكهـا بتقاليدها على مر العصور . ومرد ذلك الى أن القائمين بالتدريس فيها كانوا رجال الدين وهم الذين كانوا أقطـاب الثقافة المصرية ويعتبـرون تراث الماضى أمانة فى أعناقهم .

ومن المعروف أن اللغة الاغريقيـة أصبحت فى عصر البطالمة اللغة الرسمية فى البـلاد ، ومع ذلك فان الكتابتين الهيروغليفية والديموتيقية بقيتا مستعملتين عندئذ لا على جـدران المعابد وأنصـاب الموتى والتوابيت فحسب بل كذلك فى اللوائـح والقوانين وبخاصـة ما كان منها متعلقا بالضرائب (١) ، وما كان أكثرها ! وفى هذا أبلغ دلالة على أمـرين ، وأحدهما هو أنه كانت لا تزال توجد طوال عصر البطالمة مدارس أولية مصرية كثيرة لسد حاجة الراغبين فى العلم أو فى مزاولة المهن الحرة أو بوجه خاص فى تولى الوظائف الحكومية الصغرى التى سمح البطالمة للمصرين بتوليها . والأمر الآخر هو أن الغالبية العظمى من المصرين كانوا لا يعرفون الاغريقيـة . وأغلب الظن أن اللغة الاغريقيـة لم تشق سبيلها الى المدارس المصرية الأولية سواء أكانت ملحقة بالمعابد أم لا . ولعـل أن يـكون أهم تطـور طرأ فى هذا العصر على المدارس المصرية الأولية التى لم تكن متصـلة بالمعابد هو نقص اهتمامها بالكتابة الهيروغلفية نقصا كان يقابله ازدياد اهتمامها بالكتابة الديموتيقية بسبب الازدياد المطرد فى استخدام هذه الكتابة فى الحياة اليومية .

وفى معرض الحديث عن التعليم الاغريقى واعداد الشبان لتولى الوظائف فى الأداة الحكوميـة الجديدة التى أنشـأها البطالمة رجحنـا أن ادارات الحكومة كانت فى الوقت نفسه مدارس أو مراكز لاعداد موظفى الحكومة الجدد . واذا كان البطالمة الأوائل قد احتفظوا بالمناصب الرئيسية

---

(١) Schubart, Einfuehrung in die Papyruskunde, Berlin, 1918, p. 307.

للاغريق وكان البطالمة الأواخر قد فتحوا الباب أمام المصريين لتولى بعض المناصب الكبرى فى الادارة المحلية ، فان البطالمة جميعا سمحوا للمصريين بتولى الوظائف الحكومية الصغرى . ولما كانت اللغة الاغريقية قد أصبحت اللغة الرسمية فى البلاد ، فانه كان يتعين على المصريين الذين يتولون هذه الوظائف معرفة اللغة الاغريقيــة . واذا كان من المرجح أن جانبا من تدريب هؤلاء المصريين كان تدريبا لغويا ، فانه من المستبعد أنه كان يشمل تعليمهم مبادىء اللغة الاغريقية ، ولذلك نرجح أن الالمام بهذه المبادىء كان شرطا أساسـيا يجب توافره لدى المصريين الراغبين فى العمل فى الحكومة . وأغلب الظن أن هذا الشرط كان يتحقق عادة على أيدى المدرسين الاغريق المنتشرين فى أرجاء البلاد وكان أجرهم زهيدا . وكانت هذه الوسـيلة أيسر من الذهاب لهذا الغرض الى مدرسة اغريقية ابتدائيـة ، لأنه اذا كنا قد رجحنا أن معرفة اللغة الاغريقية كانت شرطا أساسيا للعمل فى الحكومة ، فاننا نرجح أنها لم تكن الشرط الوحيد ، فقد سبق أن ذكرنا أن الهيروغليفية والديموتيقية ظلتا مستعملتين فى اللوائـح والقوانين ، وكان لايمكن تعلمها الا فى مدرسـة مصرية . وتبعا لذلك اذا كان من الجائز أن بعض المصريين المتطلعين الى العمل فى الحكومة كانوا يتعلمـون فى المدارس الابتدائية الاغريقية ، فانه من المستبعد أن كل المصريين الراغبين فى تولى وظائف حكومية كانوا يفعلون ذلك . ولا يخامرنا الشك فى أن أغلب أولئك الموظفين الذين تعلموا أسـاليب العمل الاغريقيـة والرطانة بالاغريقية وتحرير الخطابات أو نسخها بالاغريقية لم يتذوقوا شيئا من الآداب الاغريقيـة ، ولم يكن حظهم من الحضارة الاغريقية الا حظا تافهـا يكاد أن يكون فى حـكم العدم . ومما يجـدر بالملاحظة أنه اذا كان دخـول المدارس الابتدائية الاغريقيـة ميسورا للمصريين ، فان الجومنـازيا ـ أى المدارس الاغريقية الثانوية ـ كانت توصد دونهم أبوابها .

ولابد من أن تكون ادارات الجيش الخاصة بالفرق المصرية قد تابعت

نشاطهـا فى اعداد الضـباط اللازمين لهذه الفرق • وبطبيعة الحال كان لا يلتحق « بمدارس » هـذه الادارات الا أفراد من البقية القليلة الباقية من الارستقراطية المصرية الدنيوية • ولابد من ان الاغريقية أصبحت تدرس عندئذ فى هذه « المدارس » • ولعل أن حظ أبنائها من الثقافة الاغريقيـة كان أوفى من حظ أبنـاء سـائر « المدارس » الحكوميـة • ولا يبعد أن ديونوسيوس بتوسرابيس كان أحـد خريجى هـذه المدارس • وكان هذا الرجل ضابطا فى الحاشية الملكية ، ويوصف بأنه مصرى متأغرق ، وهو ما ينم عنه اسم الخليط المؤلف من شقين أحدهما اغريقى والآخر مصرى • ويعزى اليه أنه حاول القضـاء على حكم البطالمة باثارة الاسكندريين ضد بطلميوس السادس مستغلا فى ذلك محبتهم لأخيـه الأصغر ، حتى اذا ما تخلص من الأخ الأكبر استنفر وطنيـة المصريين ضـد الأخ الأصغر ، ولكنه لم يكتب لهذه المحاولة النجاح (١) •

ولايبعد أن الطبقة العليا من المصريين بوجه عام كانت ترى فى تعلم اللغة الاغريقية استكمالا لمؤهلات أفرادها ، مثل ما كانت الحال ازاء اللغة البابلونيـة على عهد الأسرة الثامنة عشرة • ولعل أفراد هذه الطبقة كانوا يتعلمون الاغريقية على أيدى مدرسين خصوصيين • ومثل ذلك أن سيدة اغريقية كتبت الى ابنها خطابا لتهنئه على تعلم اللغة المصرية وتعيينه مدرسا خصوصيا عند أسرة طبيب مصرى (٢) •

وأغلب الظن أن أولئك المصريين الذين أخـذوا على عهد البطـالمة الأواخر يعملون على صبغ أنفسهم بصبغة اغريقية طمعا فى الفوز بمركز يعادل مركز الاغريق كانوا يدخلون المدارس الابتدائيـة الاغريقية ثم

(١) Diod., XXXI, 15 a; Jouguet, Nat. Eg., III, pp. 145-8; Rostovtzeff, op. cit., p. 719.

(٢) Urk. Ptol. Zeit, 148; Préaux, Lettres Privées Grecques d'Egypte, Revue Belge, VIII, 1920, p. 767.

يستكملون دراستهم على أيدى مدرسين اغريق ، وذلك لعجزهم عن دخول الجومنازيا .

وماذا كان من أمر معاهد العلم المصرية العالية ؟ ان المصادر غير المصرية لا تشيد الا بدار العلم (جامعة الاسكندرية) وقفزاتها الرائعة فى الدرس والبحث ونتائجها المثيرة فى مجالات الاداب والعلوم والطب والجراحة . وباستثناء الحديث المقسط الذى يفضى به استرابون ، فن هذه المصادر تلوذ بصمت مطبق عن المعاهد المصرية العالية . ويحدثنا استرابون (١) بانه كانت لرجال الدين فى هليوبوليس مؤسسة علمية ذاعت شهرتها قديما فى الفلسفة والفلك ، وبأنه عندما زار المدينة (فى عشرينات القرن الأول قبل الميلاد) كانت هذه المؤسسة قد تلاشت ، ويستدل استرابون على ذلك بأنه لم ير لها نشاطا ولم يحط علما بمن كان يشرف على هذا النشاط مع أنه أشير له الى بيوت الكهنة ومدرسة أفلاطون ويودوكسوس . وسيتكشف لنا مما سنعرضه فيما يلى اذا كان معهد هليوبوليس قد تلاشى فعلا فى بداية العصر الرومانى أم اذا كانت أهمية هذا المعهد هى التى تلاشت فبدا كما لو لم يعد لهذا المعهد وجود .

ان لدينا من الشواهد ما يدل على أن هذا المعهد العريق كان لايزال متمتعا بمكانته السامية فى بداية عصر البطالمة . ذلك أنه فى أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الثالث قبل الميلاد كان مانثون السمنودى كبير كهنة هليوبوليس وتبعا لذلك فى طليعة أساتذة معهد هذه المدينة . وقد اشتهر مانثون بحكمته وغزارة علمه فاختاره بطلميوس الأول عضوا فى اللجنة التى اصطنعت ثالوث الاسكندرية (٢) أملا فى القضاء على النفور الدينى بين المصريين والاغريق . ولم يلبث بطلميوس الثانى أن كلف

---

(١) Strab., XVII, I, 29 (806).

(٢) Plut., De Iside, 28.

مانثون بوضع كتاب فى تاريخ مصر القديم • وقد نهض مانثون بمهمته على خير وجه ، فقد حاول « جهد طاقته أن يضع الأيدى والعيون على أصدق صور الحياة المصرية وأقربها الى الواقع •••• وسجل أسماء الملوك المصريين من عهد (منا) الى أيام الفتح الفارسى الأخير على يد (اجزرسيس الثالث) حوالى عام ٣٤٣ ق • م • ثم قسم الحكام المصريين ثلاثين أسرة » • ولسوء الحظ أنه لم يصل الينا من مؤلف مانثون الا ذلك القدر القليل الذى حفظه لنا من جاءوا بعد مانثون من مؤرخين ونقلوا عنه • ولا ادل على عناية هذا العالم الجليل بتحرى الحقيقة وعلى قيمه مؤلفه النفيس من ان هذا المؤلف ظل امدا طويلا مرجعا اساسيا يعتمد عليه المؤرخون اليهود والمسيحيون لاثبات تواريخ الاحداث التى وردت فى التوراه (١) ، ومن ان الباحثين فى تاريخ مصر القديم يرون ان تاريخ مانثون « قد ظل ••• وسيظل على الدوام سندا قويا صحيحا يعتمد عليه كل مؤرخ فى تقسيم الحكام المصريين الى اسر على نحو ما نقرأ فى كتب التاريخ » (٢) •

ونجد فى المصادر المصرية شواهد عديدة بعضها مباشرة وبعضها غير مباشرة وان كانت أبلغ من الأولى فى دلالتها على ما يعنينا من أمر المعاهد المصرية العالية وعلمائها فى عصر البطالمة • وهذه الشواهد جميعا تلقى بعض الأضواء على ما نجد فى الوصول اليه ، فهى ترينا أمرين : أحدهما هو استمرار المعاهد المصرية العالية فى ممارسة نشاطها فى عصر البطالمة ، والآخر هو طبيعة نشاط « علماء » هذه المعاهد أو « كتاب دور الحياة » على حد تعبير أجدادنا •

ومن الشواهد التى نستمد منها دليل على استمرار نشاط المعاهد المصرية العالية وعلمائها ما جاء على نصبين من أنصاب الموتى يرجعان

---

(١) Oxford Class. Dict., s.v. Manetho.

(٢) أحمد بدوى ، « فى موكب الشمس » الجزء الأول ، القاهرة ، ١٩٤٦ ، ص ٦٥ — ٦٦ .

الى عصر البطالمة • ذلك أن أحدهما نصب اقامه « كاتب ملكى وكاهن تجوتى داخل دار الحياة » وسجل على هذا النصب نقشا يناشد فيه « كل خبير فى الكتابة تنور (؟) فى دار الحياة » ان يقرأ له صيغة القربان • والنصب الاخر سجل عليه صاحبه نقشا ذكر فيه أنه كان عالما فى دار الحياة ومدير تعليم أبناء عدد من طوائف الكهنة (١) •

وتدل شواهد متعددة على أنه ازاء ازدياد الابتعاد باطراد عن استخدام الكتابة الهيروغليفية فى شئون الحياة فى عصر البطالمة والرومان عنى علماء أو كتاب دور الحياة بالحفاظ على هذه الكتابة ، وتبعا لذلك اعتبر أولئك العلماء أو الكتاب الأمناء الأوفياء على الكتابة الهيروغليفية ، بل انه أطلق أحيانا على هذه الكتابة « كتابة دار الحياة » ، مما يوحى بأن هؤلاء العلماء أو الكتاب كانوا يدرسون هذه الكتابة أو يتدارسونها فى دورهم (٢) •

واذا كنا نجد هنا مؤشرا واضحا الى اتجاه العلماء المصريين فى عصر البطالمة ، فاننا سنجد فيما يلى دلالة قاطعة على هذا الاتجاه • لقد شيد البطالمة عددا كبيرا من المعابد المصرية نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر معابد أدفو (٣) ودندره (٤) وكوم أومبو (٥) •ولم تكن هذه المعابد مزودة بالمكتبات فحسب ، بل ان جدرانها مغطاة بنقوش تتضمن مختلف العقائد الدينية المصرية مفصلة تفصيلا شاملا دقيقا على نحو لم يسبق له مثيل فى المدونات التى وصلت الينا من العصور السابقة لعصر البطالمة • ولاشك فى أنه كان لا يستطيع اعداد وتحقيق ذلك العدد الهائل

---

(١) عبد العزيز صالح ص ٢٢٥ •
(٢) المرجع السابق الصفحة نفسها •
(٣) Chassinat, Le Temple d'Edfou.
(٤) Chassinat, Le Temple de Dandara.
(٥) De Morgan, Kom Ombo.

من النصوص الا عدد كبير من العلماء الفارهين ، ولا فى أن انجاز هذا العمل اقتضى قدرا كبيرا من البحث والدرس والتامل • ويبدو ان العلماء المصريين اذ وجهوا عنايتهم الى صيانة التراث المصرى القديم للاجيال القادمة ، حرصوا فى الوقت نفسه على الا يتركوا هذا التراث فى صورته الموجزة الغامضة المالوفة فى المدونات السابقة ، بل على ان يسجلوه فى اسهاب دفعا لاى لبس وضمانا لعدم تسرب عناصر دخيلة اليه •

ومعنى ذلك كله أن الشواهد التى لدينا توحى بأن المعاهد المصرية العالية ظلت تمارس فى عصر البطالمة نشاطا علميا لكنه كان نشاطا مقصورا على صيانة التراث الماضى وحمايته من طغيان الثقافة الاغريقية • وتبعا لذلك لاجدال فى أن محتويات مكتبات المعابد لم تتغير تقريبا فى عصر البطالمة ولا فى العصر الرومانى عما كانت عليه من قبل (١) • وليس معنى ذلك أن رجال الدين المصريين لم يتعلموا الاغريقية على الاطلاق ، ذلك أن الشواهد تشير الى أنه كان لبعضهم على الأقل دراية تامة بالاغريقية ، وهى التى نرجح أنهم اكتسبوها على أيدى مدرسين خصوصيين •

ويبدو أنه عندما فرغ العلماء المصريون من تدوين تراث الماضى انصرفوا الى العناية بصيانة الكتابة الهيروغليفية • وهكذا انحدرت حالهم وحال معاهدهم انحدارا شديدا مطردا ضاعت فى ركابه أهمية هؤلاء وهؤلاء • فلاعجب أن يكون استرابون قد تصور أن معهد هليوبوليس كان قد تلاشى من الوجود عندما زار مصر • واذا كانت هذه هى حال أعرق المعاهد المصرية ، فهل يبعد أن ذلك كان أيضا شأن غيره من المعاهد المصرية ؟

---

(١) Thompson, Ancient Libraries, Berkeley, California, 1940, p. 2.

وهكذا يتضح لنا أن أكبر ضحية لسياسة البطالمة الغاشمة ازاء المصريين بوجه عام ورجال الدين بوجه خاص كانت مدارس المرحلة المتقدمة ، أى المعاهد المصرية العالية ، حيث تجلت فيما يبدو أوضح الصور لنتائج تلك السياسة . وهذا أمر طبيعى ، ذلك أنه من المسلم به أن العلوم والفنون لا يمكن أن تزدهر فى جو موبوء بالكبت الخانق ماديا ومعنويا . وتبعا لذلك لا يأخذنا العجب من أن أهمية المعاهد المصرية العالية تضاءلت تضاؤلا شديدا وطغت عليها مكانة « دار العلم » (جامعة الاسكندرية) ، ولا من أن النشاط العلمى الاغريقى لم يواكبه نشاط علمى مصرى يماثله بل يدانيه فى الخلق والابتكار . ولا شك فى أن ذلك كان نتيجة طبيعية للظروف التى اكتنفت عندئذ أصحاب كل من هذين النشاطين ، ولاسيما أن علماء الاغريق نشأوا فى بيئة متحررة من عقال التقاليد . وتبعا لذلك فانهم وقد وجدوا الأسباب جميعا مهيئة لهم انصرفوا الى البحث والدرس ، واتخذوا من تراث الماضى نقاط انطلاق للسير قدما بخطى سريعة وثابة .

وأما العلماء المصريون ـ أو بعبارة أخرى رجال الدين الفارهون فى العلم ـ فانهم وسط الأوضاع الثقيلة التى فرضها الحكام الأجانب عليهم وعلى البلاد ، ووسط انهماكهم فى تدبير أمورهم وفى بث روح الثورة بين مواطنيهم وفى مواجهة الخلافات التى كانت منذ أمد بعيد تقطع الأوصال بين أتباع الآلهة المختلفة واستغلها البطالمة لاشاعة الفرقة بين زعماء البلاد الروحيين ، ووسط المحاباة الصارخة للحضارة الاغريقية الطارئة ، رأوا فيما يبدو أن واجبهم لايتعدى الذود عن حياض حضارتهم

العريقـة وهى التى كان الاغريق أنفسـهم يفـدون على مصر لينهلوا من مواردها العذبة ، فوقفوا جهودهم على صيانة هذه الحضارة الأصيلة والحفاظ عليها الى أن تنقشع الغمة الجديدة مثل ما انقشعت غيرها من قبل • ولم يكن من شأن بقاء الغمة الجديدة بكل ملابسـاتها وتشعباتها أمدا طويلا وتجمد الحضارة المصرية فى تلك الأثنـاء الا أن هذه الحضارة تخلفت عن ركب الحضارة الاغريقية تخلفا ملموسـا كان نذير الفنـاء فهو نتيجة محتومة للجمود •



مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٧٥/٥٠٧٠